



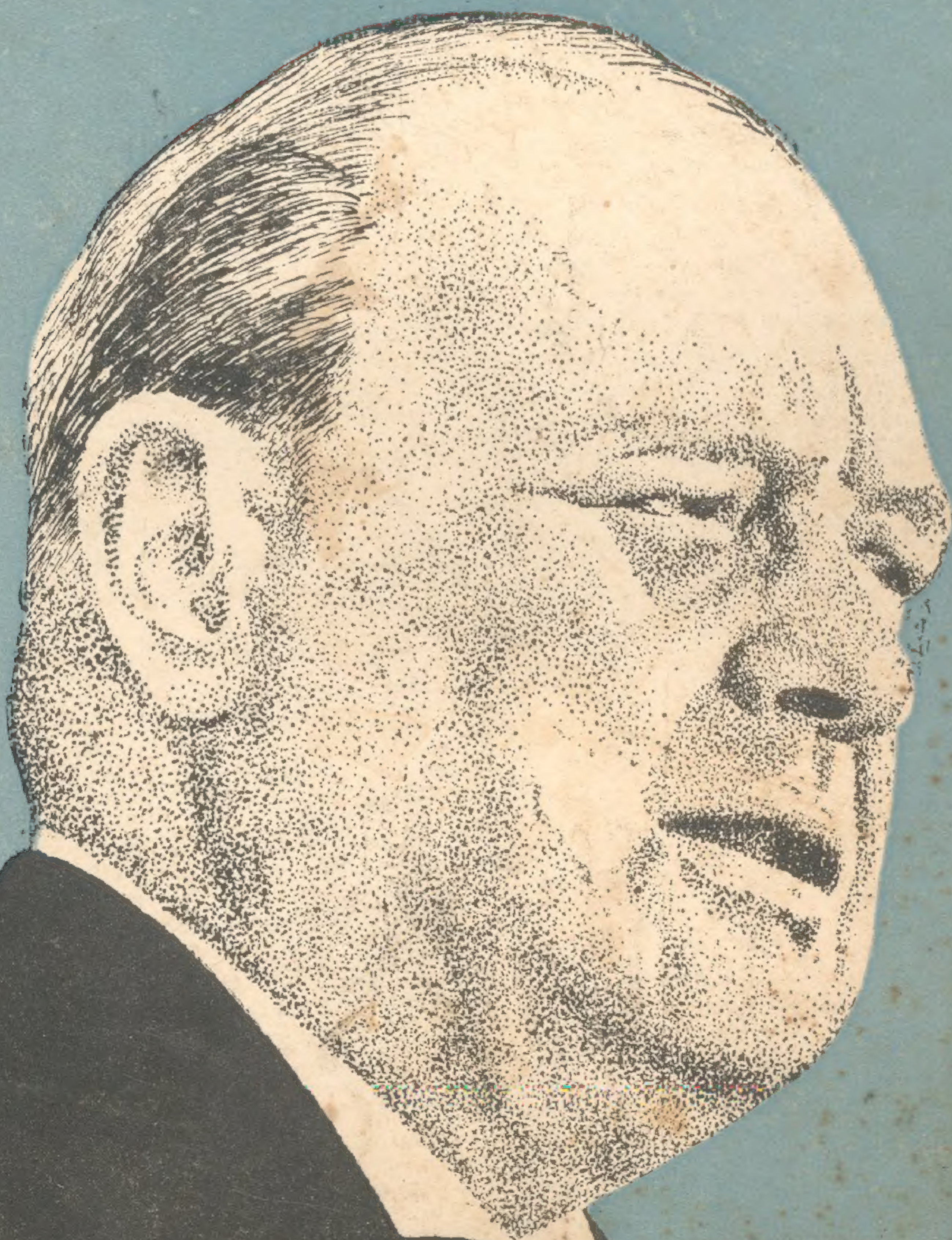
١٣٠

اخترنا لك

مذكرات

ولستون نشرشل

٤



مراجعة: محمد عطا



اختزنا لك

مذكرات
ونسنون تشريش
(٤)

مراجعة: محمد عطا

الحلف الأكبر

٧ ديسمبر عام ١٩٤١

روما يليه

نحن أضيعة أمريكا حين أقول: إن انضمام
أمريكا إلينا في الحرب كان لي مبعث
بهروء لم أحسن به في حياتي من قبل
تشرشل

حلفاؤنا الروس

كان اشتراك روسيا معنا في الحرب أمرا نحيذه بشدة ، بالرغم من أنه لم يكن مجديا لنا في هذا الوقت ، فقد بلغت الجيوش الألمانية من القوة مايمكنها من تهديد انجلترا بالغزو عدة شهور ، وتوغلها في الوقت نفسه داخل الاراضي الروسية .

وقد أجمع القادة العسكريون على أن الجيوش الروسية ستقهر بسرعة وستباد عن آخرها . ولاشك في أن اغفال الحكومة السوفيتية احتمال مفاجأة سلاحها الجوي في مطاراته ، وتوانيها عن اتمام الترتيبات العسكرية ، كانا سببا في البداية السيئة التي لحقت بها ، والتي تحملت الجيوش الروسية أضرارها الجسيمة .

وبالرغم من الدفاع الباسل ، ومن قيادة المعركة بقوة جبارة ، وبالرغم من التفاوض عن قيمة الحياة الانسانية ، والبدء في حرب عصابات طاحنة في مؤخرة الزحف الألماني ، بالرغم من ذلك كله حدث تراجع شامل على طول الجبهة التي تمتد ألفا ومائتي ميل من جنوب ليننجراد الى مسافة أربعمئة أو خمسمئة ميل عمقا . ويرجع الفضل في القضاء على انقوات النازية الى عوامل متعددة : سيطرة الحكومة ، وقدرة الشعب الروسي على الاحتمال ، والعدد الوافر من جنود الاحتياط وسعة رقعة البلاد ، وقسوة الشتاء الروسي .

لكن هذه العوامل لم يظهر واحد منها في عام ١٩٤١ ، وقد اتهم الرئيس روزفلت بالتهور والجراة حينما أعلن في سبتمبر أن الروس سيصمدون ، وأن موسكو لن تسقط في يد هتلر .

ولكن حب الشعب الروسي لبلاده وقوته الفائقة أثبتا صحة ما أعلنه الرئيس

وكان الجنرال بروك ، الذي صحبني في سفرى الى موسكو في أغسطس عام ١٩٤٢ لعقد عدة اجتماعات هناك ، يرى أن الالمان سيستولون على جبال القوقاز ويصلون الى بحر قزوين وسيسيطرون عليه ، ولذلك جهزنا حملة على نطاق واسع للدفاع عن ايران وسورية ، وكان رأيي أنا في استطاعة روسيا الصمود والمناضلة يفوق دائما رأى مستشارى العسكريين تفاؤلا ، لأننى أيقنت بما أكده لى ستالين في موسكو من أنه سيحمى خط القوقاز وأن الالمان لن يستطيعوا أن يبلغوا بحر قزوين بقوات كثيرة ، ولكننا كنا نجهل في الواقع الكثير عن موارد الروس وما يضمرونه حتى استعصى علينا تكوين فكرة صحيحة بعيدة عن التخمين .

وفي الواقع أن خوض روسيا الحرب أبعد غارات الالمان الجوية من

بريطانيا العظمى ، وخفف من حدة خطر الغزو الذي كان يهولنا ، ومنحنا فرصة لان نستجم ونستريح في البحر المتوسط . ولكن من جهة أخرى حملنا اعباء مضمينة وتضحيات كثيرة ، فقد اخذنا نستكمل النقص في اعدادنا ، وبدأت مصانع الذخيرة يتدفق انتاجها من شتى الاصناف والاحجام ، وكانت قواتنا في مصر وفي ليبيا تقتحم قتالا طاحنا ، وتطلب مرات ومرات امدادها باحدث الاسلحة ، وخاصة من الدبابات والطائرات ، وكانت قواتنا هنا تنتظر هي الاخرى على احر من الجمر ما كانت قد وعدت به من هذه الاسلحة الحديثة المبتكرة التي اخذت تتدفق عليها ، فقد اضطررنا حينئذ الى تطوير معظم اسلحتنا وامداداتنا الهامة المتنوعة ومنها المطاط والنفط . وحملنا على كواهلنا تبعات تنسيق القوافل التي تحمل معدات بريطانيا وأمريكا ، ونقلها الى مورمانسك واركانجل مجتازين المحيط المتجمد الشمالي برغم ما في ذلك من أخطار ومخاوف . ولم ترسل أمريكا الينا الا بعض ما كانت تنوي ارساله من الامدادات عبر المحيط الاطلنطي ، واضطررنا امام هذا التغير الكبير وتوقع قطع المعونات الأمريكية عنا دون الاضرار بحملتنا في الصحراء الغربية ، ان نوقف كل الاستعدادات التي فرضتها علينا ضرورة الدفاع عن شبة جزيرة الملايو وغيرها من اجزاء امبراطوريتنا الشرقية واملاكنا ضد التهديد الياباني المتزايد .

وليس من شك في ان هناك حقيقة سيسجلها التاريخ حتما ، وهي ان مقاومة الروس هي التي دمرت قوة الجيش الألماني وأصابته باضرار فادحة ، ووجهت الى الطاقة البشرية للشعب الألماني ضربات قاضية ، وان كنت ارى من الصواب ابراز حقيقة أخرى وهي ان روسيا بقيت أكثر من سنة منذ اشتراكها معنا في الحرب تشكل حملا علينا لا مساعدا لنا ، وبالرغم من ذلك فقد رحبنا بهذا الحمل كل الترحيب ، حيث ان شعبا قويا سيقف الى جانبنا في الحرب ، وكنا نحس بان الجيش الروسي سيقاوم حتى لو اضطر الى التراجع الى جبال الاورال ، وسيكون أداة فعالة اذا واصل القتال . ولم تكن الحكومة الروسية حتى اللحظة التي اغار فيها هتلر على اراضيها تعني بغيرها من الدول ، وقد ظهر هذا واضحا بعد ذلك . فقد ظلت واقفة وقفة المتفرج ، الجامد جمود الصخر تشاهد تحطيم جبهتنا في فرنسا عام ١٩٤٠ ومجهوداتنا الاخيرة في عام ١٩٤١ لتكوين جبهة في البلقان . وقد منحت ألمانيا النازية معونات اقتصادية مهمة وساعدتها في نواح كثيرة وان تكن بسيطة . والآن تحس بأنها قد خدعت وأخذت على غرة وأصبحت معرضة لسلح ألمانيا الفتاك ، لقد كانت سياستها التقليدية تملئ عليها ان تتجه الى بريطانيا العظمى وامبراطوريتها لتنال منها اكبر مايمكن من معونة . ولم يتوان الروس عن مطالبة بريطانيا المناضلة المنهكة في الحاح بان ترسل اليهم الذخيرة التي تحتاج اليها قواتهم وحشوا أمريكا على ان تنقل اليهم اكبر كمية من الذخيرة التي كنا نعتمد عليها . وبدءوا يطالبون كذلك - وهذا هو الاكثر أهمية - حتى صيف عام ١٩٤١ - بنزول قوات بريطانية في أوروبا دون اهتمام بالاضرار والتمن ، وانشاء القوة الثانية . وبدأ شيوعيو بريطانيا - الذين قدموا حتى الآن اردا ما عندهم في مصانعنا ، ولم يكن كثيرا ، والذين كانوا يصنفون

معركتنا « بالحرب الرأسمالية والاستعمارية » - يتحولون بين عشية وضحاها فيملثون الجدران باللافتات التي تحمل شعارهم « الجبهة الثانية ... الآن »

بيد أننا لم ندع على أية صورة هذه الحقائق المؤسفة المخزية تؤثر في اتجاه تفكيرنا ، وركزنا نظرتنا على ما يقدمه الشعب الروسي من تضحيات في ظل تلك الكوارث التي جلبتها حكومتهم عليهم ، ودفاعهم الباسل عن أرض وطنهم . ولاشك في أن هذه البسالة وذلك النضال طول فترة المعركة ، يكفيان للتعويض عن كل شيء .

ولم يفكر الروس مطلقا ، ولو الى حد ضئيل ، في طبيعة العمليات العسكرية البرمائية الضرورية لنزول قوات على أرض معادية أحكم الدفاع عنها ، وامتدادها بالمعدات والمؤن . وكان الأمريكيون في هذه الفترة على جهل تام بهذه المصاعب . فالحصول على السيطرتين البحرية والجوية في مكان النزول والاستيلاء لا بد منه . يضاف الى هذين عامل ثالث هام هو ان تأمين أسطول ضخم لا يهزم من سفن الانزال المجهزة خصيصا لنزول الدبابات في مجموعات كبيرة ، هو الاساس لنجاح أى غزو مهما يقابله من دفاع . وكنت قد بذلت أقصى جهدى ومأبوحت أبذله لتكوين هذا الاسطول ، ولكن لم يكن في الاستطاعة تأمين بعضه ولو في دائرة محدودة قبل صيف عام ١٩٤٣ . ولم يكن في الوسع أيضا - وهذا ما يدركه الجميع الآن - تنمية قوته على نطاق واسع حتى عام ١٩٤٤ . وفي هذا الوقت الذي بلغناه من صيف عام ١٩٤١ لم نكن قد تمكنا من السيطرة الجوية على أى جزء في أوروبا ماعدا خليج كاله ، حيث توجد أقوى الحصون الألمانية مناعة .

وكانت سفن الانزال ما برحت في دور التشييد ، ولم يكن قد تكون عندنا حتى في بريطانيا جيش قوى ممرن ، أحسن تجهيزه واعداده مثل القوات التي لا بد أن نلتقى بها على أرض فرنسا عند نزولنا . وبالرغم من ذلك انهمرت علينا سيول من الحمق وردىء القول فيما يتعلق بالجبهة الثانية . وبدهى لم يكن عندنا أمل في أن نقنع الحكومة الروسية في هذه اللحظة أو غيرها . وقد رأى ستالين في كلام لاحق معنى انه اذا كان البريطانيون يخافون هذا النزول فهو على استعداد لان يبعث بثلاثة فيالق روسية أو أربعة الى بريطانيا لتؤدي هي المهمة ولم يكن في استطاعتي بسبب احتياجنا الى السفن ووسائل النقل العملية الاخرى الا أن أقيده بكلمته وأدفعه الى تنفيذها .

ولم يصل الينا من الحكومة الروسية رد على الرسالة الاذاعية التي وجهتها الى روسيا والعالم حين بدأ الهجوم الألماني عليها الا ماروى لنا من أن فقرات من هذه الرسالة قد نشرتها جريدة «البرافدا» وغيرها من الصحف الرسمية وان الحكومة الروسية طلبت الينا ان نستقبل وفدا عسكريا نوت ارساله الينا . وكان السكوت في الدوائر العليا يدعو للدهشة والعجب . فقررت ان أبدد هذا الجمود وتذكرت ان القادة السوفييت قد يحسون بخجل من كل ما حدث منذ قامت الحرب من مواقف بين الروس والحلفاء الغربيين . وتذكرت ما حدث

بينى وبين الحكومة الثورية البلشفية منذ عشرين عاما تقريبا . ولهذا
أرسلت رسالة الى ستالين فى السابع من يولييه ذكرت له فيها تصميمنا
على تقديم كل مساعدة ممكنة الى الشعب الروسى . وفى العاشر من
يولييه أرسلت مثل هذه الرسالة . ودارت اتصالات رسمية بين وزراء
خارجيتنا بيد اننى لم اتسلم رد ستالين الاول الا فى التاسع عشر
من يولييه .

استهل ستالين رسالته بشكرى على برقيتى اليه ثم قال : « ارجو
الا ابعد عن الحقيقة ان قلت ان موقف القوات الروسية فى الجبهة
مافتىء حرجا . ولهذا يظهر لى ان موقف الروس وبريطانيا سيتحسن
تحسنا كبيرا اذا استطاعتا ان تنشئا جبهة ضد هتلر فى الغرب وفى
شمالى فرنسا وفى شمالى المحيط القطبى الشمالى » .

ولا شك فى ان انشاء جبهة فى شمال فرنسا سيؤدى الى تغيير
وجهة قوات هتلر عن الشرق ويجعل من الصعب عليه ان يغزو بريطانيا
العظمى . ولاشك ايضا فى ان انشاء مثل هذه الجبهة سيلقى كل ترحيب
لدى الجيش البريطانى ولدى جميع سكان المناطق الجنوبية فى
بريطانيا .

ولاشك فى اننى افهم كل الفهم الصعاب التى تقابل ايجاد مثل
هذه الجبهة . ولكننى بالرغم من ذلك مقتنع بضرورة قيامها لا لمصلحة
قضيتنا المشتركة وحدها بل لمصلحة بريطانيا كذلك . ولعل هذه
الفترة نسب وقت لايجادها حيث ان هتلر وجه كل قواته الآن الى
الشرق ولم يكن لديه وقت كاف لتأمين المواقع التى استولى عليها فى
الغرب .

ولعل من الايسر انشاء جبهة فى الشمال . ولا تفتقر بريطانيا
العظمى هنا الا الى عمليات بحرية وجوية دون أن ترغب على انزال قوات
او مدفعية لان قوات روسيا البحرية والجوية ستشارك معها فيها .
وسنقبل بكل ارتياح توجيه مايشكل فرقة خفيفة او اكثر من متطوعى
النرويج الى هذه الجبهة حيث يمكن استغلالهم فى شمال النرويج
للثورة على الالمان » .

ويظهر من هذه الرسالة أن ضغط روسيا لانشاء جبهة ثانية قد
بدأ منذ تبادلت الرسائل مع ستالين ، وهو ضغط تكرر فى كل الاتصالات
التالية مع تفاض كلى عن الحقائق العملية الطبيعية عدا ما يختص منها
بأقصى الشمال . وقد رأيت فيما احتوته الرسالة الاولى التى بعثت
بها الى ستالين اشارة وحيدة الى الاسف من مواقف روسيا السالفة .
فقد انبرى ستالين لتسويغ اسباب تغير روسيا موقفها وتوقيعها لاتفاق
الذى أبرمته مع هتلر قبل الحرب . وصمم كما ذكرت قبل على أن
مصلحة روسيا الاستراتيجية تقتضى بقاء القوات الالمانية فى ابعد مكان
ممكن غربا فى بولندا اغتناما للفرصة وتنفيذا للخطط التى رسمت
للنهوض بروسيا واعدادها عسكريا . ولم أهون من شأن دفاعه هذا ،
ولذلك أمكننى أن أرد عليه ردا منظويا على الفهم .

وقد كرست طاقتى منذ الوهلة الاولى لمعاونة روسيا بالمؤن

والذخيرة بالاتفاق على توجيه المعونات الأمريكية إليها ، أو بالمساعدات المباشرة من بريطانيا . وأرسلنا في أول شهر سبتمبر ما يقرب من سربين من طائرات الهاريكين على متن « أرغوس » إلى ميناء مورمانسك في الشمال ، للمساهمة في دعم الدفاع عن هذه القاعدة البحرية ومساعدة الجيش الروسى في تلك المنطقة .

ودخل السريان القتال في الحادى عشر من سبتمبر ، وقاتلا ببسالة طيلة الاشهر الثلاثة اللاحقة ، وكنت أرى أننا في أول تحالفنا لا يمكننا أن نعمل الكثير . وحاولت أن أشغل الفراغ بحسن المعاملة ، وأن أنشئ بوساطة الاتصالات البرقية ، ما يضاهاى تلك العلاقات الطيبة التى أنشأتها مع الرئيس روزفلت . بيد أنى في هذه الحلقات الطويلة من الاتصالات قل أن تلقيت كلمة طيبة ، وانما كنت أجد الاعراض . وكثيرا ما بقيت برقياتي بلا رد ، أو رد عليها ستالين بعد وقت طويل . ووجد عند الحكومة الروسية انطباع بأنها تسدى إلينا معروفا كبيرا ، لأنها تحارب في أرضها دفاعا عن أرواح مواطنيها وكلما ازدادت الحرب قسوة ازداد هذا المعروف وتضاعف الدين الذى نحمله على عواتقنا ، ولم تكن الفكرة طبعاً سليمة أو مضبوطة . وأرغمت مرتين أو ثلاثا خلال مكاتباتنا الطويلة على أن احتج بأساليب صريحة وخاصة على المعاملة السيئة لبحارتنا الذين كانوا يقتحمون المخاطر والاهوال لنقل الامدادات إلى مورمانسك أو أكانجل ، وكثيرا ما أرغمت على الصمت ، وعلى سماع التبكيت من الآخرين حينما يقولون : « لا تكثر . فالالم هو الوسام الذى يمنحه كل من يجب عليه أن يتعامل مع الروس » . وفعلنا كنت أتجاهل كل شيء نظير ما يلقاه ستالين والشعب الروسى من ضغط وعنف . وليس في امكانى . هنا أن أوضح للقارىء أكثر من الملامح الظاهرة في هذا الكفاح الجبار الحديث الذى بدأ الآن بين الجيوش والشعوب . وقد استطاع الالمان في الشهر الاول أن يشقوا طريقهم متوغلين داخل روسيا ثلاثمائة ميل . وفي نهاية شهر يوليو حدث تعارض رئيسى فى الراى بين هتلر وبراوختيش القائد العام للقوات الالمانية ، وكان من رآى براوختيش أن مجموعة القوات الروسية التى يقودها تيموشنكو تكون القوة الرئيسية للجيش الروسى وأنه يجب تدميرها ودحرها أولا .

وكان هذا الراى صحيحا وقسما براوختيش : انه اذا نفذ ذلك فسيكون من المستطاع الاستيلاء على موسكو وهى مركز العصب الحساس لروسيا عسكريا وسياسيا وصناعيا . ولكن هتلر خالفه فى رآيه كل المخالفة . فهو يطلب احتلال الارض وتحطيم القوات الروسية على أكبر نطاق ممكن ويطلب الاستيلاء على ليننجراد فى الشمال وحوض الدونتر الصناعى فى الجنوب ، وشبه جزيرة القرم . مداخل القوقاز التى بها موارد غنية بالبتروول ، ويرى تبعا لذلك أن تتولى موسكو دورها .

وجرت مناقشات حامية ، وأصدر هتلر أوامره معارضا آراء قادة الجيش ، وحملت الامدادات من الوسط الى القوات الشمالية التى كلفها أن تضاعف من عملياتها للاستيلاء على ليننجراد . وطلب من القوات

للموسطى أن تقف موقف الدفاع ، وأن ترسل قوة من المدرعات « البانزر » في الجنوب لتطويق جناح الروس الذين كان رونشتادت يقوم بمطاردتهم مجتازين نهر الدنييبر ، واستطاع الألمان أن يقوموا بهذا العمل فقبل شهر سبتمبر تجمع عدد كبير من القوات الروسية حول كييف وفي قتال طاحن دام طوال هذا الشهر قتل أو أسر نصف مليون جندي تقريبا ولم يتمكن الألمان في الشمال من احراز مثل هذا النصر . وقد حوصرت ليننجراد ولكنها لم تسلم . وبهذا ثبت أن قرار هتلر كان غير سليم . واضطر الى أن يرجع بفكره وقوته وعزمه الى منطقة الوسط ووجه الامر الى القوات التي تطوق ليننجراد بارسال قوات متحركة وجزء كبير من قوتها الجوية لدعم هجوم جديد يوجه الى موسكو ورجعت القوة المدرعة التي كانت قد توجهت لمساندة فون رونشتادت في الجنوب الى الوسط لتشارك في الهجوم . وفي أواخر شهر سبتمبر كان المسرح قد جهز مرة أخرى للتقدم في الوسط ، وهو تقدم كانت الخطة المرسومة له قد عدل عنها قبل وقت وجيز ، في حين استمرت القوات الجنوبية في زحفها شرقا ناحية الحوض الأدنى لنهر الدون ، الذي يمهّد السبيل أمامها الى القوقاز .

وبدأ الآن اتجاه آخر للقصة ، فبالرغم من الاضرار الفادحة التي أصيب بها الروس استمرت مقاومتهم قوية عنيدة . قواتهم تحارب حتى النهاية وتزداد قوة وبراعة ، وراح الانصار يسرعون خلف خطوط الألمان ويخربون مواصلاتهم في حرب طاحنة قاسية . وثبت أن المواصلات التي استولى عليها الألمان غير صالحة . وبدأت السجبل تتداعى تحت حركة النقل الثقيلة ، وأصبح المشى في هذه الطرق بعد انهيار الأمطار مستحيلا وبدأت سيارات النقل يظهر عليها الجهد والعجز وليس أمام حلول الشتاء الروسي المريع الا شهران تقريبا . فهل ستسقط موسكو قبل قدوم الشتاء ؟ وإذا سقطت فهل في سقوطها الكفاية ؟

هذا هو السؤال المروع . ومع أن هتلر ما برح يحيا على أمجاد انتصاره في كييف فقد بدأ القادة الألمان يحسون أن مخاوفهم السالفة لها ما يسوغها تماما فقد مضت أربعة أسابيع على القوة التي أصبحت الآن القوة الحاسمة ، ولم تتم عملية القضاء على قوات العدو في روسيا البيضاء التي كانت مكلفة بها قوات الجبهة الوسطى ولكن بانقضاء أشهر الخريف ، واستمرار الموقف الصعب في الجبهة الروسية ازدادت طلبات الروس مناشدة والحاحا ورجع اللورد بيغر بروك من أمريكا بعد أن حفز قواها وضاعف هممها لزيادة الانتاج بصورة هائلة . وأصبح الآن الداعية الأول في وزارة الحرب الى ضرورة تقديم المساعدة لروسيا .

وقد قدم في هذا الطريق معونات فعالة ، نافعة وحينما ننظر الى ما تعرضنا له من ضغط للتجهيز لمركتنا في الصحراء الغربية والقلق الذي كنا نشعر به جهة اليابان التي تهدد كل مصالحنا في الملايو والشرق الأقصى ، وإلى أن كل ما تقدمه لروسيا يؤخذ من حاجات بريطانيا الضرورية ، ندرك ادراكا كاملا الداعي لوجود شخص كاللورد بيغر بروك في ذروة مجهودنا الحربي ، ليتولى - الدفاع عن حتمية اجابة مطالب روسيا . وقد حاولت أن احتفظ بالتعاون والتعادل على هدي ما فكرت

واشترك معي في تفكيرى كل رفاقى ، ورأينا احتمال تعريض أمننا الحيوى وخططنا للتدهور من أجل حليفنا الجديد ، والذي كان الى زمن قريب نهائيا للفرص ، طماعا ، لا يكثرث بوجودنا أو صعودنا .

وشعرت أن على بيقر بروك وافريل هاريمان حينما يرجعان من واشنطن ويضحى فى مقدورنا أن نواجه كل احتمالات المؤن والذخيرة ، أن يقصدا الى موسكو ويعرضا كل ما يمكننا أن نستغنى عنه ، وجرت معادثات طويلة وجادة وشعرت وزارات الدفاع بأن ارسال هذه الامدادات بمنزلة رمى بعض لحمنا وبتره . وبالرغم من ذلك جمعنا كل ما أمكننا جمعه ، وقبلنا تحويل معونات ضخمة كانت ستورد الينا من أمريكا وكنا فى غاية الشوق واللهفة اليها لنشارك اشتراكا ايجابيا فى المقاومة الروسية .

وعرضت على رفاقى فكرة ارسال اللورد بيقر بروك الى موسكو فى الثامن والعشرين من شهر اغسطس ، ورغبت الوزارة رغبة صادقة فى أن يبسط اللورد الفكرة لدى ستالين وشعر الرئيس روزفلت أن هاريمان سيمثله على احسن وجه فى تلك المباحثات . وأوجزت لهذا الوفد الموقف كخطوة أولى فى فقرات عامة ضمنتها رسالة أرسلتها الى ستالين وفى ليلة الرابع من سبتمبر قدم المسيو مايسكى لزيارتي وسلمنى رد ستالين . وكانت هذه اول رسالة شخصية ألقاها منه منذ شهر يولية . وقد شكرنا على ما عرضناه من تقديم مائتى طائرة مقاتلة أخرى ثم راح يكرر اللهجة القديمة فيقول :

« ان الهدوء النسبى فى المنطقة الذى نجحنا فى خلقه منذ ثلاثة اسابيع تقريبا ، قد تبدد فى الاسبوع الاخير بنقل ما يقرب من ثلاثين الى اربع وثلاثين فرقة جديدة من المشاة الالمان الى المنطقة الشرقية مع عدد كبير من الدبابات والطائرات الى جانب اتساع نشاط الفرقة الفنلندية العشرين والفرقة الرومانية السادسة والعشرين . . . ويعد الالمان الخطر فى الغرب مجرد خدعة لا غير ، ولذلك حولوا كل قواتهم الى الشرق دون خشية أو رعب ، لانهم مقتنعون بأنه ليست هناك جبهة ثانية فى الغرب ولا يمكن أن توجد . ويرى الالمان ضرورة تدمير أعدائهم الواحد تلو الآخر ، الروس أولا ثم الانجليز من بعدهم . وقد خسرنا بسبب هذا اكثر من نصف اوكرانيا ، وأصبح العدو على أعتاب ليننجراد . .

وانا اوقن انه يوجد طريق واحد للنجاة من هذا المأزق ، وهو انشاء جبهة أخرى خلال هذا العام فى أى مكان ، فى البلقان أو فرنسا ، نستطيع أن تجتذب ما يقرب من ثلاثين الى اربعين فرقة من الالمان . وأن تضمنوا لنا فى الوقت نفسه ثلاثين ألف طن من الالمنيوم فى مستهل شهر أكتوبر المقبل وأن ترسلوا الينا معونة شهرية لا تقل عن أربعمائة طائرة وخمسمائة دبابة من الحجمين المتوسط والصغير »

واستمر السفير الروسى الذى كنت اصاحبه انا والمستر ايدن يحدثنى اكثر من ساعة ونصف ساعة . وفى أسلوب مؤلم أكد أن روسيا تعمل وحدها تقريبا لضغط الهجوم الالماني الجارف فى الاحد عشر اسبوعا السالفة . وقال : ان القوات الروسية تحمل الآن اثقال

هجوم لم يشهد التاريخ مثله . وقال : انه لا يرغب في استعمال لغة المسرح ، ولكن قد ثبت الوقت الحالي انه بداية تحول في التاريخ . فاذا اندحرت روسيا فكيف يستطيع البريطانيون أن يأملوا في النصر ؟ وفي أسلوب مؤلم يدعو للعطف والشفقة أكد المسيو مايسكي أن الموقف حرج للغاية على الجبهة الروسية . وحينما شعرت من خلال هذا الكلام بنغمة مستترة من التهديد ، انقلب عطفى الى غضب ، وقلت للسفير الذى كنت أعرفه من سنين بعيدة : لتعلم أننا قبل أربعة أشهر لم تكن نعتقد انكم لن تخوضوا الحرب مع الألمان ضدنا ، بل كنا نعتقد احتمال خوضكم لها ، وبالرغم من ذلك كنا نثق في انتصارنا في نهاية الحرب . ولم يتراء لنا أن وجودنا أو عدمه معلقان على الخطة التى ستشتركون بها فى القتال أيا كانت . وليس لكم وحدكم من بين الدول الأخرى حق توجيه اللوم إلينا مهما جرى ، ومهما عملتم . ولما أحس السفير الغضب فى لهجة حديثى هتف « أرجو أن تسكن يا عزيزى المستر تشرشل » . وبعد ذلك غير لهجته كلية .

ثم واصل الحديث على الأسس التى وضعناها فيما تبادلنا من برقيات ، ودعانا السفير للنزول فوراً فى فرنسا أو فى الأراضى المنخفضة ، فأبديت له الموانع العسكرية التى تعترض تنفيذ طلبه ، والأسباب التى تسلبه النفع للروس مطلقاً . وقلت للسفير أننى أمضيت خمس ساعات يومئذ مع الفنيين فى دراسة الطرق اللازمة لمضاعفة طاقة ما تحمله الخطوط الحديدية الإيرانية . وتكلمت عن بعثة بيغربروك - هاريمان ، وعن عزمنا على بذل كل ما يمكننا ادخاره أو شحنه من امدادات ، وقلت له أنا والمستر آيدن فى النهاية : اننا من جهتنا مستعدون لأن نبين للفنلنديين اننا سنحاربهم اذا توغلوا داخل روسيا وتخطوا حدودهم الطبيعية التى رسمت عام ١٩١٨ . ولم يستطع المسيو مايسكى طبعاً أن يعدل عن رأيه فى ضرورة انشاء جبهة ثانية فوراً ، وصار من العبث مواصلة المناقشة فى هذا الموضوع .

وأخذت رأى الوزراء فوراً فى المسائل التى درسناها فى اجتماعنا وفى رسالة ستالين ، وأرسلت فى المساء رداً كان أهم ما فيه العبارات الآتية :

« بالرغم من أننا لن نتوانى عن تقديم أى مجهود ، فليس هناك أى احتمال لأن تقوم بريطانيا فى الغرب بأى عمل غير العمل الجوى ، ولا أمل فى انشاء جبهة ثانية فى البلقان دون معاونة تركيا . وأتمنى - ان آذنتم لى فخامتكم - أن أبسط كل الدواعى التى دعت رؤساء أركان الحرب الى الوصول الى تلك النتائج وقد درسنا هذه الدواعى مع سفيركم اليوم دراسة مفصلة فى اجتماع شمل وزير الخارجية ورؤساء أركان الحرب أيضاً . فالعمل الذى يؤدى الى اختلال باعظ النفقات - مهما كان فيه من نيات حسنة - لا ينفع غير هتلر .

ونحن متأهبون الآن لأن نرسم معكم خططا مشتركة ، وهناك وقائع غير ممكن مشاهدتها حالياً ، يتوقف عليها احتمال استطاعة القوات البريطانية عام ١٩٤٢ أن تبلغ درجة تمكثها من الاستيلاء على البر

الأوربي ، وقد نستطيع أن نعاونكم في أقصى الشمال على أية صورة
حينما يسود الظلام تلك المنطقة . ونتمنى أن يزداد تعداد قواتنا العاملة
في الشرق الأوسط الى ثلاثة أرباع المليون قبل أن ينصرم العام الحالي
والى المليون في صيف سنة ١٩٤٢ . وعندما ننتهي من تحطيم القوات
الألمانية والإيطالية في ليبيا ، تستطيع قواتنا جميعها أن تنضم الى جناحكم
الجنوبي . وأملنا كله معلق على الأقل على اقناع تركيا بأن تبقى محايدة
حياداً كلياً . وفي خلال ذلك سنستمر في ضرب ألمانيا من الجو بقوة فائقة
وترك البحار مفتوحة ، والابقاء علينا أحياء ... »

وترأى لى أن المسألة على درجة كبيرة من الأهمية ، وأرسلت حينئذ
برقية الى الرئيس روزفلت بسطت فيها الصور التي بقيت حية في
ذاكرتى وهذا نص البرقية :

« لقد استعمل السفير الروسي ... لهجة لها أهمية خفية
تحدث عن حرج الموقف ، وحقيقة بداية التحول التي هي متعلقة بردنا .

وبالرغم من أنه لم يرد في كلامه ما يثبت هذا الرأي ، فليس في
مقدورنا أن نتناسى احتمال تفكير روسيا في صلح منفرد وأوقن
أن الفرصة قد أضحت حاسمة . وليس في طاقتنا إلا أن نبذل غاية
جهدنا » .

وفي الخامس عشر من شهر سبتمبر تسلمت برقية أخرى من
ستالين هذا نصها : « لا أشك في أن حكومة بريطانيا تتمنى من أعماق
قلبها أن ينتصر الروس وأنها ترنو الى ما يحقق هذا النصر من طرق
وسائل . وإذا كانت بريطانيا ترى استحالة إقامة جبهة ثانية في الغرب
حاليا فمن الممكن الحصول على وسيلة أخرى لبذل المساعدة العسكرية
الإيجابية لروسيا .

« وأنا أوقن أن بريطانيا العظمى تستطيع بلا مخاطر أو مغامرات
انزال خمس وعشرين أو ثلاثين فرقة في أركانجل ، أو نقل مثل هذه
القوة الى المناطق الجنوبية من روسيا مجتازة إيران . وفي هذا الطرف
يسهل إقامة تعاون عسكري بين قوات روسيا وبريطانيا على أرض
روسيا . وقد قام مثل هذا التعاون في فرنسا في الحرب العالمية الأولى ،
ومثل هذا الوضع يحقق عونا كبيرا ، وفي الوقت نفسه يعد ضربة عنيفة
تلك عدوان هتلر »

ولا اكاد اصدق نفسي حين أشاهد رئيس الحكومة السوفيتية
يبدى مثل تلك التفاهات العجيبة ، مع أن لديه كثيرا من القادة العسكريين
وظهر لى أنه من غير المجدى مجادلة رجل تفكيره غير واقعى ، ولذلك
أرسلت اليه ما أمكننى من رد حسن .

وفي خلال ذلك اختتمت مباحثات بيفربروك - هاريمان في لندن ،
ورحلت بعثة التموين الانجليزية الأمريكية فى الثانى والعشرين من
سبتمبر عن ميناء سكاباقلو على متن الطراد « لندن » متجهة الى
أركانجل مجتازة البحر المتجمد الشمالى ، وعلى نجاح تلك البعثة يتوقف

كثير من المسائل ، وقد استقبلت البعثة استقبالا فاترا ، وكانت المباحثات التي جرت غير مرضية للغاية ، لان الروس يرجحون أن ما يكابدونه إنما هو وليد خطئنا . ولم يقدم القادة والموظفون الروس لرفاقهم البريطانيين والأمريكيين أية بيانات ، ولم يودوا أيضا أن يطلعوهم على الاسس التي قدرت عليها احتياجات روسيا من خاماتنا الحربية الثمينة ، ولم يقيم أى حفل رسمي احتفاء بالبعثة - سوى دعوة عضائها لتناول طعام العشاء في الكرملين في آخر ليلة لها بموسكو ، وينبغي ألا يتبادر الى ذهننا أن الاشخاص الذين تشغلهم أهم القضايا ، لا تساعد مثل هذه المناسبات لديهم على تحسين سير العمل الرسمي ، فعلى العكس كثيرا ما يدفع تبادل الاشخاص الآراء في مثل هذه الظروف الى الوصول الى اتفاقيات رسمية ولكن لم تبد روسيا حاليا شيئا من هذه الحفاوة ، وكأننا نحن الذين قدمنا لطلب المعونات منها .

ولعل واقعة صغيرة احتفظ بها الجنرال ايساي على صورة كتاب حر ، تلقى شعاعا على هذه القصة . فقد قام دليل من مصلحة السياحة في روسيا بمصاحبة جندي من بحارة الأسطول الملكي البريطاني يقوم بخدمة الجنرال ليشاهد روسيا ، وقال الروسي : « هذا هو فندق آيدن وكان يسمى في الماضي فندق ريبنتروب ، وهذا هو شارع تشرشل وكان يسمى شارع هتلر ، وهذه محطة بيغربروك ، وكانت تدعى محطة جورنيج . هل ترغب في سيجارة يا صاحبي ؟ » فرد الجندي البريطاني « لا وشكرا أيها الرفيق ، أو اللثيم سابقا » .

وهذه القصة على ما فيها من تهكم تلقى شعاعا على ذلك الجو العجيب المحيط بتلك الاجتماعات .

وأخيرا توصلوا الى اتفاق ودي ، ووقعوا ملحقا يبين المعونات والمطالب التي تكفلت بريطانيا وأمريكا بامداد روسيا بها ابتداء من أكتوبر عام ١٩٤١ الى يونية عام ١٩٤٢ . وقد تضمن الملحق ضرورة إعادة بحث خططنا العسكرية السالفة التي اثر فيها تأثيرا بالغا ماحدث لتمويننا من نقص بين . وقد تحملنا الحمل كله لانه وجب علينا أن ننزل عن انتاجنا الى جانب ما كان مقررا أن ترسله الينا أمريكا من معونات . ولم يكن في وسعنا نحن والأمريكيين أن نبذل الوعود أرتجالا ، بشأن نقل هذه المعونات مجتازة السبل البحرية القطبية الوعرة ، المحفوفة بالاعطال . ونظرا لما سمعناه من ستالين من أسلوب اللوم والتعبر المنكر حينما قلنا ان القوافل لن تتحرك الا بعد أن تسيح الثلوج ، فقد كان ما تكفلنا به هو أن تكون هذه المعونات معدة في موطن الانتاج البريطانية والأمريكية . واختتمت ديباجة الملحق بهذه الفقرة :

« ستقدم بريطانيا العظمى وأمريكا كل مساعدة ممكنة لنقل تلك المعونات الى روسيا والمساهمة في توصيلها » .

وبعث الى اللورد بيغربروك برقية يقول فيها : « ان فائدة هاتين الاتفاقيات تنحصر في رفع الروح المعنوية في موسكو الى درجة كبيرة . إنما الأبقاء على قوة هذه الروح فانه يستند الى وصول المعونات الى

روسيا ولست أرى أن الموقف العسكري هنا قد اجتاز مرحلة الخطر مدة أشهر الشتاء ، وفي طاقة الروح المعنوية أن تنجيه وتؤمنه .

وبالرغم من أن الجنرال إيسماي كان له الحرية المطلقة في دراسة الموقف العسكري من جوانبه المختلفة وتوضيحه للقادة الروس ، فإن بيفربروك وهاريمان قررا ألا يعقدا مهمتهما بآثارة قضايا يتعذر الاتفاق حولها . ولذلك لم يدرس هذا الجانب حاليا في موسكو . واستمر الروس يطالبون بصفة غير رسمية بإقامة جبهة ثانية فورا ، ولم يكن لديهم استعداد لسماع ما يبدي حول استحالتها من أدلة وعذرهم في ذلك ما يكابدونه من الأم ، واضطر سفيرنا إلى أن يصبر على مضض .

وأوشك الخريف أن ينصرم وعادت القوات الألمانية الوسطى بقيادة فون بوك زحفها على موسكو ، وقد تقدم جيشاها مباشرة نحو العاصمة من الجنوب الغربي مع قوات ضخمة من المدرعات تحاول تطويق الجناح . واستولى الألمان على أوريل في الثامن من أكتوبر ، واستولوا بعد أسبوع على كالينين التي هي في طريق موسكو - ليننجراد . وأرغم المارشال تيمو شنكو تجاه هذا الخطر الذي بدأ يهدد جناحه ، وتحت شدة الهجوم الرئيسي من الوسط ، على إرجاع قواته إلى خط يوجد على مسافة أربعين ميلا غربى موسكو ، وهناك قرر الصمود والتضال من جديد . وكان موقف روسيا حينئذ مهددا كل التهديد . وقد تم انتقال الحكومة الروسية والسلك الدبلوماسي وما أمكن نقله من مصانع من العاصمة إلى مدينة كيوبشيف الواقعة على مسافة خمسمائة ميل شرقا . وفي التاسع عشر من أكتوبر أعلن ستالين حالة الطوارئ ، وأصدر الأمر الأول التالي :

« سنناضل عن موسكو إلى آخر فرد » . وقد امتثل لأمره في طاعة ووفاء . وبالرغم من زحف قوة جودريان المدرعة من أوريل إلى تولا ، وبالرغم من محاصرة موسكو الآن من جوانبها الثلاثة ، وتعرضها للهجوم الجوى ، اشتدت المقاومة الروسية في آخر شهر أكتوبر ، وأوقف إلى حد ما وبوضوح تقدم الألمان .

وأحست قرينتى بأن الشعب البريطانى بدأ يتضاعف قلقه والمه يسبب عجزنا عن إمداد روسيا بالمساعدة العسكرية ، وخاصة أن الأشهر تمضى ، والقوات الألمانية تواصل تقدمها مجتازة سهول روسيا فقلت لها : أن مسألة الجبهة ليست مهمة في الوقت الحالى وأن كل ما نستطيع عمله مدة طويلة هو متابعة إمدادها بمختلف أنواع المؤن والمعدات على أكبر نطاق وشاركنى المستر ايدن في تشجيعها على أن تبحث أماكن جمع تبرعات اختيارية للأسعاف وقد شرع الصليب الأحمر البريطانى وجمعية القديس يوحنا في مثل هذا العمل ، ولم يلبث أن أنشئت جمعية مساهمة سميت جمعية « مساعدة روسيا » ودعيت قرينتى لتولى رياستها . وفي آخر شهر أكتوبر وتحت إشراف الجمعية الجديدة وجهت أول نداء لها إلى الشعب البريطانى الذى لباه على الفور تلبية كريهة سخية . وخصصت قرينتى لهذه المهمة السنوات الأربع اللاحقة في حماسة وإحساس فياض بالمسؤولية . وجمع من تبرعات الأثرياء والفقراء معا ما يزيد على ثمانية ملايين من الجنيهات .

وقد دفع بعض الأغنياء مبالغ كبيرة للجمعية ، ولكن معظم هذه المبالغ جمعت من التبرعات الأسبوعية التي تبرع بها الشعب . وبالتنظيم الفائق الذي هياه الصليب الأحمر البريطاني ومنظمة القديس يوحنا ، وعلى الرغم من الأضرار الفادحة في قوافل المحيط المتجمد الشمالي ، اخذت امدادات قيمة من المواد الطبية والجراحية واصناف متعددة من المرفهات والابتكارات الخاصة سبيلها في سيل متدفق متواصل مجتازة البحار المتجمدة المخوفة ، الى القوات الروسية الشجاعة والشعب الروسي المكافح .

الاجتماع بروزفلت

في خلال ذلك جرت في البلاد التي تتكلم الانجليزية أحداث كثيرة مهمة . ففي منتصف يولييه قدم الى بريطانيا المستر هاري هوبكنز مبعوثا من الرئيس في مهمة أخرى . وكان موضوع دراستنا الأول هو الموقف الجديد الذي أحدثه هجوم هتلر على روسيا ، وأثره على كل الامدادات التي كنا نستعيرها من أمريكا أو ندفع لها أجراها ، والتي كنا نستند اليها استنادا كليا . وبعد ذلك انتقل الى تقرير أعده القائد الأمريكي الذي قدمنا له ما يلزم من تسهيلات للاطلاع على كل شيء ، والذي طرح في تقريره ظلالات من الشك على استطاعتنا الثبات أمام الغزو الألماني ، مما سبب اضطرابا واضحا للرئيس .

وعلى هدى هذا انتقل الى الموضوع الثالث ، وهو ما يساور الرئيس من شكوك في حكمة محاولتنا حماية مصر والشرق الأوسط ، فهو يخاف أن نفقد كل شيء بمحاولة حماية كل شيء . وفي النهاية بحث المستر هوبكنز مسألة اعداد اجتماع بيني وبين روزفلت في مكان ما وعلى اية طريقة في اقرب فرصة مستطاعة . وفي هذه المرة لم يكن هوبكنز وحده ، فقد كان بلندن عدد من كبار ضباط جيش أمريكا واسطولها المختصين بشئون الاعارة والتأجير ، وفي مقدمتهم الاميرال جورملي الذي كان يعمل مع الاميرالية البريطانية في حل مشكلات الاطلنطي ، وفي ليلة الرابع والعشرين من يولية اجتمعت مع زملاء هوبكنز ورؤساء اركان الحرب في داوونج ستريت رقم ١٠ . وقد حضر هوبكنز أمير اللواء سيتني وهو مراقب خاص والامير جورملي ، والزعيم لي ملحق أمريكا العسكري ، واشترك معنا في الاجتماع أيضا افريل هاريمان الذي رجع فورا من رحلة الى مصر ، حيث ألم بكل شيء بأمر مني . وقال هوبكنز : « ان المسئولين في أمريكا الذين يشغلون مناصب رئيسية ، والذين يصيدون القرارات في القضايا العسكرية يرون أن النود عن الوضع في الشرق الأوسط غير ممكن ، وأن الامبراطورية البريطانية تبذل تضحيات غير مفيدة لحماية هذا الوضع . ويرون أن موقعة الاطلنطي يتحتم أن تكون الموقعة الفاصلة الأخيرة في الحرب ، وأن تركز كل القوى عليها » . وقال : « ان الرئيس مع ذلك يرغب في مساندة الدفاع في الشرق الأوسط ، نظرا للمبدأ القائل ان مقاتلة العدو واجبة أينما كان » . وبعد ذلك نظم الجنرال سيتني مشكلات الامبراطورية الأربع على الوضع الآتي : الدفاع عن بريطانيا وعن السبل البحرية في الاطلنطي والدفاع عن سنغافورة والسبل البحرية الى استراليا والهند ، والدفاع عن السبل البحرية بوجه عام . والدفاع عن الشرق الأوسط . وقال الجنرال : « ان كل تلك المضلات مهمة على حد سواء » . وافر الجنرال لي ما رآه الجنرال سيتني وكان الاميرال

جورملى معتنيا بسبيل تموين الشرق الاوسط ، وخاصة اذا كانت تموينات امريكا ستمضى الى هناك فى مجال واسع . ولكن الا يمكن ان يدفع هذا الى الاضعاف من معركة الاطلنطى ؟

وحينئذ طلبت الى رؤساء اركان حرب بريطانيا ان يوضحوا وجهات نظرهم فأبدى أمير البحر الاول الدوافع التى تدفعه الى ان يعتقد ويثق الآن أكثر من العام السابق ان فى استطاعة بريطانيا تدمير أية قوات تجهز للغزو . وتكلم رئيس اركان السلاح الجوى عن سلاحنا الجوى فى حالة مقارنته بالسلاح الجوى الالمانى ، وفى حالة مقارنته بقوته فى سبتمبر الماضى ، وأكد استطاعة قواتنا تحطيم موانى الغزو الالمانية . وتكلم رئيس اركان حرب جيوش الامبراطورية فأكد تقدم قوة الجيش أكثر مما كانت عليه فى سبتمبر السابق تقدما رائعا . وتدخلت لابين ما اتخذناه من احتياطات خاصة لتحصين الدفاع عن مطاراتنا بعد ما تلقيناه من دروس فى كريت ودعوت ضيوف امريكا لزيارة أى مطار يريدونه . واستطردت أقول : « وقد يضطر العدو الى حرب الغازات ، ولكنه اذا اضطر اليها فستكون هلاكاً له ، لأننا أخذنا الالهة للانتقام فوراً ، وسيكون هدفنا جموعه التى على السواحل . وسنوجه فعلاً حرب الغازات أيضاً الى أراضيه » . ودعوت ديل حينئذ أن يتكلم عن الشرق الاوسط فقدم عرضاً هائلاً مؤيداً بالادلة والحجج ، للدوافع التى تدفعنا الى ان نبقى هناك كضرورة لا مفر منها .

وفى آخر النقاش ملأنى احساس بأن أصحابنا الأمريكين قد أقنعهم ما عرضناه من بيانات ، وأثر فيهم ما ظهر منا من تكاتف واجماع .

لكن تلك الثقة التى كنا نتكلم بها عن الدفاع فى الداخل لم تمتد لتعم الشرق الاقصى حين تعلن اليابان الحرب علينا . وقد أقضت تلك المخاوف أيضاً السير جون ديل . وكان انطباعى أنه أكثر معرفة بسنغافورة منه بالقاهرة . وكان هذا الحكم طبعاً مدعاة للأسف الشديد والكمد البالغ فالموقف يضاهى تماماً موقف ذلك الرجل الذى يخبر بين قتل ابنه أو ابنته . وكان رأى انا انه مهما يقع فى الملايو فانه لا يشابه فى أهميته ما يحتمل وقوعه اذا فقدنا مصر (١) أو قناة السويس أو الشرق الاوسط . ولن أتساهل مطلقاً فى فكرة ترك الدفاع عن مصر ولو ضحيت بالملايو كلها . وكان يشاركنى فى موقفى هذا رفاقى فى وزارة الدفاع .

وفى عصر يوم ما قدم الى هارى هوبكنز ، فقعدنا نتكلم فى شمس حديقة داوونج ستريت، وفجأة قال لى : ان الرئيس يتمنى أن يجتمع معى فى مكان بعيد منعزل . فقلت له : انى أوقن ان مجلس الوزراء سيوافق على اذن باجازتى وجهزنا كل شئ بسرعة . واختير خليج بلاسنتيا بجزيرة نيوفوندلند . وحدد التاسع من أغسطس ميقاتاً للاجتماع

(١) يتحدث تشرشل الاستعمازى وكأنما مصر ملك لبريطانيا فعلاً أعجب منطقة «التحرير» .

ووجهت الاوامر بالاستعداد والتأهب الى أحدث بوارجنا «الامير ويلز» وكنت في غاية الشوق للاجتماع بالرئيس روزفلت الذي كانت علاقتي معه وطيدة نامية منذ عامين تقريبا ، وخاصة أن مثل هذا الاجتماع سيشير الى تآلف أقوى بين بريطانيا وأمريكا مما يلقي الانزعاج في نفوس أعدائنا ، ويرغم اليابان على أن تطيل النظر ، ويشجع حلفاءنا . وكانت ثمة مسائل متعددة يجب دراستها ، أهمها تدخل أمريكا في الأطلنطي ، ومعاونة روسيا ، ومركز تمويننا ثم تضاعف التهديد الياباني . وصحبت معي السير اليكسندر كادوجان من وزارة الخارجية، واللورد شيرويل والعقيد هولينس وجيكوب من وزارة الدفاع وموظفي مكتبي الخاص ، الى جانب عدد من كبار ضباط الأقسام الفنية والإدارية وفرع التخطيط. وقال الرئيس انه سيحضر مع قادة القوات المسلحة، والمستر سمزويلز من وزارة الخارجية . واستدعى تفرق الفواصات الألمانية في شمال الأطلنطي التزام أبعد ما يستطاع من احتياطات التكم والسرية ، وذهب الرئيس يقضي إجازة في يخته الخاص في عرض البحر، وغادره الى الطراد أوجسطا ، وترك اليخت يمشي خلفه كعملية تغطية .

وفي خلال ذلك نال هاري هوبكنز ، بالرغم من مرضه ، موافقة الرئيس على السفر الى موسكو في رحلة جوية مضمينة ، خطرة ، جاب فيها فضاء النرويج والسويد وفنلندا ، ليعرف من ستالين رأسا ماهية مواقف الروس وطلباتهم ، وتقرر انضمامه الى البارجة «الامير ويلز» في سكايافلو .

وركبت من تشيكرز القطار الخاص الذي يحمل كل هذا العدد من الموظفين ومنهم عدد كبير من كتاب «الرموز» من لندن ، وفي سكايافلو انتقلنا الى البارجة عن طريق مدمرة صغيرة . وفي الرابع من أغسطس قبيل حلول الظلام بدأت البارجة رحلتها في الأطلنطي تحميتها المدمرات . ولقيت هاري هوبكنز منها من رحلاته الجوية المتتالية، ومن الاجتماعات التي أقامها في موسكو . وقد وصل قبل يومين الى سكايافلو في حالة سيئة من المرض والانهاك ، مما دفع الأميرال الى إجباره على أن يذهب الى فراشه على الفور . ومع ذلك بقي مرحا على طبيعته ، وقد استرد عافيته بسرعة في أثناء الرحلة ، وكلمني عن رحلته الأخيرة .

وعندما ثور رياح البحر يكثر اهتزاز الحجرات الواسعة الموجودة فوق حجرات الآلات ، المريحة عادة ، وبذلك تضحي غير صالحة للإقامة، ولهذا انتقلت الى غرفة الأمير الموجودة فوق الجسر ، واستعملتها للنوم وللمكتب . وقد أحببت قبطاننا «ليشر» حبا كثيرا لأنني رأيت فيه كل سمات البحار البريطاني المحبوب ، ومع بالغ الاسى غرق هو وأكثر زملائه وبارجته الهائلة تحت عباب المحيط . وفي اليوم اللاحق اشتدت الرياح حتى اضطررنا أن نختر بين الامهال في السير ، أو أن نترك مدمراتنا الحارسة . وأصدر الأميرال باوند أمير البحرية الأول القرار ، فذهبنا وحدنا في أقصى سرعة ممكنة . وأخبرنا أن هناك عددا من الفواصات تخترق المحيط ، فقمنا بحركات انعطاف وميل لتفاديها ، وفضلنا طبعنا الكف عن أي اتصال لاسلكي من جانبنا . وكان في وسعنا أن نستقبل الرسائل أدون أن نجيب عليها الا في أوقات مخصوصة . وبذلك حدث

جمود في حياتي اليومية المنظمة ، وأحسست بنوع من الراحة لم أحس به منذ قامت الحرب . وكان في وسعي لأول مرة منذ عدة أشهر أن أطلع كتابا للمتعة والترفيه . وكان أوليفر ليتلتون وزير دولتنا في الشرق الأوسط قد منحني رواية « الكبتن هورنبلاور » التي ألفها فوريستر ، فقرأتها وكانت ممتعة غاية المتعة . وقد أرسلت إليه رسالة حينما بدت لي فرصة قلت فيها « لقيت هورنبلاور رائعة » . وقد أوجدت هذه الرسالة القلق في قيادة الشرق الأوسط ، إذ تراءى لهم أن هورنبلاور الاسم الرمزي لعملية عسكرية خاصة لم يرد بعد خبرها اليهم .

وفي الساعة التاسعة من صباح يوم السبت التاسع من أغسطس، وصلنا الى المكان المحدود ، وبعد تبادل التحيات البحرية المعهودة ، ذهبنا الى متن الطراد أوجسطا ، وهناك حيت الرئيس روزفلت الذي استقبلني بكل مظاهر التقدير والحفاوة ووقف مستندا الى ذراع ابنه ايليوت ، في حين صدحت الموسيقى العسكرية بالسلامين البريطانى والأمريكى ، ثم استقبلني بحفاوة ومحبة خالصتين ، وأعطيته رسالة من الملك ، ثم عرفته بمن معى ، وفي سرعة بدأت المباحثات بينى وبين الرئيس وحضرها المستر سمزويلز والسير اليكسندر كاذوجان ، وأفراد القيادتين ، واستمرت المباحثات دون توقف طول الايام الباقية من زيارتنا في صورة مؤتمرات عامة أو اجتماعات خاصة لا يشهدها غيرنا نحن الاثنين .

وفي صباح الاحد العاشر من أغسطس قدم الرئيس على متن «الامير ويلز» وشاهد مع رجاله وضباطه، ومئات من ضباط البحرية الأمريكية على اختلاف رتبهم وجنود الاسطول ، حفلا قداسيا أقيم على متن البارجة، وقد شعر كل من رأى هذا القداس بما يشير اليه من تصوير لوحدة العقيدة بين شعبينا . ولا يمكن كل من حضره أن ينسى ما شاهده من روعة في ذلك الصباح المشرق على متن البارجة المزدحمة ، وقد رفراف العلمان البريطانى والأمريكى فوق المنصة جنبا الى جنب ، وقام القسان البريطانى والأمريكى يتناوبان القراءة والصلاة ، وأمامهما وقف كبار القادة من الدولتين من بحريين وعسكريين وجويين في مجموعة واحدة خلفنا أنا والرئيس ، ووراءهم حشود البحارة من الفريقين وقد اندمجوا في مجموعة واحدة يتلون الكتب نفسها ، ويقرءون الصلوات نفسها . وقد انتقيت نشيد « الى هؤلاء » المهددين بالاشراف على الهلاك في البحر ، ونشيد « الى الامام يا جند المسيحية » . واختتمنا بالصلاة المعهودة « يا رب ، يا مجيرنا ، فى الايام السالفة » . وظهر أن كل كلمة كانت تستثير القلوب . وعشنا ساعة رائعة كتب على أكثر من نصف من شهدها الموت بعد وقت وجيز .

وفي أحد اجتماعاتنا الاولى قال لى الرئيس روزفلت : انه يرى ان فى استطاعتنا أن نصدر بيانا مشتركا يضع بعض الأسس العريقة الخاصة التى يتحتم أن توجه سياستنا فى السبيل نفسه . ولرغبتي فى تتبع هذا الرأى المفيد للغاية ، قدمت اليه يوم الأحد موجزا ملروسا لمثل هذا البيان . وبعد دراسة طويلة مستأنية واتصالات برقية بوزارة الدفاع فى لندن ، أصدرنا البيان التالى :

« بيان مشترك من الرئيس ورئيس الوزراء »

١٢ من أغسطس عام ١٩٤١

اجتمع الرئيس الأمريكي ، والمستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ممثلا للحكومة البريطانية ورأيا من الأوفق اعلان بعض الاسس المشتركة في سياسة بلادهما الوطنية التي يعلقان عليها آمالهما في تحقيق مستقبل أفضل للعالم .

أولا : ان بلادهما لا تتطلع الى امتداد اقليمى أو غير اقليمى .

ثانيا : انها لا تريد ان ترى أية تغيرات اقليمية لا تتفق واردة الشعوب المعنية التي يتحتم التعبير عنها في حرية تامة .

ثالثا : تقدر الدولتان حق كل الشعوب في أن تختار أسلوب الحكم الذي تتمنى أن تحيا في كنفه ، وتتمنيان أن تريا حقوق السيادة والحكم الذاتى قد ردت الى هؤلاء الذين حرموها غصبا .

رابعا : ستحاول الدولتان ، تقديرا منهما لواجباتهما القائمة تمكين كل الدول كبرها وصغيرها ، المنتصر منها والمنهزم ، من الوصول الى تجارة العالم ومواده الاولى التي تحتاج اليها لرفاهيتها الاقتصادية

خامسا : تريد الدولتان أن تحققا أبعد ما يستطيع من تعاون بين كل الشعوب في المجال الاقتصادى لتأمين مستويات حسنة للعمال ، والنهوض الاقتصادى والكفالة الاجتماعية للجميع .

سادسا : ترجو الدولتان ، بعد تدمير العدوان النازى ، ان تريا سلاما مستقرا يكفل لكل الشعوب سعادة العيش داخل بلادها في اطمئنان، ويكفل بالتاكيد حياة الرجال في كل بلاد حياة متحررة من الرعب والفقر .

سابعا : يكفل هذا السلام لكل الناس حرية عبور البحار والمحيطات دون مانع .

ثامنا : يتحتم على كل شعوب العالم في اعتقاد الدولتين التخلي عن استخدام القوة لدوافع واقعية وروحية في وقت واحد .

ولما كان من غير المستطاع صيانة السلام في المستقبل اذا بقيت الشعوب التي تنذر أو التي يحتمل أن تنذر بالعدوان خارج حدودها تستعمل الأسلحة البرية والبحرية والجوية في هذا الغرض ، فانهما توقنان أن نزع السلاح من مثل هذه الشعوب أمر ضرورى الى أن يتم اقامة جهاز أوسع وأكثر دواما للأمن العام . وستعاونان وستشجعان أيضا كل الطرق العملية التي تخفف اثقال التسلح عن عوائل الشعوب المحبة للسلام .

وقد تكشفنا الأهمية الكبرى لهذا البيان الذى أصبح يسمى فيما بعد « ميثاق الاطلنطى » . والمدعش في هذا البيان أن دولة « ما زالت

محايدة من الجبهة الفنية « كامريكا قد اشتركت في اصداره مع دولة محاربة .

ولا مرية في ان اشتعال البيان على تدمير العدوان النازي عن آخره « وهذه فقرة جاءت في المسودة التي جهزتها » ، يعد تحديا ظاهرا يمكن اعتباره بمنزلة عمل حربي . وأخيرا برزت ظاهرة أخرى هي ما تجلى في الفقرة الأخيرة من البيان من واقعية وشجاعة فقد دلت على أن أمريكا ستشارك معنا بعد الحرب في القيام بأعمال البوليس الدولي إلى أن ينتهي العالم من وضع نظام أحسن . وتم الوصول في الاجتماعات الدورية بين قوادنا العسكريين والبحريين إلى اتفاقات كثيرة بينهم . وكنا نرى الخطر في الشرق الأقصى ماثلا باستمرار . وكانت حكومتنا بريطانية وأمريكا منذ عدة أشهر على وفاق تام نحو البيان . وفي آخر شهر يولييه تم احتلال اليابانيين عسكريا للهند الصينية، وبهذا الاعتداء السافر أصبحت جيوشهم العسكرية في موقف يمكنها من توجيه الضربة إلىنا في الملايو ، وإلى الأمريكيين في الفلبين ، وإلى الهولنديين في جزر الهند الشرقية .

وفي الرابع والعشرين من شهر يولييه طلب الرئيس روزفلت من حكومة اليابان « كخطوة أولى للوصول إلى تسوية عامة » ، إعلان حياد الهند الصينية ، وجلاء الجيوش اليابانية عنها . ولكي يكتسب هذا الطلب طابع التنفيذ أصدر الرئيس أمرا بتجميد كل الأموال اليابانية في أمريكا . ودفع هذا العمل إلى وقف كل الاتصالات التجارية مع اليابان ، وقامت حكومة بريطانيا بإجراء مشابه ، وقام الهولنديون بعد يومين بالعمل نفسه . وكان اشتراك هولندا في هذه الأعمال ، معناه قطع كل تموينات البترول عن اليابان بضربة واحدة .

ومرت رحلة العودة إلى أيسلندة بدون حادث ، بالرغم من أننا أرغمنا في إحدى المراحل على أن نبذل سبيلنا بسبب ما روى لنا عن وجود غواصات في أماكن قريبة . واحتوت القوات التي قامت بحراستنا على مدمرتين كان باحدهما ضابط بحري تحت التمرين هو فرانكلين ديلانور روزفلت الصغير ، نجل الرئيس .

وفي الخامس عشر واجهنا قافلة مشتركة تتجه إلى الوطن ، وتشمل ثلاثا وسبعين باخرة جميعها على أحسن ما يرام بعد رحلة جميلة عبر الأطلنطي . وكان المشهد مشجعا للغاية ، وقد فرحت البواخر التجارية أعظم الفرح بمشاهدة البارجة « الأمير ويلز » وفي صباح سبت السادس عشر من أغسطس بلغنا الجزيرة ووقفنا في خليج هافال ، ثم انتقلنا إلى ريجافيك في مدمرة وقد استقبلتني حشود من الجماهير في الميناء استقبالا حارا صاخبا ، وكانت الجماهير تكرر تحياتها الودية حينما ترانا طيلة فترة إقامتنا . وحينما تركنا الميناء بعد الظهر بلغت تحياتها ذروتها في صورة بالغة الروعة ارتفع فيها التصفيق والهتاف بصورة لم ترها ريجافيك كما روى لي بعد . وبعد قيامنا بزيارة قصيرة لآلثينفيسوس لتحية الوصي وأعضاء وزارة أيسلندة ذهبت لأرى عرضا مشتركا قامت به القوات البريطانية والأمريكية وكان

عرضا طويلا من أماننا في صفوف ثلاثية ، وعزفت الموسيقى خلاله
نشيد البحرية الأمريكية فآثر هذا النشيد على مخيلتي حتى أنني لم
أتمكن من نزعه من ذاكرتي الى وقت بعيد . واستطعت أن ادخر
الوقت اللازم لزيارة المطارات الحديثة التي كنا نشيدها ، ولزيارة
العيون الساخنة الهائلة والبيوت الزجاجية المبنية فوقها ، وتراءى لي
فورا أن في الوسع استعمال هذه العيون لتدفئة ريكجافيك ، وحاولت
أن أزعج بالمشروع الى الامام في وقت الحرب ، ويسعدني أنه قد تحقق
الآن . وقد أدت قوات العرض التحية لي ، وابن الرئيس . واقف
بجوارى . وقدم العرض برهانا جديدا واضحا على التضامن الانجليزى
الامريكى . وقد زرت القطعة الامريكية راميليس حينما رجعت الى خليج
هفالز ، وخطبت في ممثلين لبحارة البواخر البريطانية والامريكية
الراسية هناك . وبينها المدمرتان « هيكلا » و « تشرشل » . وعندما
خيم الظلام بعد هذا الاختبار الطويل المتشعب أبحرنا الى سكاباقلو
وبلغناها صباح الثامن عشر دون أى حادث آخر ، وفي اليوم التالى وصلت
الى لندن .

إيران والصحراء

دفعت ضرورة ارسال الامدادات والذخيرة المتعددة الانواع الى الحكومة الروسية والمتاعب الكثيرة في سبيل انبحر المتجمد الشمالى ، والاحتمالات الاستراتيجية القادمة الى ارادة قوية بفتح أبعد ما يستطاع من مواصلات مع روسيا عن طريق إيران .

وبالطبع كنت أحس بالقلق بسبب الاقبال على فتح جبهة جديدة في الشرق الاوسط ، ولكن الدواعى اليها كانت قوية وقاهرة . وكانت آبار البترول الايرانية دافعا حربيا رئيسيا ، وكان علينا أن نكون مستعدين للاستيلاء عليها حين تقهر روسيا . وثمة أيضا خطر قائم على الهند . وقد افسدت خطة هتلر في الشرق نتيجة اخماد الثورة في العراق ، والاحتلال الانجليزى - الفرنسى لسورية ، وقد تما في آخر لحظة . وقد يرجع الى المحاولة من جديد حين يهزم الروس . وكان في طهران وفد ألماني يشمل عددا كبيرا من الموظفين ، وكان صيت الالماني في البلاد قد سما الى السماء . وفي مساء سفرى الى خليج بلاسينتيا لمقابلة الرئيس روزفلت أوصيت لجنة خاصة بتنظيم الخطط الضرورية لعملية تستهدف إيران ، وقد حملوا الى بالبرق وأنا في عرض البحر آثار عملهم بعد أن وافقت عليها وزارة الدفاع . وكان من الجلى أن الايرانيين لن يتردوا عملاء الالماني ورعاياهم من بلادهم . وأنه يجب أن نستعمل القوة لتحقيق ذلك . وفي الثالث عشر من أغسطس قام المسيو مايسكى بزيارة المستر ايدن في وزارة الخارجية واتفقا على نصوص المذكرات التى سترسلها الحكومتان الى طهران ، وفي السابع عشر من أغسطس أرسلت حكومتا بريطانيا وروسيا مذكرة مشتركة الى ايران قوبلت بمقابلة غير ودية ، وتقرر اليوم الخامس والعشرون من أغسطس موعدا لدخول قوات بريطانيا وروسيا إيران .

وانجزت العملية في أربعة أيام . وفي فجر الخامس والعشرين من أغسطس نزل الى البر لواء مشاة بريطاني قام من البصرة واستولى على مصفاة الزيت في عبادان وقد فوجئت معظم القوات الايرانية بالهجوم ، ولكنها هربت بالناقلات ، وجرى بعض القتال فى الشوارع ، واكتشفت بعض قطع بحرية ايرانية صغيرة . واستولت قواتنا من جهة الشاطئ فى الوقت نفسه على ميناء « خرمشهر » فى حين اتجهت قوة الى الشمال ناحية الاهواز . وحينما كانت قواتنا تدنو من الاهواز وردت أخبار تحمل أوامر الشاه يوقف اطلاق النار ، ووجه القائد الايراني أوامره الى جنوده بالرجوع الى ثكناتهم ، واستولينا على حقول النفط فى الشمال، وأمتنا من الخطر ، ولم تتجاوز أضرارنا اثنين وعشرين قتيلا، واثنين واربعين جريحا

وتم الاتفاق مع الروس في سهولة وليونة على كل الخطوات والاعمال السريعة وقد فرضت شروط رئيسية على الحكومة الايرانية هي : وقف العمليات الحربية ، وطرد الالمان من البلاد ، والحياد في الحرب ، واستعمال الحلفاء للمواصلات الايرانية لتقل الامدادات الحربية الى روسيا . وتم الاستيلاء على فارس في أمن وسكون . وتقابل جنود بريطانيا وروسيا في محبة وصداقة .

وفي السابع عشر من سبتمبر تم الاستيلاء على طهران بصورة مشتركة ، ونزل الشاه عن عرشه لابنه الاكبر الموهوب الذي يبلغ من العمر اثنين وعشرين سنة . وفي العشرين من سبتمبر أرجع الشاه بمشورة الحلفاء الملكية الدستورية ، وبعد أيام قليلة ذهب والده الى منفاه المريح حيث مات جوهانسبورج في يولييه سنة ١٩٤٤ وغادرت أكثر جيوشنا البلاد ، ولم ندع الا فصائل صغيرة للدفاع عن طرق المواصلات وفي الثامن والعشرين من أكتوبر تم خروج القوات البريطانية والروسية من طهران . وقد عملت قواتنا منذ ذلك الحين تحت قيادة الجنرال كينان في تجهيز الخطوط الدفاعية لمواجهة أي زحف من ناحية القوات الالمانية التي تعبر تركيا أو القوقاز وفي أخذ العدة الادارية لاستقبال معونات هائلة ستصل عندما يصير هذا الزحف حقيقة واقعة، وغدا انشاء طريق رئيسي لامداد روسيا عبر خليج البصرة غرضنا الاول ، وكان في الاستطاعة بمعاونة الحكومة الحليفة في طهران ، توسيع الموانئ والنهوض بالمواصلات البحرية ، وتشبيد الطرق ، ومد الخطوط الحديدية .

وفي سبتمبر عام ١٩٤١ بدأ الجيش البريطاني في هذا المشروع ، وقطع فيه شوطا الى أن أخذته الحكومة الامريكية بعد قليل لتوسعه وتشرف عليه . وبوساطة هذا المشروع استطعنا أن نبعث الى روسيا في مدة أربع سنوات ونصف السنة أكثر من خمسة ملايين طن من الامدادات . وهكذا انقضت تجربة قصيرة ، منتجة لاستخدام قوة كبيرة باطشة ضد دولة عتيقة واهنة .

وكانت بريطانيا وروسيا تحاربان دفاعا عن حياتهما ، وقد أبهجنا كثيرا أن انتصارنا تم به حفظ استقلال ايران .

ولنرجع الآن الى مسرح البحر المتوسط الهائج : في الخامس من يولييه تولى الجنرال أوكتلك القيادة الرسمية في الشرق الاوسط ، وبدأت صلاتي بقائدنا الجديد ، وقد احتواني الامل . ولكن بعد أن تبادلنا عذبا من البرقيات تبين لي أن هناك اختلافات خطيرة في الآراء والقيم بيننا . فقد رأى الدفاع عن جزيرة قبرص بفرقة على الاقل في أسرع وقت مستطاع، كما أكد وجوب استرداد برقة ، ولكنه لم يكن موقنا أن في امكان طبرق أن تصمد بعد شهر سبتمبر . وذكر أن تركيب دبابات امريكا الحديثة وتسليحها ادخلا تغييرات في العمليات التكتيكية ولا بد أن تستغرق الدراسات الخاصة بهذه التغييرات وقتا حتى يتم . ووافق بأنه سيكون عنده في آخر شهر يولييه ما يقرب من خمسمائة دبابة من الدبابات

السريعة والثقيلة والأمريكية . ولكنه يرى على أية صورة ان أية عملية تستلعي خمسين في المائة من مجموع الدبابات كقوة احتياطية نصفها يكون تحت الإصلاح في المصانع ، ونصفها الآخر يحل محل ما يصاب من دبابات في المعركة . وكان مثل هذا الرأي مانعا يحول دون أية عملية فمثل هذا الترف لا يتم بالجنرالات الا في جنان الفردوس - والجنرالات الذين يريدون مثل هذا الترف ويفرضونه لا يبلغون الجنان عادة . وألحف « أوكتلك » في لزوم عنصر الزمن للتمرين الفردي والجماعي ، ووجود روح العمل المشترك كفريق وكشرط أساسي للكفاية والايجابية ، وأيقن أن هجوم الالمان من الشمال أى عبر تركيا وسورية وفلسطين سيكون جبهة حاسمة لا يرى وقوعها في الصحراء على أى حال .

وبسبب كل هذه الآراء لم أقل الكثير مما كنت آمل وضللتنى أيضا قرارات الجنرال الاولى ، وفزت في النهاية بعد اصدار والحاح بنقل الفرقة البريطانية الخمسين الى مصر . وكنت حساسا بالنسبة للدعاية المضادة التي تقول ان سياسة بريطانيا تقوم على خوض الحرب بجنود غير جنودها، وانها تتحاشى اراقة دماء الانجليز في حربها . وكانت اضرار البريطانيين في الشرق الاوسط كله ، بما فيه اليونان وكريت ، اكثر من اضرار القوات الاخرى العاملة معنا ، ولكن التسميات المعروفة أشارت الى انطباعات «مغلوبة» عن هذه الحقائق، فمثلا الفرق الهندية التي كان ثلث مشاتها وكل مدفعيتها من البريطانيين ، لم تكن تسمى بالفرقة «البريطانية - الهندية» وكانت الفرق المدرعة التي تحملت بأس القتال وضغطه كلها بريطانية ، ولكنها لا تسمى بالفرقة البريطانية . ودفع عدم ذكر القوات البريطانية في البلاغات الحربية «ألا قليلا» الى استباغ شيء من الحق على دعاية العدو المشهورة بنا ، وأهاجت انتقادات مؤلمة الا في أمريكا وحدها ، بل في استراليا أيضا وكنت متعظشا الى وصول الفرقة البريطانية الخمسين كسلاح حاسم للتغلب على هذه التيارات المضادة . وكان قرار الجنرال أوكتلك باختيار هذه الفرقة بالذات وارسالها الى قبرص ، اختيارا يفتقر الى المنطق ، لانه يمكن العدو من الحصول على مادة يستعملها من غير حق في تعيرنا والاستخفاف بنا . وقد أذهل اتخاذ هذا القرار العجيب باستخدام مثل هذه القوة الفائقة جميع رؤساء أركان الحرب في الوطن . ودفع تصميم آخر أكثر خطورة من الجنرال أوكتلك ، الى ارجاء كل عمل حربي ضد رومل في الصحراء الغربية فترة ثلاثة أشهر أولا ، وأربعة أشهر ونصف شهر فيما بعد . مما سوغ ما تناوله « ويفل » من عمل في الخامس عشر من يونيو في عملية « فأس المعركة » اذ أنه على الرغم مما أصابنا من ضرر ، وبالرغم من تراجعنا الى مواقعنا الاصلية ، لم يستطع الالمان مطلقا أن يتقدموا طول هذا الوقت الطويل ، ولم تكن مواصلاتهم التي نهدها طرقا كافية لتمكنهم من المجيء بالتعزيزات الواجبة من المدرعات حتى من ذخيرة المدفعية ، ليتمكن رومل من أن يقوم بأكثر من الصمود بفضل ارادته وصيته . وكانت تغذية جنوده تكلفه مجهودا صعبا يعوقه عن زيادة هذه القوات الا بشكل تدريجي .

وفي مثل هذه الظروف كان من اللازم أن يظل متصديا للاشتباكات مع القوات البريطانية التي كانت تفوقه في يسر مواصلاتها البرية والحديدية والبحرية ، والتي كانت تستقبل دائما المعونات والتعزيزات على أوسع نطاق في الرجال وأدوات الحرب .

وظهر أيضا أن المبالغة في وصف الانزعاج على جناحنا اثنى على نتيجة طبيعية لسوء التقدير . وليس من شك في أن الدفاع عن هذا الجناح كان يستوجب غاية الحرص ، ويسوغ اتخاذ الكثير من استعدادات الدفاع وإنشاء خطوط دفاعية محصنة في فلسطين وسورية . ولكن الموقف في هذه الجبهة أصبح الآن أحسن بكثير مما كان عليه في يونيو . فقد سيطرنا على سورية وأطفأنا ثورة العراق ، وجيوشنا صامدة في كل المواقع المهمة في الصحراء . وإلى جانب هذا أدى الصراع بين ألمانيا وروسيا إلى عودة الثقة من جديد إلى تركيا فما دامت الحرب قائمة بينهما وما دام مآلها معلقا في كفة القدر فلا يتصور أن تطلب ألمانيا من تركيا اجتياز قواتها أراضيها .

ودفع العمل « البريطاني الروسي المشترك » بإيران إلى معسكر الحلفاء وهكذا كان الموقف العام يعزز القيام بعمل حاسم في الصحراء الغربية وبدلا من ذلك شجرت بحرج موقف الجنرال أوكتل من ناحية هذا الموضوع ، وهو حرج لا يخدم الأغراض التي نعمل لها كلنا ، وليس في مصلحتنا . وقد أوردت الأسفار التي صدرت بعد انقضاء الحرب ، كيف عارضت طوائف غير رئيسية - ولكنها ذات نفوذ في هيئة أركان العمليات الحربية في القاهرة - قرار إرسال الجيش البريطاني إلى اليونان . ولم يكن هؤلاء يعلمون أن الجنرال ويفل هو الذي ارتضى اتخاذ هذه السياسة بخالص إرادته واختياره ، وأن وزارة الدفاع ، وهيئة رؤساء أركان الحرب ، تركتا له القرار مفتوحا مع إرادة اتخاذه قرارا صلبا .

وقد روى أن السياسيين قد أجبروا ويفل ، وأن موافقته على إرادتهم أظهرت سلسلة متتابعة من المحن . والآن كمكافأة له على سجيته الطيبة أقصى عن منصبه بعد كل تلك الانتصارات ، وحين غدت الهزيمة قريبة الوقوع . ولا ريب عندي في أن دوائر ضباط الأركان هناك قد عمها إحساس بأن على القائد الجديد ألا يسمح للتأخيرين بدفعه إلى مضامير خطيرة . بل يتحتم عليه أن يعمل في تودة . وألا يقوم بأية خطوة إلا إذا وثق من نتائجها . ولا مزية لدى في أن مثل هذا الرأي قد حول إلى الجنرال أوكتل نفسه ، وبدأ لي أن المكاتبات لن تدفع إلى أي تقدم . فدعوت الجنرال في شهر يوليو للقنوم إلى لندن . وكانت زيارته مجددة من عدة نواح . فقد أنشأ صلات ودية مع أعضاء وزارة الحرب . ومع رؤساء الأركان . ومع وزارة الحربية وقضينا معا إجازة طويلة إلى آخر الأسبوع في تشيكرز . وحينما تمت معرفتنا بهذا الضابط المتألق . الذي يتعلق بكفايته مآلنا وأقدارنا ، وحينما غدا هو الآخر أكثر معرفة بالدوائر العليا في جهاز بريطانيا الحربي ، ورأى كيف يعمل هذا الجهاز في مرونة ويسر عظمت الثقة المتبادلة . ولم يكن في طاقتنا من الجهة

الآخري اقناعه بالتحول عن اصراره على مطله في التأهب لهجوم دقيق التفاصيل يبدؤه في الاول من نوفمبر . وتقرر تسمية هذا الهجوم « بالصليبي » على أن يكون أكبر عملية قمنا بها حتى الآن . ولا شك في أنه انتصر على كل مستشاري العسكريين بالأدلة المفصلة التي جاء بها ، ولم أقنع برأيه . ولكن كفاياته التي لا ريب فيها وقوة بسطه للموضوع وشخصيته السامية الجذابة القوية كلها دوافع أوجت الى بالاحساس بأنه قد يكون على صواب ، ويأثني لو كان مخطئاً فهو أفضل قائد يتقلد هذا العمل ، ولهذا خضعت لموعد نوفمبر الذي قوره للبسده في الهجوم ، واتجهت بكل ما أملك من مجهود لانجساحه . وقد حزنا جميعاً أشد الحزن لاننا لم نتمكن من اقناعه بأن يوصى بالقيادة للجنرال ميتلاند ويلسون عندقيام المعركة ، فقد فضل عليه الجنرال آلان كانتجهام ، الذي ذاع صيته عند انتهاء الانتصارات البريطانية في الحبشة . وكان يلزمنا على أية حال أن نستفيد من الموقف كل الاستفادة ، والا نقنع بأنصاف الحلول أو الاستعدادات . وهكذا اشتركنا في المسئولية باحتضان كل القرارات التي اتخذها . ومع ذلك ينبغي أن أثبت يقيني هنا بأن الشهور الأربعة ونصف الشهر التي استغرقها الجنرال أوكتل في ارجاء الاشتباك مع العدو في الصحراء الغربية ، كانت غلطة وكارثة في الوقت نفسه .

والآن ونحن نعلم تماماً ما كانت تفكر فيه القيادة العليا الألمانية فيما يختص بوضع رومل . فقد كانت هذه القيادة مغرمة بإقدامه وبانتصاراته المدهشة التي حققها ولكنها في الوقت نفسه كانت تحس بأنه في موقف بالغ الخطورة . وقد كفته بشدة عن القيام بأية مغامرة جديدة الى أن يتم امداده بقوات كبيرة وحديثة . ومن الممكن بالنسبة لشهرته الطنانة أن يرضينا ، وان يصمد في الموقف الذي يجد نفسه فيه ، الى أن تتدفق عليه الامدادات التي سترسل ، وخط مواصلاته يمتد ألف ميل الى طرابلس . وتصلح بنى غازي كقاعدة قريبة لبعض تمويناته وامداداته ، لكن أيا من هذين الميناءين يتصدى النقل البحري اليه بضربة فادحة وتكاليف باهظة وما فتئت القوات البريطانية التي تفوقه الآن في العدد آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم ، أما تفوق الألمان في الدبابات فمقصور على النوع والتنسيق ، والألمان في الجو أوهن من غيرهم . وهم يحتاجون كل الاحتياج الى ذخيرة المدافع ويخافون أن يجدوا أنفسهم مضطرين الى اطلاق عدد مما عندهم من قذائف قليلة وما برحت طبرق تظهر كتهديد قاتل في مؤخرة رومل ، وقد ينطلق منها في أية برهة هجوم يقطع عليه سبل مواصلاته . ولكن كان في امكانهم أن يشكروا لنا كل يوم يمضي دون أي عمل ما دمنا نقف مشدودى اليدين للخلف .

واستثمر الفريقان أشهر الصيف لتقوية جيشيهما . وكان اعداد مالطة بالاسلحة والمؤن أمراً مهماً بالنسبة إلينا . بعد أن منعنا من اتخاذ كريت قاعدة للوقود ، يمكننا أن تكفل لاسطول الاميرال كانتجهام مركزاً قريباً لتمكين قوتنا البحرية المدافعة من العمل . وقويت الاحتمالات بقيام

إيطاليا وصقلية بهجوم بحرى على مالطة ، وإن كنا اليوم نعلم أن هتلر وموسوليني تم يرضيا بمثل هذه الخطة إلا فى سنة ١٩٤٢ • وكانت مطارات العدو فى كريت وبرقة تهند سبيل قوافلنا البحرية من الاسكندرية الى مالطة بصورة خطيرة ، حتى أننا لجأنا الى الاعتماد على الغرب فى نقل المؤن الى الجزيرة وقد قدم الاميرال سومرفيل بفرقة (هـ) العساملة فى جبل طارق مساعداً هائلة فى هذا الطريق • وقد غدا السبيل السذى كانت الاميرالية تعده أكثر السبل خطورة الطريق الوحيد المفتوح أمامنا الآن • ولحسن حظنا اجبرت مطالب الحملة فى روسيا هتلر على سحب قواته الجوية من صقلية ، مما هيا لمالطة فرصة للاستجمام ، ورد الينا السيادة على مضيق مالطة التى كنا قد فقدناها ولم يدفع هذا التحول الى معاونة قوافلنا على الوصول من الغرب بل مكنتنا من أن نسدد ضربات عنيفة الى سفن التموين والنقل التى تتولى تموين رومل •

واستطاعت قافلتان مهمتان أن تشقا سبيلهما عنوة بنجاح ، وكان ذهاب كل منهما عملية بحرية شاقة • وفى شهر أكتوبر استطعنا أن نغرق ستين فى المائة من امدادات رومل وهى فى طريقها • ولكن اشفاقى ما برح قائما • وحضضت الاميرالية على أن تضاعف جهودها • وكنت أريد بصورة خاصة ايجاد قوة بحرية تعمل باستمرار فى قاعدة مالطة وقد اترضيت هذه السياسة وإن احتاج تنفيذها الى بعض الوقت • وفى شهر أكتوبر أنشأنا قوة هائلة فى مالطة سمينها القوة « ك » وشملت الطرادين اوردرا وبنيلوبى، والمدمرتين لانس ولايفلى. وقد قامت كل هذه الاجراءات بدورها فى المعركة الجديدة التى تقرر بدؤها •

ويحتاج وصف المعارك الحديثة الى ذلك الشعور الدراماتيكي الذى كان يصاحب معارك التاريخ ، لأنها تنبسط الآن على مساحات واسعة ، ويستدعى البت فى مصيرها عدة أسابيع ، فى حين كانت معارك التاريخ المشهورة التى قررت مآل الشعوب والامبراطوريات تجرى فى عدة أميال مربعة من الارض ، ويتقرر مآلها فى خلال ساعتين • ولا مزية فى أن معارك المدرعات السريعة والآلية فى الصحراء تصور هذه المفارقة فى صورة جليلة • وقامت الدبابات مقام فرسان الماضى ، بأسلحة أقوى وأبعد غاية وغدت مناوراتها قريبة الشبه من عدة وجوه بالحرب البحرية التى تقوم فيها بحار الرمال مقام المياه المالحة • والقوة المدوعة مقام سرب الطرادات وهى التى تحدد مصير المعركة أكثر مما يحدده الموقف الذى تواجه فيه العدو ، أو الناحية التى تظهر فيها • وتستطيع فرق الدبابات وألويتها حتى وحداتها الصغيرة أن تنشئ قوى فى كل ناحية بسرعة فائقة • حتى أن خطر الحصار أو التطويق غدا أمراً لا وزن له • ومن جهة أخرى يستند كل شىء من الحيلة الى أخرى، الى الوقود والذخيرة، والامداد بهما مشكلة بالنسبة للقوات المدرعة أكثر صعوبة منها بالنسبة الى البواخر التى لديها اكتفاء ذاتى ، أو الاسراب التى فى عرض البحار • وهكذا تتحدث الاسس التى يقوم عليها فن الحرب عن نفسها بأسلوب جديد ، وتمنح كل معركة دروساً جديدة مستفادة من خبراتها •

ويلزمنا أن ننقص من قوة المجهود الحربي الذي تشتمل عليه هذه المعارك الصحراوية . وعلى الرغم من أن القوات المقاتلة في كل معركة لا يربو عددها على تسعين ألفاً جندي أو مائة ألف بالنسبة لكسل من الفريقين ، فإنها تفتقر الى ثلاثة اضعافها من الرجال الذين يتولون امدادها بالقوة والذخيرة لمعركة تقرير المصير وهكذا تبرز معركة سيدي رزق القاسية التي كانت أول هجوم شنه الجنرال أوكتلك ، حين تدرس بشكل واف ، عددا من أهم ملامح الحرب الجبلية . فلقد كان التدخل الشخصي للقائدين العامين للفريقين متحكما وحاسما ، وكان مصير المعركة يتأرجح كما كان في الايام الماضية .

من هرب . و كذلك أولا العودة الى احتلال برقة وتدمير مدرعات العدو خلال هذه العملية ، وثانيا احتلال طرابلس اذا سارت الامور على ما يرام . ولتنفيذ هذين الهدفين أوصى للجنرال كانتجهام بقيادة الجيش الثامن المكون حديثا والذي يشمل الفيلقين الثالث عشر والثلاثين ، ويضم مع حامية طبرق ما يقرب من ست فرق ، وثلاثة ألوية احتياطية وسبعمئة وأربع وعشرين دبابة . وتضمن السلاح الجوي في الصحراء الغربية ألفا واثني وسبعين طائرة حديثة تصلح للحرب ، الى جانب عشرة أسراب تعمل بقواعدها في مالطة . وعلى مدى سبعين ميلا من مؤخرة رومل توجد حامية طبرق المكونة من خمس مجموعات ألوية ولواء مدرع . وكانت القلعة أهم ما يشغله وقد منعت بمركزها الاستراتيجي أي تقدم من جهته في الاراضي المصرية . وكان غرض القيادة العليا الالمانية المقرر هو تصفية قاعدة طبرق ، وقد اتخذت كل التأهبات المستطاعة للبدء في الهجوم عليها في الثالث والعشرين من نوفمبر وكانت قوات رومل تتكون من الفيلق الالمانى القسوى المكون من الفرقتين المدرعتين الخامسة عشرة ، والحادية والعشرين ، وفرقة المشاة الخفيفة التسعين ، وسبع فرق ايطالية ضمنها فرقة مدرعة واحدة ولدى العدو خمسمائة وثمان وخمسون دبابة منها المتوسط والثقيل ، وثلاثاها من الدبابات الالمانية التى تحمل مدافع أضخم من مدافع دباباتنا ذات الرطلين .

وكان العدو يسبقنا في الاسلحة المضادة للدبابات . وكانت القوة الجوية للمحور وتتكون عند الهجوم من مائة وعشرين طائرة المانية ومائتى طائرة ايطالية .

وفي الثامن عشر من نوفمبر وثب الجيش الثامن في جو ممطر للغاية ، وفي الايام الثلاثة الاولى مشيت الامور على ما يرام ، واستطاعت الفرقة البريطانية المدرعة السابقة التى تكون جزءا من الفيلق الثلاثين ، أن تستولى على « سيدي رزق » ولكن الفيلق الالمانى الذى ركز مدرعاته هاجمها بسرعة ، وقامت معركة قاسية وحشية طيلة الحادى والعشرين والثمانى والعشرين داخل المطار وحوله . وامتدت كل القوات المدرعة للفريقين الى هذه المنطقة ، وكانت تلتحم في معارك مضطربة تحت ضغط نيران المدفعية المتسابقة . واستطاع الالمان بتفوقهم فى الدبابات ، وزجهم بأكثر عدد منها فى المعركة ، وتفوقهم فى العدد ، أن ينتصروا . وقد تفوق الالمان بالرغم من قيادة الزعيم

جوك كامبل الباسلة والفائقة ، وأصبنا بأضرار أكثر من أضرارهم . وفي ليلة الثاني والعشرين استرد الألمان « سيدى رزق » وفقدت قواتنا ثلثي مدرعاتها ، وصدر إليها أمر بالتقهقر عشرين ميلا لاعادة ترتيب صفوفها ، وكانت نكسة شديدة للغاية .

وفي خلال ذلك ، وكانت مدرعات العدو ملتحمة في القتال ، أصدر الجنرال كانتجهام في الحادى والعشرين من نوفمبر ، أوامره الى الفيلق الحادى عشر بالزحف ، فاستولى على مقر قيادة الفيلق الافريقى الالماني وفي الثالث والعشرين من الشهر أوشك أن يسترد « سيدى رزق » التى طرد منها قبل قليل رفاقهم من رجال الفرقة السابعة المدرعة . وفي الرابع والعشرين ركن « فريبر » ثقل قواته النيوزيلندية على مدى خمسة أميال الى الشرق من المطار . وقام دفاع طبرق بهجوم لتحطيم الحصار المفروض عليهم وكانوا يقاتلون يوحشية المشاة الألمان ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا فجوة في صفوفهم . وأمام « سيدى رزق » توقف النيوزيلنديون بعد تقدم ظافر موفق .

وقد تم عزل فرق دفاع العدو على الحدود ولكن مدرعاتها كانت قد فازت في المعركة ضد الفيلق الثلاثين ، ونزلت بالفرقتين ضربات كاسرة وأضرار فادحة ، ولكن مآل المعركة ما فتىء معلقا في كفة القدر .

وهنا حدثت رواية مسرحية تفكرنا بطواف « جيب » سيتوارت حول ماكميلان سنة ١٨٦٢ في شبه جزيرة « يورك تاون » خلال الحرب الاهلية الامريكية . ولكن قوة مدرعة هى التى نفذت هذه الرواية في هذه المرة . وهى وحدها جيش قائم بنفسه ، كان تحطيمه سيعرض جيش المحور في افريقية كلها لأفدح الاخطار . وقد قرر رومل أن يتولى زمام المسارعة التكتيكية ، وأن يسلك طريقه شرقا الى الحدود بمدرعاته راجيا أن يحدث الكثير من الفوضى والذعر في صفوف قيادتنا ، ليجبرها على المسدول عن الهجوم والتقهقر . ولعل رومل وهو يفكر في خطته الجديدة قد رجح بمخيلته الى ما تهيأ له من حظ طيب في تقدمه المدرع في معركة الصحراء السالفة في الخامس عشر من يولييه . وهو التقدم الذى دفع الى تقهقرنا في تلك اللحظة الصعبة وسيتضح في سياق القصة التى سأسوقها مدى ما استطاع أن يحققه من نصر .

جمع رومل معظم قوات فيلقه الافريقى ، وكان لا يزال أقوى قوة عاملة في الميدان وأخطأ بأعجوبة موقع فيلقنا الثلاثين ، ومخزنين ضخمين للذخيرة ، لم يكن في طاقتنا أن نستمر في القتال بدونهما ، ثم بلغ الحدود المصرية ، وهنا وزع رومل قوته الى عدة فرق اتجه بعضها شمالا والبعض الآخر جنوبا ، وبعدها توغل عشرين ميلا داخل الاراضى المصرية ، وأحدث الاختلال والفوضى في مناطق مؤخرتنا ، وأسر من الرجال عددا كبيرا ، لكن فرقة لم تتمكن من أن تؤثر على الفرقة الهندية الرابعة التى ظلت تطاردها بوحدة تم ترتيبها بسرعة ، والى جانب هذا استمر سلاحنا الجوى الذى كان قد أحرز سبق والسيادة على أجواء القوات المتحاربة ، يتتبع قواته ويقصفها

من الجو . وقاست قوات رومل التي لا يؤيدها سلاح جوى آلاما جساما
مثلما قاست جيوشنا من قبل حين كانت ألمانيا تسيطر على أجواء المعارك .
وفي السادس والعشرين اتجهت كل مدرعات العدو الى الشمال تفتش عما
أنزل من الطائرات في البردية على كثب منها . وفي اليوم التالي اتجهت الى
الغرب بسرعة راجعة الى « سيدى رزق » حيث طلب منها أن تعود الى هناك
بسرعة . وهكذا طاشت ضربة رومل الجريئة ، ولكن الفضل فى طيشها
يرجع الى فرد واحد ، هو القائد المسمى له وأقصد به أوكنلك .

فقد دفعت الضربات الشديدة التي نزلت بنا ، وحالات الفوضى التي
حدثت خلف جبهتنا بسبب غارات رومل ، الجنرال كانتجهام الى أن يقترح
على القائد العام وقف هجومنا ، ويصور له أن مواصلة الهجوم ستؤدى الى
افناء ما عندنا من دبابات ويعرض أمن مصر كلها للخطر . وكان تصويره
يقصد الاقرار بالهزيمة وفشل العملية كلها وفي هذا الظرف الحاسم تدخل
الجنرال أوكنلك نفسه . فقد أجاب طلب كانتجهام وطار مع ماريشال الجو
تيدرا الى مقر قيادة الصحراء فى الثالث والعشرين من نوفمبر ، ومع علمه
بذل الاخطار ، أصدر أمره الى الجنرال كانتجهام بالاستمرار فى مهاجمة
العدو . وهكذا نجى أوكنلك المعركة بعمله الشخصى ، وأقام الحجة على ما
يتمتع به من فضائل كقائد ظاهر فى الميدان .

وحينما رجع الى القاهرة فى الخامس والعشرين قرر أن يحل نائب
رئيس أركان حرب الجنرال ريتش محل الجنرال كانتجهام مؤقتا ، وسوغ
قراره بأنه استخلص مع الاسف أن كانتجهام على الرغم من قيادته العجيبة
حتى الان بدأ يفكر تفكيرا دفاعيا لما أصبنا به من خسارة فادحة فى الدبابات .
وقد أيد وزير الدولة أوليفر ليتلتون ، هذا القرار وأوضحه ، فأرسلت اليه
ردى بالموافقة .

وأحب هنا أن أدع هذا الحادث المضى الذى حدث لهذا الضابط الشجاع
ولأخيه قائدنا البحرى العام ، وللجنرال أوكنلك الذى كان صديقا شخصيا
للأخوين ولكننى أود أن أفصح عن كلمة تقدير لساوك الجنرال أوكنلك
الذى سما فوق مستوى الاعتبار الذاتية ، وفوق كل ما يتصددى له
الانسان من خداع لاتخاذ عمل وسط أو ارجاء اتخاذ القرار .

وفى خلال ذلك كان فريبيرج والنيوزيلنديون ، يعززهم لواء من دبابات
الجيش الاول ، مستمرين فى الضغط على « سيدى رزق » فرجعوا الى
الاستيلاء على الموقع بعد يومين من القتال الوحشى القاسى . وفى الوقت
نفسه بدأت حامية طبرق محاولاتها لكسر الحصار ، وفى ليلة السادس
والعشرين استطاعت أن تتصل بالقوة المنجدة ، واقتحمت بعض الوحدات
طبرق المطوقة . ودفع هذا الموقف الى رجوع رومل من البردية ، فسلكت
سبيله الى « سيدى رزق » على الرغم من ان فرقنا السابقة المدرعة التي
أعادت ترتيب نفسها الان شنت هجوما على جناحه بمائة وعشرين دبابة .
ورجع رومل الى الاستيلاء على « سيدى رزق » وأجبر اللواء النيوزيلندى على
التقهقر بعد أن حمله خسائر ثقيلة ، متراجعا الى الحدود فى اتجاه جنوبى
شرقى ، حيث أعادت الفرقة الشجاعة تنظيم نفسها بعد أن فقدت أكثر من

ثلاثة آلاف رجل . ورجعت قوة طبرق الى العزلة ، وان كانت قد احتفظت بشجاعة بكل مغانم حصلت عليها من الارض . وشغل الجنرال رتش الان في إعادة جمع قواته ، في حين قام رومل بهجوم احير لينجد دوائه على اعداءه ، ورد هذا الهجوم . وبدأ تراجع جيش المحور العام الى خط الغزاة وفي الاول من ديسمبر ذهب أوكتاف نفسه الى مركز القيادة الامامي حيث أمضى عشرة أيام مع الجنرال ريتشي ولم يتول أوكتاف القيادة شخصيا ، ولكنه استمر يشرف على اعمال مساعدة . ولم يظهر لي أن هذا العمل سليم بالنسبة الى الرجلين ، ولكن قوة الجيش الثامن أصبحت متقدمة الان . وفي العاشر من ديسمبر كان في استطاعة القائد العام أن يرسل اليها قائلا : « يظهر ان العدو يتقهقر تقهقرا تاما تجاه الغرب » . وأوقن أن في طاقتي الآن الادعاء برفع الحصار عن طبرق . نحن نستمر في المطاردة بالتعاون تام مع سلاح الجو الملكي . ونعرف الان من سجلات الالمان أن ما خسره العدو في المعركة وصل الى ثلاثة وثلاثين ألف رجل ، وثلاثمائة دبابة ، أما ما خسره الجيوش البريطانية والامبراطورية في الوقت نفسه فلم تتعد نصف هذا العدد من الرجال ، ومائتين وثمان وسبعين دبابة . وقد حدث تسعة أعشار هذه الاضرار في أول شهر من الهجوم على أية حال بلغنا الان فترة من الاستجمام طبعها بالنسبة لحرب الصحراء .

ولكن قوتنا البحرية في شرق البحر المتوسط حطمتها تقريبا سلسلة متتالية من المحن في هذا الطرف الحاسم . فقد أطل زمن قوتنا وتقدمنا على النهاية ، اذ بلغت الغواصات الميدان . ففي الثامن عشر من نوفمبر أصاب طوربيد من غواصة ألمانية حاملة طائراتنا « ارك رويال » وهي في سبيل عودتها الى جبل طارق بعد أن نقلت كثيرا من الطائرات الى مالطة ، وعجزت كل المحاولات لانقاذها وغرقت البارجة التي قامت بدور كبير واصح في كثير من معاركنا البحرية ، على مدى خمسة وعشرين ميلا من جبل طارق .

وأصيب « برهام » بعد أسبوعين بثلاثة طوربيدات وغرقت في أقل من ثلاث دقائق ، وعلى متنها ما يقرب من خمسمائة رجل . ولم يكن هذان الحادثان كل شيء . ففي ليلة الثامن عشر من ديسمبر دنت غواصة ايطالية من الاسكندرية وقذفت ثلاثة طوربيدات حية ، ويوجه كل منهما رجلا من نفذت الطوربيدات من مدخل الميناء حينما كان الباب مفتوحا لمروور السفن ، وقد وضع الرجال قنابل زمنية انفجرت صباح اليوم الثاني أسفل البارجتين « الملكة اليزابيث » و « فاليانث » وقد أصيبت البارجتان بأضرار فادحة . وغدتا غير صالحتين للعمل شهورا عدة . وقد استطعنا أن نخفي الضرر الذي أصاب أسطولنا وقتا طويلا ، ولكن القوة « ك » لحقتها أيضا ضربة قاصمة . ففي اليوم الذي حدثت فيه كارثة الاسكندرية ، جاءت الاخبار الى مالطة بأن قافلة - مهمة للعدو في سبيلها الان الى طرابلس . وفي الحال خرجت ثلاثة طرادات وأربع مدمرات لمطاردة القافلة وحينما دنت بوارجنا من طرابلس ، سقطت فريسة حقل ألغام وأصيب طرادان استطاعا أن يبحرا بالرغم من ذلك ، أما الطراد الثالث فقد أخذته الالغام الممغنطة وأغرقتة ولم ينقذ من بحارته الذين يربون على السبعمائة الا رجل واحد وقع في

أسر العدو بعد نجاته مع قبطانه أوكونور وثلاثة عشر رجلاً آخرين على عوامة من الطراد ، ولكن العوامة غرقت في ثلث الليل الأول بزملائه كلهم . ولم يبق من أسطول البحر المتوسط الشرقي غير ثلاثة طرادات من سرب الاميرال فيان وبعض مدمرات .

وفي الخامس من ديسمبر ، وبعد أن عرف هتلر أخيراً ما تصدى له رومل من خطر بالغ ، أصدر أمراً بنقل فيلق جوى تام من روسيا الى صقلية وشمالى افريقية . وبدأ الجنرال كيسلرنج الذى تقلد القيادة الجوية بتوجيه هجوم جوى جديد على جزيرة مالطة ، وبلغت هذه الغارات أقصاها ولم يكن فى طاقة الجزيرة أن تعمل شيئاً غير الدفاع بقوة فى سبيل حياتها . ولم يأت آخر العام حتى كان السلاح الجوى لالمانيا هو المسيطر على السبل البحرية الى طرابلس مما أتاح لرومل أن يعيد تكوين قواته وتنسيقها بعد ما منى به من هزيمة . ولم يحدث مطلقاً فى تاريخ الحروب بوضوح أهمية تعاون الاسلحة البحرية والجوية والبرية كما اتضح فى حوادث هذه الشهور القليلة .

ولكن هذه الاشياء كلها غدت الان ذاوية تحت ضغط الاحداث العالمية

ميناء الدر

(بيرل هاربور)

كنت أنا والسفير وينانت وافريل هاريمان وحدها في تشيكرز مساء الاحد السابع من ديسمبر عام ١٩٤١ ، وحولت مؤشر الراديو لنصت الى نشرة انباء الساعة التاسعة التي بدأت قبل لحظات ، وكان ثمة بعض الاخبار عن القتال في الجبهة الروسية ، وفي الجبهة الليبية ، ثم تبع ذلك بعض الانباء عن هجوم ياباني على السفن الامريكية في جزر هاواي وعلى البواخر البريطانية في جزر الهند الشرقية الهولندية . وتبع ذلك اذيع أن المستر « فلان » سيذيع تعليقا بعد الانباء ، ثم يتبع ذلك برنامج « وحدة الالباب » أو ما ضاهى ذلك . ولم يخطر ببالي شخصيا أي شيء ، بيد أن أفريل هاريمان ذكر أن ثمة شيئا عن هجوم ياباني على الامريكيين ، وبالرغم مما كنا نشعر به كلنا من جهد ، تجددت كل مشاعرنا . وكان سويزر الساقى : قد سمع بما حدث فحضر الى الحجرة يقول « هذا صحيح لقد سمعنا أنفسنا ما وقع في الخارج ، فقد أغار اليابانيون على الامريكيين » وعم جونا الوجوم ، وكنت قد أذعت في حفلة غداء رسمية أقيمت في الحادي عشر من نوفمبر أن بريطانيا ستعلن الحرب على اليابان بعد ساعة واحدة اذا هاجمت أمريكا . وغادرت مقعدي على المائدة ، واجتازت القاعة الى المكتب الذي يعج بالعمل ، وطلبت تسجيل معادنة تليفونية لي مع الرئيس . وأدركني السفير في الخارج . وقد توهم أنني أنوى القيام بخطوة يعسر اصلاحها ، فقال « ألا ترى من الاحسن أن نتيقن أولا ؟ » .

وكان الرئيس روزفلت بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق على الناحية الاخرى من الخط التليفوني فقلت : « يا سيدي الرئيس ، ما الذي يردد حول اليابان ؟ » قال : « انه صحيح » . لقد أغاروا علينا في ميناء الدر . وها نحن أولاء معكم الآن على السفينة نفسها . وناولت وينانت السماعة ، وجرى كلام قصير ، سمعت خلاله السفير يقول : « حسنا . . . حسنا » . ثم ينطق في جنة أكثر « آه » . ورجعت أتكلم الى الرئيس فقلت : « ان هذا التطور ييسر الاشياء » . والله معك ، ورجعنا الى القاعة ، والتمسنا تهينة أفكارنا للحدث العالمي الضخم الذي حدث ، والذي كان مفاجئا بطبعه ، بحيث جعل أولئك المسئولين يلهثون من الحيرة . وتحمل صاحبائى الامريكيان الصدمة تحملا يثير الإعجاب ، ولم تكن عندنا فكرة اطلاقا عن أن الاسطول الامريكي قد أصيب بأضرار بالغة : ولم ينتحبا أو يندبا بسبب دخول بلادهما الحرب . ولم يبدى كلمة واحدة في الافصح عن الألم والعتاب . بل في امكان الانسان أن يقول أن هذا التطور خلصهما

من عذاب ألم طويل . ولم ينعقد البرلمان قبل يوم الثلاثاء ، وكان الأعضاء موزعين في نواحي الجزر البريطانية ، ومن العسير جمع شملهم لتعسر طرق الاتصال بهم . وطلبت من مكتبي أن يتصل حالا برئيس المجلس ومراقبيه للعمل على دعوة البرلمان بمجلسيه الى الانعقاد في اليوم التالي . وأبرقت الى وزارة الخارجية أطلبها بأن تجهز حالا دون أى تخلفاعلانا بالحرب على اليابان ، مع مراعاة كل الخطوات الرسمية الضرورية ، وان يكون كل شيء معدا في وقت انعقاد البرلمان ، وطلبت أيضا دعوة كل أعضاء وزارة الحرب لآخبارهم ، وكذلك رؤساء أركان الحسوب ووزراء القوات المسلحة الذين كنت أتوقع وصول الآخبار اليهم .

وربما لا يتضرر أى أمريكى اذا قلت : ان وقوف أمريكا الى جانبنا في الحرب كان مبعثا لاعظم سرور لى . ولم يكن في طاقتى أن أتكهن بما تجرى به الاحداث ولا أقول أننى كنت قد قدرت بصورة دقيقة قوة اليابان الحربية ، ولكننى علمت في هذا الوقت أن أمريكا قد غدت غارقة في الحرب حتى رأسها ، ومستواصلها حتى النهاية . وهكذا فقد كسبنا في النهاية . نعم لقد كسبنا بعد دنكرك ، وبعد أن سقطت فرنسا ، وبعد حكاية وهران المرعبة ، وبعد خطر الغزو ، حينما كنا شعبا غير مسلح ، اذا استثنينا الاسطول والطيران ، وبعد نضالنا الدامى ضد حرب الغواصات ، وبعد أن انتصرنا بمشقة في الجولة الاولى من معركة الاطلنطى وبعد سبعة عشر شهرا من القتال وحدها ، وتسعة عشر شهرا من تقلد المسئولية في أحلك الظروف . نعم لقد كسبنا الحرب ، فستحيانا إنجلترا وتحيا بريطانيا ؛ وتحيا جامعة الشعوب البريطانية ، والامبراطورية . أما الى متى ستستمر الحرب ، وعلى أية صورة ستنتهى فلم يكن في طاقة انسان أن يعلمه ، ولم يهمنى أن أعلمه في هذا الوقت فستخرج مرة أخرى في تاريخ جزيرتنا المديد ، وبالرغم مما يلاحقنا من ضربات وما يصيبنا من مشقة ، فائزين سالمين . وهكذا لن نفنى ولن ينقرض تاريخنا ولن تنتهى كأفراد أيضا . لقد تقررت نهاية هتلر ، وتقررت نهاية موسوليني . أما اليابانيون فسيعركون عركا كالطحين ؛ وما بقى لا يتجاوز كونه مجرد تطبيق سليم للقوة العاتية المتفوقة . فالامبراطورية البريطانية ، وروستيا ، وأمريكا في النهاية ، كلها تتماسك الان بكل ما عندها من حياة وقوة ؛ أراها على هدى معلوماتى ، تصل في قوتها الى ضعفين أو ثلاثة أضعاف ما عند أعدائها . ولا ريب ثمة في أن القتال سيستمر . وترقبت تدهورا أو أضرارا خطيرة في الشرق ، ولكن هذا التدهور لن يكون غير مجرد فترة تمر . وفي طاقتنا بوساطة اتحادنا أن نخضع كل قوة معادية في العالم . وقد تحدث خطوب ، وقد ندفع أثمانا غالية ، ونجتاز محنا عنيفة ولكن لا مرية في النهاية ولا شقاق .

وقد التمس بعض السخفاء ، وهم كثرة ؛ لا ينحصر وجودهم في بلاد العدو ، بخس وزن القوة الامريكية فقال بعضهم : ان الامريكيين مترفون . وقال البعض الآخر : انهم لن يأتلفوا مطلقا ، وانهم سيمشون كالزعناء من بعيد ، ولن يجازفوا بأنفسهم في المعركة ؛ فهم لا يطيقون تحمل اراقة الدماء ، وستوقف ديمقراطيتهم ونظم انتخاباتهم المتكررة

جهدهم الحربى ، وسيكونون أدنى الى وصمة خفية فى نواحي الاصداقاء والاعداء على حد سواء . ومنشاهد اذن وهن هؤلاء الناس الوافرى العدد ، الكثرى الغنى والثرثرة . ولكنى كنت قد درست الحرب الاهلية الامريكية وعلمت انها قد سارت الى عاقبتها المحتومة . وسرى الدم الامريكى فى شرايينى ، ورجعت الى مخيلتى ملاحظة كان ادوارد جراى ، قد قالها قبل ثلاثين عاما تقريبا وهى أن أمريكا أكثر شبيها بمرجل مسخم ، واذا أوقدت النار تحته فليس هناك ما يخفف من القوة التى يولدها . وذهبت الى فراشى فى تلك الليلة وقد امتلأت وأثقلت بالمشاعر والعواطف ، فرقدت رقاد الانسان الذى يحس بالرضا والحلاص . وحينما تنبهت من رقادى ، قررت السفر للقاء روزفلت . وبسطة الموضوع على وزراء الحرب حينما اجتمعنا ظهر ذلك اليوم ، فوافق كل الرفاق ، وبعد ذلك كتبت الى الملك فوافق جلالته كذلك .

وأعطتنى وزارة الحرب حق اعلان الحرب على اليابان فورا ، وقد نفذت كل الاعمال المطلوبة . وحينما شرع ايدن فى رحلة الى مونسكو وكنت مسئولاً عن وزارة الخارجية ، أرسلت الى السفير اليابانى الرسالة التالية :

وزارة الخارجية : ٨ من ديسمبر

• سيدى

فى الليلة السابعة من شهر ديسمبر عرفت الحكومة البريطانية أن القوات اليابانية دون أى انذار سابق فى صورة اعلان بالحرب أو تحذير أخير باعلان الحرب التمسست الهبوط الى شاطئ الملايو ، وضربت سنغافورة وهنج كونج .

ونظرا لما حدث من عدوان قائم على الاستخفاف ، والتحدى المباشر للقانون الدولى ، وخاصة للمادة الاولى من ميثاق لاهاى الثالث المرتبط ببدء الاعمال الحربية وهو الميثاق الذى وقعته كل من اليابان وبريطانيا . صدرت الاوامر الى السفير البريطانى فى طوكيو باخبار حكومة الامبراطورية اليابانية باسم حكومته فى بريطانيا أن حالة الحرب قد بدأت بين دولتنا .

لى الشرف ياسيدى مع وافر التقدير أن أكون خادمكم المطيع ،

ونستون تشرشل

ولم يرض هذا التعبير المجامل بعض الناس . ولكن ليس ثمة ما يحول دون أن تكون مهذبا مع من ترغب أن تقتله شخصيا .

وانعقد البرلمان فى الثالثه مساء ، وامتلا بالرغم من قصر الوقت وبنص الدستور البريطانى على أن اعلان الحرب من حق الملك باستشارة وزرائه ، ويواجه البرلمان هذه الحقيقة على أنها أمر قائم ، وعلى هذا فقد كنا أكثر وفاء لوعدنا مع أمريكا ، اذ أعلننا الحرب فعلا على اليابان قبل

تقرير الكونجرس الامريكى اعلانها . وكانت الحكومة الملكية الهولندية قد جهزت اعلانها كذلك . واقترع المجلسان على هذا القرار واجمعا عليه ومر زمن ما قبل أن نسمع ما حدث فعلا فى ميناء الدر تفصيلا ، وسكن الحكاية سجلت الان بصورة تامة ووافية . لقد كانت الخطة اليابانية الى اول عام ١٩٤١ تنبنى على اشتباك الاسطول اليابانى الرئيسى فى موقعة هائلة فى مياه الفلبين ، على حين يلتبس الامريكيون ، كما هو مترقب سلوك سبيلهم مجتازين الباسفيك ؛ لنجدة حاميتهم فى هذا الموقع الامامى . ولكن فكرة الهجوم المباغت على ميناء الدر ، ثبتت فى رأس الاميرال ياماماتو القائد الاعلى اليابانى . وكملت التأهبات لهذه الضربة المخاتلة - قبل اعلان الحرب ، فى سرية وتكتم بالغين وفى الثانى والعشرين من نوفمبر نزلت قوة خارقة مكونة من ست حاملات تؤيدها البوارج والطرادات ، فى ميناء لم تتعود القدوم اليه فى جزر كوريل ، شمالى اليابان مباشرة وعين يوم الاحد السابع من ديسمبر موعدا للهجوم وفى السادس والعشرين من نوفمبر أبحرت القوة الهائلة بقيادة الاميرال ناجومو . واتجهت القوة فى سيرها الى الشمال من هاواى ، مجتازة السحاب والزوابع فى هذه المناطق الشمالية ، الى أن دنت من غرضها دون أن يحس بها أحد ، وقبل بزوغ شمس اليوم الموقوت شن الهجوم من موقع يبعد مائتين وخمسة وسبعين ميلا عن شمال ميناء الدر . وأسهمت فى الهجوم ثلاثمائة وستون طائرة تشمل قاذفات من شتى الانواع ؛ تحميمها المقاتلات . وفى السابعة والدقيقة الخامسة والخمسين وقعت القنبلة الاولى . وكانت البوارج الثمانى لاسطول الباسفيك الهدف الرئيسى للهجوم . وكانت ثمة اربع وتسعون بارجة من سفن الاسطول الامريكى فى الميناء . ولحسن الحظ كانت حاملات الطائرات مع قوة كبيرة من المدرعات ، متخلفة عن الميناء فى مهمات خاصة . وانقضت المعركة فى العاشرة صباحا ؛ وتراجع العدو تاركا خلفه أسطولاً مدمرا تلتهمه الحرائق والدخان وروح النار التى سادت أمريكا . وقد انفجرت البارجة أريزونا ، ودمرت البارجة أوكلاهوما ، وغرقت البارجتان ويست فرجينيا وكاليفورنيا ؛ وأصيب كل البوارج الاخرى بأضرار ما عدا بنسلفانيا . وقتل ما يقرب من ألفى أمريكى ، وجرح ما يقرب من ألفين آخرين . وانتقلت السيطرة على المحيط الهادى الى أيدي اليابانيين ، وتحول الميزان الاستراتيجى العالمى فى الوقت الحالى تحولا كاملا .

وكان مما قضى به على أصدقائنا الامريكيين أن يتحملوا سلسلة أخرى من النوازل فى الفلبين ، حيث يتقلد القيادة الجنرال ماك آرثر . وفى العشرين من نوفمبر استقبلنا انذارا يومى الى تطور خطير فى العلاقات الدبلوماسية وشرع الامير هارت قائد الاسطول الامريكى المتواضع فى آسيا ، مباحثاته مع السلطات البحرية البريطانية والهولندية القريبة ، وبدأ تحقيقا لخطته الحربية ، يوزع قواته ناحية الجنوب حيث نوى أن يجمع قوة هائلة فى المياه الهولندية بالاسهام مع أصدقائه المرتقبين ولم يكن تحت امرته سوى طراد ثقيل واحد ، وطرادين خفيفين الى جانب اثنتى عشرة مدمرة وعدد من السفن المساعدة . وقد تجمعت قواته فى

غواصاته التي كان لديه منها ثمان وعشرون . وفي الساعة الثالثة من صباح الثامن من ديسمبر تلقف الاميرال رسالة تتضمن أخبارا مدهشة عن حدوث هجوم على ميناء الدر وبادر فوراً دون أن يترقب تأكيد واشنطن للخبر بتحذير كل من يهمهم الامر ببدء العمليات الحربية ، وعند الفجر قامت طائرات الانقضاض اليابانية بتسديد ضربتها ، واستمرت الغارات الجوية طوال الايام اللاحقة على مدى يزداد باستمرار . وفي العاشر من ديسمبر التهمت الحرائق القاعدة البحرية في كافيتي التهاما كاملاً وفي صباح اليوم نفسه قام اليابانيون بانزال أول قوة في شمالي جزيرة لوزوان وتوالى انزال القنارات بسرعة مذهلة . ودمرت أكثر طائرات أمريكا في المعارك أو على الأرض . ورحل ما بقي منها في العشرين من ديسمبر الى بورت واروين في استراليا . وكانت سفن الاميرال هارت قد شرعت تتوزع جنوباً قبل عدة أيام ، ولم يبق غير الغواصات لتنازع العدو السيادة على البحر . وفي الحادي والعشرين من ديسمبر نزلت قوة الغزو اليابانية الرئيسية في خليج لينجاي لتهديد مانيلا نفسها ، وبدأت الأحداث منذ هذا التاريخ تتتابع على نحو ما يجري في الملايو ، ولكن الدفاع بدأ يمتد ، وهكذا تفجرت خطط اليابان المرسومة منذ وقت بعيد في شحلة من الانتصارات .

وبهت هتلر وأركان حربه ، وحكى يودل في محاكمة كيف حضر هتلر الى حجرة خرائطي في بروسيا الشرقية عند منتصف الليل ليحمل هذه الاخبار الى والي المارشال كاتيل . وكان مذهولاً منها فعلاً . ولكنه على أي حال أصدر أوامره صباح الثامن من ديسمبر الى الاسطول الألماني بمهاجمة السفن الأمريكية أينما كانت . وسبق هذا بثلاث أيام اعلان ألمانيا الحرب على أمريكا بصورة رسمية .

ودعوت الى اجتماع في الساعة العاشرة من ليلة التاسع من ديسمبر في حجرة الحرب الوزاريه ، لاستعراض الموقف البحري ، وكان أغلب الحاضرين من رجال الامبرالية . كنا اثني عشر شخصاً تقريباً . والتمسنا تقويم ما نتج عن هذا التغير الاساسي في موقفنا الحربي ضد اليابان فقد فقدنا السيادة على كل بحر ما عدا الاطلنطي . وأصبحت استراليا ونيوزيلنده وكل الجزر الهامة الاخرى في منطقتها متصدية للهجوم . ولم يبق لدينا غير سلاح واحد مهم . فقد بلغت البارجة « الامبر ويلز » والبارجة « ريبالس » سنغافورة وقد أرسلنا هاتين البارجتين الى هذه المياه لنباشر بوساطتهما ذلك التهديد الخفي ، الذي يصاحب البوارج الكبرى ذات القدرة الحربية العالية حينما تعلن تحركاتها . ولكن كيف نستطيع أن نستخدمها الآن ؟ لا شك في أنه يلزمهما الذهاب الى البحر والاختفاء بين الجزر التي لا تعد ولا تحصى . واتفق على هذا بالاجماع وتراءى لي أن أحسن طريق لهما هو اجتيازهما المحيط الهادي وانضمامهما الى ما بقي من الاسطول الأمريكي . ولا شك في أن حركة كهذه ستكون ذات دلالة كريمة في مثل هذا الوقت ، وتدعم الروابط بين دولتي العالم الناطقتين بالانجليزية وكنا قد قبلنا عن طيب خاطر ، طلب وزارة البحرية الأمريكية عودة بوارجها الكبرى من الاطلنطي .

وهكذا استطاع في خلال أشهر قليلة خلق أسطول على ساحل أمريكا الغربي يمكنه أن يخوض معركة حامية حاسمة اذا دعت الضرورة .
وسنكون وجود مثل هذا الاسطول ، ومثل هذه الحقيقة أفضل درع
مستطاع يحفظ أصدقاءنا في استراليا . وقد استهوتنا كلنا هذه الفكرة
ولكننا قررنا ارجاء البت تلك الليلة وفي الصباح تقرر ما سنعمله بالامير
ويلز وريبالس .

ولم تمر ساعتان حتى أصبحت البارجتان في قاع البحر . وفي
الصباح العاشر كنت أفتح عيني حينما رن جرس التليفون على كذب من
سريري وكان المتكلم لورد البحر الاول ، وظهر صوته غريبا لي ، وتنحنج
أولا ولم أتمكن في بادئ الامر أن أسمع قوله جليا . قال : « يا رئيس
الوزراء يحزنني أن أحمل اليك اغراق اليابانيين الامير ويلز وريبالس ،
بوساطة الطائرات كما نعتقد . لقد غرق توم فيليب . فقلت صائحا « هل
أنت متيقن مما تقول ؟ » فأجاب « نعم يا سيدي ، تمام اليقين » . ووضعت
سماعة التليفون ، وشكرت الله على انني كنت وحدي . فلم أتلق قبل
طوال الحرب كلها خبراً صاعقا مثل هذا الخبر . ولا مزية في أن القاريء
رأى ما علقناه على هاتين البارجتين من أمان وخطط وجهد . وحينما تقلبت
في فراشي على الجانب الآخر هيمت على فكري ما تحتويه هذه الكارثة
الجديدة من مخاوف ، فليس ثمة في المحيطين الهندي أو الهادي أية بوارج
بريطانية أو أمريكية كبيرة غير تلك التي نجت من ميناء الدر ، والتي بدأت
تبادر بالهرب الآن الى كاليفورنيا وغدت اليابان المهيمنة على هذه الارزاء
الشاسعة من البحار ، وغدونا نحن أذلة وعراة في كل مكان .

وعند انعقاد مجلس العموم في الحادية عشرة من ذلك الصباح ،
نزلت انيه لاجل الى الاعضاء شخصيا أنباء ما وقع ، وفي اليوم اللاحق
قدمت اليهم توضيحا وافيا عن الموقف الجديد . وسيطر على احساس
شامل من الحيرة ، كما عمنا احساس من الغضب على هذه المعركة الطويلة
الجارية في ليبيا ، والتي كانت نهايتها في يد القدر . ولم أحجب عن
الاعضاء امكان تعرضنا لالوان متعددة من النكبات على أيدي اليابانيين .
وفي الوقت نفسه كشفت انتصارات روسيا الحجاب عن زلة هتلر المميتة
في حملته الشرقية والشتاء على الابواب . وفي ذلك الحين سيطرنا على
حرب الغواصات ، ونزلت نسبة اضرارنا الى حد كبير . وفي النهاية
يحارب معنا الان أربعة أخماس العالم فالفوز الاخير مكفول . وهذه هي
خلاصة ما ذكرته ذلك اليوم . وقد استعملت أبعد ما في فن القصص
الواقعي من برود متفاديا الوعد بالنصر القريب . وساد المجلس الوجوم ،
وظهر لي أنه يرجي قراره انتظارا للاحداث ، وكان هذا كل ما رغبت فيه
وكل ما ارتقبته .

رحلة في معمة الحرب العالمية

اقتضت عوامل خطيرة جمة أن أكون في لندن في هذا الوقت الذي حدث فيه الكثير . ولم يكن عندي أقل ريب في سيادة انتقامهم بين بريطانيا وأمريكا ، لكن كان علي أن أمضي إلى واشنطن على الفور مع أقوى نخبة استطاع تكوينها من المستشارين الخبراء . وكان الرأي الغالب أن سفرنا بالجو في هذا الفصل من العام بالغ الخطورة . ولهذا رحلنا إلى الكلايد في الثاني عشر ، ولم يكن « الأمير ويلز » هناك . وكان « الملك جورج الخامس » يرقب البارجة الألمانية تيربيتز . وكانت طاقة البارجة الحديثة « اندوق أوف يورك » أن تقلنا ، وإن تنتهز فرصة رحلتها لتتمرن تمرينا وافييا في الوقت نفسه . وكانت النخبة التي صحبتني تتكون من اللورد بيفربرول ممثلا لوزارة الحربية والاميرال باوند ، لورد الاميرالية الاول ، وماريشال الجو بورتال رئيس أركان حرب الطيران ، والفيلد مارشال ديل الذي أعقبه الآن الجنرال زوك في رئاسة أركان حرب الامبراطورية . وكنت أود أن يبقى بروك في لندن ليحل المشكلات المفزعة التي تنتظره وطلبت بدلا منه ديل الذي يعيش في صميم مشكلاتنا وهو محل ثقة الكل وتقديرهم ، وقد اتسع له في واشنطن أفق جديد .

وصاحبني كذلك اللورد موران الذي غدا مستشاري الطبي اندائم سنة ١٩٤١ وكانت هذه أول رحلة يصاحبني فيها ، ولكنه منذ ذلك أصبح يرافقني في كل رحلاتي ، ولا مرية في انني أدين بحياتي لاهتمامه الطبي الزائد . وبالرغم من أنني كنت لا أنجح في اقناعه بالأصغاء إلى نصائحي حين يمرض ، وبالرغم من أنه لم يكن يعتمد أبدا على طاعتي المطلقة لكل توجيهاته ، غدونا صاحبين حميمين . على أي حال لقد انتصرنا على كل الاسقام والأمراض .

وكنا نود أن نقطع المسافة في سبعة أيام بسرعة عشرين عقدة في الساعة ، بعد أن وضعنا في حسابنا أن نسير في خطوط غير مستقيمة لنفادي الغواصات . وقد طلبت منا الاميرالية أن نتوجه من المضيق الأيرلندي إلى خليج بسكاي . وكان الجو سيئا كل سوء ، فقد كان البحر ثائرا ، والزوابع عنيفة ، وامتلات السماء بسحب كثيفة . وكان علينا أن نقطع خط غدو الغواصات ورواحها الممتد بين موانئ فرنسا الغربية وأماكن الصيد في الاطلنطي . وكان تعدادها كبيرا لدرجة أرغمت لاميرالية على أن تأمر قبطاننا بأن يستمر في السير مع منمرات الحراسة ولا يدعها تسير خلفه . ولكن المدمرات لا يمكنها أن تقطع في البحار الهائجة أكثر من ست عقد في الساعة .

وهكذا قطعنا الدورة حول ساحل جنوب أيرلندة في أكثر من ثمان

وباربعين ساعة ، وصرنا على مدى أربعمائة ميل من بريست وما برج
خاطري في هذه الفترة التفكير الملح في كيف استطاعت الطائرات التي
تحمل الطوربيد والتي تعمل في القواعد الساحلية أن تحطم «الامبرويلز»
و « ويبالس » قبل أسبوع ؟ وقد حالت السحب بين طائرات الحراسة
وبين مصاحبتنا فيما عدا طائرة واحدة ، وحينما ذهبنا الى الجسر شاهدت
الكثير من زرقاء السماء التي لا نحتفي بها . لكن لم يحدث شيء على أي
حال ، وسار كل شيء على ما يرام . واستمرت السفينة الكبيرة ، مع
مدمراتها الحراسة تشق أمواج المحيط ، وأوشك صبرنا أن ينفذ من بطنه
السير . ودنونا في الليلة اللاحقة من نهر الغواصات . وقال الامير باوود
الذي أصدر القرار بنفسه : ان تحطيم غواصة معادية خير لنا من أن
تنسفنا هي بطوربيداتها كانت الليلة حالكة للغاية . وهكذا نجونا بمدمراتنا
وعبرنا الطريق وحدنا بسرعة فائقة في ذلك الجو السيئ . وشكنا اللورد
بيفربول من أنه كان يفضل سفرنا نحن في غواصة .

وكان في استطاعة موظفي « رموزنا » أن يستقبلوا بوساطة
اللاسلكي عددا من الرسائل . وكان في طاقتنا أن نجيب عن بعضها
الى حد معين . وحينما انحازت اليينا وحدات حراسة أخرى من جزر
الازورر ، كان يمكنها أن تستقبل منا رسالات بالرموز بإشارات مودس
الواضحة ثم تتخلف عنا مائة ميل أو ما يقرب من ذلك ، ونرجع فننشر
رسائلنا من غير أن تكشف مركزنا ، ومع ذلك فقد كنا في معصية الحرب ،
وكان هناك كثير من مغرمي اللاسلكي .

كانت الحرب دائرة في كل الجهات . فاليابان هاجمت هونج كونج
في الوقت الذي هاجمت فيه ميناء الدر . ولم يكن عندي ريب في
عاقبتها تحت ضغط القوات اليابانية الضخمة . وقبل اثني عشر شهرا
عارضت في تقوية حاميتها ، لان فقدها شيء مؤكد ، وكنت أرى انقاص
الحامية الى عدد رمزي ، ولكنني أذنت للآخرين بالانتصار على في هذا
الرأي ، وفي سرعة أرسلنا معونات الى الجزيرة . هاهي ذي الحامية تواجه
الآن قوات تفوقها وقد صمدت أسبوعا كاملا ، واشترك في أعمال
المقاومة اليائسة كل من يقدر على حمل السلاح . وقد فاق تحمل المدنيين
البريطانيين بأس الحامية العسكرية . ولكن القوة نفذ صبرها يوم عيد
الميلاد ، وغدا الاستسلام أمرا لا مناص منه . وفي سرعة أشرفت علينا
قوة أخرى من المظليين في الملايو ، اذ صحبت هبوط اليابانيين على شبه
الجزيرة غارات محطمة على مطاراتنا ، عطلت قوتنا الجوية الضعيفة ،
وجعلت المطارات الشمالية لا تصلح مطلقا لاستخدامها ولم يدن آخر
الشهر حتى كانت قواتنا التي اقتحمت بعض معارك وحشية قد غدت
الان على مدى مائة وخمسين ميلا من المراكز الاساسية التي كانت فيها
حين بدأت الهجوم . وقد أنزل اليابانيون ثلاث فرق كاملة على الأقل
ضمنها فرقة الحرس الامبراطوري .

وفاقت فاعلية طائرات انغلو التي انتشرت بسرعة فوق كل

لمطارات التي تم احتلالها . كل ما كان مرتقبا ، وقد أرغمنا على الدفاع .
كانت أضرارنا بالغة .

وكان كل عضو من أعضاء فريقنا يواصل العمل ، في حين تستمر
البارجة « الدوق أوف يورك » في السير غربا ، وتجمعت كل أفكارنا
حول المشكلات الواسعة الجديدة التي فرض علينا مواجهتها وحلها .
وبدأنا نرقب في شوق ممزوج بشيء من الحيرة أول اتصال يتم بيننا
كحلفاء وبين الرئيس ومستشاريه السياسيين والعسكريين وكنا قبل أن
نغادر بلادنا نعلم أن هجوم ميناء « الدر » الخاتل ، قد أثار الشعب
الأمريكي من أعماقه . وبدأ لنا من التقارير الرسمية ومن موجز الصحف
الأمريكية ، أن غضب الشعب الأمريكي كله سينصب على اليابان . وكنا
نخشى ألا تعرف النسبة الصحيحة للحرب على حقيقتها ، وكنا نشعر
بخطر قائم من مواصلة أمريكا الحرب ضد اليابان في المحيط الهادي ،
وتركنا نحارب ألمانيا وإيطاليا في أوروبا وأفريقية والشرق الأوسط .

وانقلبت معركة الاطلنطي الأولى بصورة واضحة الى مصلحتنا . ولم
يعد في إمكاننا الاحتفاظ بسبلنا البحرية مفتوحة . وكنا على يقين من
قهر هتلر اذا أراد غزونا في جزيرتنا . وحفزتنا قوة المناضلة الروسية
وكان تيمنا بالغا وفي مكانه من الحملة الليبية ، لكن كل خططنا القادمة
متعلقة باستمرار وصول سيل الامدادات الأمريكية المختلفة الانواع اليها، مثل
تلك التي تشق الان أمواج الاطلنطي . وكنا أولا وقبل كل شيء نستند
الى الطائرات والدبابات والى ما تشيده لنا أحواض السفن الأمريكية
من سفن تجارية . وكان الرئيس حتى الآن باعتباره شخصا غير محارب
مستعدا لتحويل كميات كبيرة من عتاد القوات الأمريكية المسلحة اليها ،
لان جيوشه لم تكن مشتبكة في الحرب . ولكن هذه العملية ستتقيد الان
بعد أن غدت أمريكا في حالة حرب مع ألمانيا وإيطاليا ثم مع اليابان .
وستمنح الأولوية الان طبقا لما تفتقر اليه بلاده وقد ضحينا بعد الهجوم
على روسيا بالعديد من الزاد والعتاد الذي أخذت مصانعنا تنتجه لمعاونة
القوات الروسية في نضالها .

وقد حولت أمريكا الى روسيا أكبر مقادير من الامدادات التي
كانت تنوي ارسالها اليها . وقد قبلنا كل هذا لما أظهره الروس من مقاومة
فائقة للغزاة الالمان .

ولكن كان من الصعب علينا تأخير امداد جيوشنا بما تحتاج اليه
من عتاد ، وخاصة منع ما يفتقر اليه جيشنا الذي يقتحم معارك وحشية
في ليبيا ، من أسلحته الضرورية . وعلينا أن نتوقع أن مبدأ « أمريكا
أولا » سيسيطر على حليفتنا ، ونخاف أن يمضي زمن قبل أن تبدأ القوات
الأمريكية العمل على مجال فسيح . وان نتصدى نحن في هذا الوقت
العسير من التأهب للمحنة والشدة . وسيحدث هذا في فترة يلزمنا
فيها أن نواجه عدوا جديدا شنيعا في الملايو والمحيط الهندي وبورما
والهند . ومن الجلي أن توزيع المعونات يحتاج الى اهتمام بالغ ، وخاصة

انه سيقابل الكثير من الصعاب والنواحي الدقيقة . وقد تلقينا تنبيها
يقول أن برامج المعدات الممنوحة بمقتضى الاعارة والتأجير ستتقف الى أن
يكمل اصلاحها . ومن حسن طالعنا ان انتاج الذخائر والطائرات فى
مصانعنا قد كثر وبلغ درجة رفيعة وسيصبح فى القريب بالغ الضخامة
ولكن فى اللحظة التى كانت بارجتنا فيها تشق أمواج المحيط بين
الزوابع المتتابعة ، كنا نشاهد أمام أبصارنا سلسلة طويلة من المحسن
والشدائد ، ومنع بعض ما نفتقر اليه حتما مما يؤثر على انتاجنا كله .
وكان يفر بروك متفائلا كسجين فى فترات المحن . فأعلن أن موارد
امريكا لم تصب حتى الآن . - وانها ضخمة ولا تعد ولا تحصى . وأن
قوة الشعب الامريكى حينما تحول الى النضال ستحقق نتائج أكثر مما
يتخيله أى انسان . وهو يوقن أن الامريكىين لم يعرفوا حتى الآن
ماهية قوتهم فى مجال الانتاج . وسيفوق الجهد الامريكى كل الارقام
الخالية ويسبقها ، ويكفى الجميع . ولا مرية فى أنه كان مسددا فى حكمه
وتقديره .

ولكن كل هذه الاعتبارات صغرت أمام المشكلة الاستراتيجية
الرئيسية فهل فى طاقتنا أن نقنع الرئيس روزفلت ورؤساء أركان
القوات المسلحة بأن قهر اليابان لا يؤدي الى قهر هتلر ، وانما قهر
هتلر يؤدي الى قهر اليابان ، وجعل الخلاص منها أمرا يقرر فى خلال
زمن قليل ؟

وقد امضينا ساعات طويلا ونحن نبحث هذه المشكلة الخطيرة ،
وجهر رئيسا الاركان والجنرال ديل وهوليس وضباطه عددا من
المذكرات التى تتصل بالموضوع كله ، وجزموا بأن الحرب فى نظرهم كل
لا يتجزأ ، وسيظهر لنا فى القريب ان كل مخاوفنا ومشقاتنا لا يوجد
ما يدعو لها .

وتمكننا بما أوجبه على رحلة الايام الثمانية من تخفيف اثقال
الاعمال العادية حيث لا نقيم اجتماعات وزارية ولا نستقبل أشخاصا
من استعراض الحرب بصورة وافية كما اشاهدها وأشعر بها على هدى
امتدادها المباغت . وتذكرت كلام نابليون عن استطاعته أن يركز التفكير
على المسائل وقتا طويلا من غير احساس بنصيب أو شعور باجهد .
وأردت أن أفعل هذا المتبع عن طريق بسط افكارى كتابية بطريقة
املائها . ولأرادتى تهيئة نفسى للقاء الرئيس ، وللتباحث مع الامريكىين ،
وللتيقن من وجود رئيسى الاركان باوند وبورتال معى الى جانب
الجنرال ديل ، ومن امكان التيقن من الحقائق فى الطرف المناسب
بوساطة الجنرال هوليس وموظفى السكرتارية جهزت ثلاث مذكرات
عن سير الحرب مستقبلا ، كما أرى . وقد استغرق العمل فى كل
مذكرة أربع ساعات أو خمسا ، طوال ثلاثة أيام على التوالى . ولما كانت
الصورة كلها حاضرة فى بالى . فقد كمل تجهيز هذه المذكرات بكل سر
وان كان بطيئا . وحين اتممت كل وثيقة بعد مراجعتها فى دقة كنت
أرسلها الى رفاقى الفنيين كافصاح عن آرائى الخاصة . وكانوا هم
الاخرون يجهزون مذكرات من ناحيتهم لمؤتمرات الاركان المشتركة .

وفرحت كثيرا لاتفاق الآراء بين المذكرات التي جهزتها وبين مذكرات القادة العسكريين ، على الرغم من أن آرائى تناولت النواحي العامة وتناولت آراؤهم النواحي الفنية البحتة . ولم تحدث أية خلافات تدعو الى إثارة مناقشات . ولم تحتج الا الى بعض الحقائق تصويبا لها . وهكذا على الرغم من أن أحدا منا لم يرتبط بصورة جامدة أو دقيقة ، فقد وصلنا جميعا نحمل بعض العقائد ذات الصفة الانشائية ، وكنا متفقين جميعا بشأنها . وقد تضمنت المذكرة الاولى الدوافع التي تدفعنا الى أن نجعل غرض حملاتنا في سنة ١٩٤٢ في المسرح الاوربي الاستيلاء على كل سواحل افريقية في الشرق الادنى من دكاكر الى حدود تركيا بجيوش بريطانية وأمريكية . وتناولت المذكرة الثانية ما يجب اتخاذه من اجراءات لارجاء الهيمنة على المحيط الهادى ، وحددت مايو سنة ١٩٤٢ كشهر يستطاع فيه تحقيق هذا الهدف . وأطنبت في الكلام بصورة خاصة عن وجوب مضاعفة عدد حاملات الطائرات ، والمبادرة بانتاجها بمجموعات وافية . وحددت المذكرة الثالثة كغرض آخر تحرير أوربا بانزال قوات بريطانية وأمريكية كبيرة فى أى مكان يرى أنه افضل مكان لمثل هذا الانزال فى المناطق التى تستولى عليها ألمانيا - وحددت سنة ١٩٤٣ كمىقات لتسديد هذه الضربة الرابعة .

وقد حكيت قصص متعددة فى أسفار ومقالات عن بغضى العميق لعمليات فسيحة المجال فى القارة . حتى بات من الضرورى أن أذكر الحقيقة واقويتها . فقد كنت أرى باستمرار أن الهجوم المركز على البلاد التى تستولى عليها ألمانيا فى أوربا وعلى مجال واسع هو الطريق الوحيد لكسب الحرب وكنت أرى اختيار صيف سنة ١٩٤٣ موعدا للقيام بهذا الهجوم . وكنت منذ آخر سنة ١٩٤١ أحسب أن هذه العملية المنتظرة تفتقر الى أربعين فرقة مدرعة ، والى ما يقرب من مليون جندي من الجيوش الاخرى ، وذلك فى المرحلة الاولى وحينما أرى عدد الكتب التى صدرت والتى يتحتم بصورة خاطئة أننى لم أعرض غزو القارة ، أرى أن أوجه نظر القارئ الى هذه الوثائق الصحيحة الرسمية . التى كتبتها فى هذا الظرف والتى سترجع الى الحديث عنها فيما بعد .

وقد أعطيت الرئيس هذه المذكرات الثلاثة قبل عيد الميلاد وابنت له انها بالرغم من افصاحها عن أفكارى الشخصية ، لا تتجاوز مجال الاتصالات الرسمية التى دارت بين ضباط أركاننا . وكنت قد صفتها فى صورة وثائق مقدمة الى لجنة رؤساء أركان الحرب البريطانيين ، وقلت له كذلك . اننى لم أرد اطلاعه عليها فقط ، بل رأيت أن من الضرورى أن يعلم شيئا مما يتحرك فى رأسي ، ومما أرغب فى عمله ، ومما ستريد بريطانيا العظمى أن تفعله من جهتها . وقد قرأها الرئيس بمجسرد استلامه لها وسألنى فى اليوم التالى عن امكان حصوله على نسخ منها . وقبلت ذلك طبعاً وأنا مفتبط كل الاغتياب .

وأحسست أن الرئيس كان يفكر فى الاتجاه الذى كنت أفكر فيه فيما يتصل بشمال افريقية الفرنسى . وها نحن أولاء قد غدونا

الآن صدقاء . ويلزم أن نعمل معا وفي مجال فسيح وأصبحت متيقنا .
انى والرئيس سنجد مجالا واسعا للاتفاق - وأن الارض مهيأة تمام
التهيؤ لذلك . وهكذا غدوت مستبشرا وثقت كما سيزى القسارىء
موافقة الرئيس النهائية على القيام بحملة أسميناها « عملية المشعل » فى
افريقية الشمالية ، وقد قضى لها أن تكون أول هجوم برمائى رائع نقوم
به معا .

وقد كان من المهم جدا رسم خطط للمستقبل فقد نتكهن بالنتائج
من بعض النواحي الا أنه يصعب تحديد الظروف المعينة لمثل هذه الاحداث
الكبيرة التى قد تتوقف أو تتخلف بسبب عمل العدو أو ضرباته المواجهة .
ولقد نفذنا كل الاغراض التى وضعتها فى المذكرات الثلاث بوساطة
القوات البريطانية والامريكية . فكان رجائى أن يستطيع الجنرال أوكنلك
تطهير ليبيا قبل فبراير سنة ١٩٤٢ ولكن هذه الرجاء منى بالخيبة . فقد
مر بسلسلة من التدهور المؤلم ساوضحها فيما بعد - وحفز هذا الفوز
هتلر فقرر أن يقوم بمجهود واسع النطاق للاستيلاء على تونس وفى
سرعة أرسل ما يقرب من مائة ألف جندى من جنوده الجدد مجتازين
ايطاليا والبحر المتوسط . وهكذا فرض على الجيوش البريطانية
والامريكية أن تقتحم فى افريقية الشمالية حملات أطول وأكبر مما تخيلت
من قبل . وهكذا فرض على الخطة المرسومة تخلف لا يقل عن أربعة
أشهر ، ولم تستطع جيوشنا الحليفة أن تحقق الهيمنة على كل سواحل
افريقية الشمالية من تونس الى مصر ، حتى شهر مايو سنة ١٩٤٣ ولهذا
لم يكن من المستطاع تنفيذ المشروع الأكبر لاجتياز قناة المانش . وتحرير
فرنسا . وهو المشروع الذى كنت أعمل ملحقا لتنفيذه ، فى ذلك الصيف .
وتقرر ارجاؤه تبعا لذلك سنة كاملة ، أى حتى صيف سنة ١٩٤٤ .

وقد اقنعنى ما وقفت عليه بعد الحرب من معلومات ، وتفكير
طويل فيها بأننا كنا ميمونى الحظ جدا ، لما أدركنا من خيبة الرجاء
فيما يختص بتوقيت خططنا . فقد نجانا أرجاء شامل تام فى وقت
الغزو مما كنا سنتصدى له من مهالك مفزعة . ومن نازلة متوقعة ترج
العالم كله باصدائها . ولو كان هتلر يتقن الامور لو فر على نفسه مامنى
به من أضرار فى شمال افريقية ، ولقابلنا فى فرنسا سنة ١٩٤٣ بضعف
ما قابلنا به من قوات فى سنة ١٩٤٤ ، وقبل أن تبلغ الجيوش الامريكية
التى تم تجهيزها .

حديثا ما بلغته من نضج وتقدم ، وقبل أن يتم صنع تلك
الاساطيل الكبيرة من سفن الانزال والموانى العائمة . وأنا موقن الآن
أن عملية « المشعل » لو انتهت كما رسمت لها أن تنتهى فى سنة ١٩٤٢ .
أو حتى لو لم نردها مطلقا وأردنا اجتياز المانش فى سنة ١٩٤٣
لمينا بفشل مميت من الطراز الاول كان فى استطاعته أن يخلف أثرا لا
يقدر على نتيجة الحرب كلها .

وقد زاد فهمى لهذه الحقيقة طوال سنة ١٩٤٣ . وقبلت كامر
لا مفر منه أرجاء عملية « السيد الأكبر على الرغم من ادراكى كل
الادراك لما كان يشعر به حلفاؤنا الروس من غضب وسخط وكان من
المقرر أن نشق أمواج البوتوماك ونبلغ البيت الابيض ، ولكن صبرنا

فرغ بعد عشرة أيام في البحر ، وكنا في شوق بالغ الى انتهاء رحلتنا ، ولهذا تأهبنا للطيران من « هامبتون رودز » ونزلنا بعد حلول الظلام في الثاني والعشرين من ديسمبر في مطار واشنطن . كان الرئيس - ينتظرنا ثمة في سيارته . وأمسكت يده القوية أحرکها في راحة وفرح . وبلغنا بسرعة البيت الابيض الذي غدا بيتنا في كل جهة من الجهات طوال الاسابيع الثلاثة اللاحقة . وهنا احتفت بنا السيدة روزفلت التي لم تدع طريقة الا اتبعناها لتكفل لنا الراحة .

وعلى أن أقر هنا بأن لبي كان في شغل في هذا الحين بدوامه الاحداث وبالمهام الشخصية التي كلفت تأديتها ، حتى أن مخيلتي لم تحفظ بالرغم من تنبيهها غير ذكريات خافته عن تلك الايام . لقد كان المظهر الواضح من غير شك اتصالاتي بالرئيس . فقد كان كل منا يرى الآخر بضع ساعات كل يوم ، وكان هاري هوبكنز ثالثنا في تناول الغذاء ، ولم تتجاوز أحاديثنا حدود العمل ، وتوصلنا الى اتفاقات كثيرة على عدة نقاط صغيرة وكبيرة . وكانت فرصة العشاء مناسبة اجتماعية ، ظريفة وان كانت محدودة بجمع قليل من الناس . كان الرئيس يجهز كنوس الكوكتيل الاولى بنفسه وكنت أقوده بكرسيه من حجرة الاستقبال الى المصعد كبرهان على التقدير ، وأتخيل السير وولتر دالي وهو يبسط عباءته أمام الملكة اليزابيث ، وتولد في نفسي حب قوى جارف كبير مع أعوام الرفقة الطويلة لهذا السياسي القوي ، الذي أملى رغبته على المسرح الأمريكي أكثر من عشر سنوات ، والذي كان قلبه يلبي كثيرا من الدوافع التي كانت تستفزني . ولما كنا نحن الاثنين بحكم الطبيعة أو الحاجة مضطرين الى أن نقوم بأكثر أعمالنا ونحن في الفراش فقد كان يجيء الى حجرتي لزيارتي حينما يحس بالميل الى ذلك ويحفزني على زيارته في حجرتة . وكانت حجرة هوبكنز أمام حجرتي التي أرقد فيها وبجوارها حجرة الخرائط التي جهزت لي بسرعة . وقد اعتنى الرئيس كل العناية بهذه الحجرة التي أحكم الكتبة تجهيزها . وكان مبعثه مفروضا ليدرس باهتمام الخرائط الكبيرة لكل ميادين الحرب التي أصبحت تكسو كل الحوائط في سرعة ، والتي تظهر عليها كل تحركات الجيوش والاساطيل بجلاء ودقة ووضوح ، ولم يمر زمن طويل حتى كان الرئيس قد جهز لنفسه حجرة خرائط من النموذج الأول .

ومضت أيام كنا نعدّها بالساعات . وفي سرعة فهمت أن على أن أخطب بعد عيد الميلاد مباشرة في الكونجرس الأمريكي ، وبعد أيام أخرى في برلمان كندا في أوتاوا . وتوجب مثل هذه المناسبات أعباء كثيرة على حياتي وطاقاتي ، الى جانب مساوراتنا اليومية ، والأعباء التي أقوم بها ، ولا أعلم كيف مرت بكل هذه الأشياء .

واكتفينا في عيد ميلادنا بحفلات صغيرة ، فقد نصبت شجرة عيد الميلاد التقليدية في حديقة البيت الابيض ، وألقيت أنا والرئيس في الجماهير الفقيرة التي تجمعت في الظلام خطبتين قصيرتين من الشرفة .

وسرت مع الرئيس الى الكنيسة يوم الميلاد ، وأحسست بالسكون

الروحي في الصلاة البسيطة • وتمتعت باشتراكى في انشاء الاهازيج
العادية •

ألقيت خطابى في الكونجرس الأمريكى بوافر الحماسة القلبية •
وكانت المناسبة ضرورية فيما يتعلق بما اعتقدت انه التحالف الغالب
للسعوب التى تتكلم الانجليزية • ولم يسبق لى قبل ذلك اليوم أن ألقى
خطابا في برلمان أجنبى • ولكن بالنسبة الى والى ادعائى سريان دم أمريكى
في شرايينى بوساطة الجد الخامس لوالدتى الذى كان ملازما في جيش
جورج واشنطن ، أحسست بشىء من الحق في تحدثى الى ممثلى
الجمهورية العظيمة حول فكرة قضيتنا المشتركة ولا مزية في انه كان من
العجيب أن تمشى الامور في هذا الاتجاه ، وشعرت مرة أخرى بأننى قد
أعذر في استخدامى خطة مقرررة بالرغم من عدم كفايتى •

وأضيت يوم عيد الميلاد كله في اعداد خطابى • وأمل الرئيس لى
حظا سعيدا حينما سرت في السادس والعشرين من ديسمبر في كنف
رئيسى مجلسى الشيوخ والنواب من البيت الابيض الى دار الكابيتول •
وظهر لى أن ثمة جموعا كثيرة من الناس على حافتى الطريق ولكن
احتياطات الامن في أمريكا التى تبرز في دقتها ما عرفناه في بريطانيا ،
أبعدت أولئك الناس عن السبيل في حين كانت تحف سيارتى سيارتان
أو ثلاث مملوءة برجال الشرطة المسلحين أقوى تسليح وهم في ملابسهم
العادية • وحينما خرجت من السيارة رغبت في السير الى الجماهير الهائفة
لأحييهم تحية الاخوة ، ولكن حرسى أبى أن يسمح لى بذلك • وحينما
دخلنا الى القاعة كانت الصلوة رائعة ، مؤثرة ، وكانت القاعة التى
أبصرها نصف دائرية عبر عدد من مكبرات الصوت ، مزدحمة بالناس •
وينبغى أن أقر بأننى لم أحس بأى اضطراب ، وكنت هذه المرة
مطمئنا الى نفسى أكثر من مرات متعددة ، ظهرت فيها أمام مجلس العموم ،
وواجه الحاضرون قولى بكثير من الاهتمام وتلقيت من المنصتين ماكنت
أترقبه تماما من صياح وضحك في نقاط كنت أرغب فيها هذا الصياح
وهذا الضحك ، وكان أقصى رد فعل منهم حينما كنت أتكلم عن الهجوم
اليابانى فقلت : « أى صنف من الناس يؤمنون باننا منه ؟ » وانبعجت
من كل جهات الجمعية العظيمة كل احساسات القوة والارادة المتمثلة في
الامة الأمريكية • فهل هناك من يرتاب في أن كل شىء سيسير سيرا
مرضيا ؟

وحينما انتهيت خرج معى رئيسا المجلسين الى حيث كانت تقف
الجماهير حافة بالمبنى ، لأحييها من القلب تحية حارة ، وفي سرعة قدم
رجال دائرة المباحث فى سياراتهم وحاصرونى ورجعوا بى الى البيت
الابيض ، عند الرئيس ، وقد انصت الى خطابى كله ، فهنأنى على فوزى •

وفي ليلة ٢٨ - ٢٩ من ديسمبر سافرت بالقطار الى أوتاوا لآنزل
ضيفا على الحاكم العام اللورد اثلون • وفي التاسع والعشرين حضرت
اجتماعا لوزارة الدفاع الكندية • وبعد قليل قدمنى رئيس الوزراء المستر
مكنزى كبنج الى زعماء المعارضة من حزب المحافظين وتركنى معهم •

وشاهدت هؤلاء السادة يتقدون طاعة ومضياء ، ولكنهم يحسون ببعض الألم ، لأن الحظ لم يرد أن يشرفهم بأن يشنوا هم الحرب ، وأراد أن يدفعهم الى الانصات الى العواطف الزاخرة التي يفصح عنها الآن خصومهم الاحرار بعد رفعهم لواءها طوال حياتهم .

وفي الثلاثين من ديسمبر تكلمت في البرلمان الكندي . وكان تجهيز الخطابين اللذين أقيتهما عبر الاطلنطي ، واللذين أذيعا على العالم كله . في غمرة الاحداث وانقاذ العمل الملح الذي يتطلب سرعة الحسم ، أمرا متعبا كل التعب . وليست الخطابة حملا ثقيلا على السياسي المخضرم ، ولكن الصعوبة تنشأ من تحرر ما يقال ، ما عسى أن يذكر وما ينبغي ألا يذكر في مثل هذا الجو المتوتر ، وقد عملت ما أمكنني ، ولعل النقطة التي صادفت نجاحا كبيرا في خطابي الكندي هي المرتبطة بحكومة فيشي التي كانت كندا ولا تبرح تحتفظ معها بعلاقات دبلوماسية ، فقد قلت :

« لقد كان من المفروض عليهم في سنة ١٩٤٠ وكان هذا في مصلحتهم ، أن يمشوا الى شمالي أفريقية ، حيث يستمرون على رأس الامبراطورية الفرنسية وكان في وسعهم الاحتفاظ في افريقية بمعاونتنا بقوة بحرية متفوقة وكان يمكنهم أن يحصلوا على اعتراف أمريكا وأن يستعملوا كل الذهب الذي كان مودعا لهم فيما وراء البحار . ولو عملوا هذا حينذاك ، لكان من المتوقع اخراج ايطاليا من الحرب قبل آخر سنة ١٩٤٠ ، ولكان في امكان فرنسا أن تأخذ مكانها في مجالس الحلفاء وفي مؤتمر الصلح بين المنتصرين . ولكن قادتهم العسكرية ضيعوهم . وحينما نهتهم الى أن بريطانيا ستحارب وحدها على الرغم من كل ما قد يعملونه قال ، قادتهم العسكريون لرئيس وزرائهم ولجلست وزرائهم المنشق على نفسه : « ستكسر رقبة انجلترا بعد ثلاثة أسابيع وكأنها دجاجة » ولكن أية دجاجة كسر رأسها وأية رقبة » .

كان هذا عجيبا ، ولا أرجع الى الماضي لا ترنم بالإغنية التي ألفها السير هاري لودر عن الحرب السابقة والتي يستهلها :

« لو نظرنا كلنا الى تاريخ الماضي

لاستطعنا أن نقرر في أي مكان نقف »

وكنت قد كتبت في صحائفي حين أشرت اليه هذه العبارة « ذلك الكاتب الساخر الكبير » وهنا واثني فكرة « الشاعر الموسيقار » وكانت فكرة عجيبة ولا شك في انه يسمعي وسيفرح بهذا التعبير ، وافرحني كثيرا انني لقيت الكلمة المناسبة حقا لهذا الشاعر الذي تمكن بأناشيده المستوحاة وحياته الباسلة أن يقدم مساعدات لا تحد ولا تقدر لشعبه الاسكتلندي والامبراطورية البريطانية .

وكان لي حظ في توقيت خطبتي في واشنطن وأتأوا ، فقد أتينا في ظرف كان في وسعنا كلنا أن نحتمي فيه باقامة الحلف الاكبر ، بكل ما عنده من توقعات القوة الرائعة ، وقبل أن ينحدر علينا ذلك الصخر المنضخم من الهلاك على أيدي الهجوم الياباني الذي أحكم أحكاما عجيبا منذ

وقت طويل . وبينما كنت أتكلم بلهجة الموقن المطمئن كنت أوشك أن أشعر بالسيطرة المحتلة تقترب - لتلهب أجسامنا العارية . وكان يلزمنا كلنا ، بريطانيا وهولنده ، وأمريكا . أن نؤدي جزية هائلة في المحيط الهندي والهادي ، وفي كل الجزر والشواطئ فأمامنا وقت غير محدود من الكوارث العسكرية - ويلزمنا أن نصبر شهورا طويلة نعاني فيها من الظلام والجهد والفشل ، قبل أن يبرغ علينا النور من جديد .

وحينما رجعت بالقطار الى واشنطن مساء رأس السنة طلب الى أن أذهب الى العربية المملوءة بكبار رجال الصحافة في أمريكا . ولم أكن غارقا في الخيال حينما وددت لهم عاما جديدا مجيدا وأنا أقول : « لنشرب نخب عام ١٩٤٢ ، عام الجهد والمشقة والنضال والخطر ، والسير البعيد في سبيل الفوز ، فليأخذ الله فيه بيدنا كلنا ، لنخرج منه بشرفنا وسلامتنا » .

الاتفاقات الإنجليزية الامريكية

كان أول مشروع قدمه الى الرئيس روزفلت عقب قسودمي من إنجلترا ، وضع بيان عظيم الشأن ، توقعه كل الدول التي تحارب ألمانيا وإيطاليا أو اليابان وقد راجعت مع الرئيس التعبيرات التي استخدمناها في صياغة ميثاق الاطلنطي وجهزنا مسودات البيان ، ثم أكملنا صياغته معا ، وقد كنا متفقين تماما من جهة المبدأ والشعور حتى في الاسلوب كذلك . وسرعان ما فوضت وزارة الحرب ، وتحيرت من السرعة التي عقدنا فيها الحلف الأكبر . ثم تبودلت الرسائل ، وأثيرت نقاط ومتاعب بشأن الحكومات والسلطات التي يلزم أن توقع هذا البيان ، وتسلسلها وقد تنازلنا عن طيب خاطر لأمریکا عن مكان الصدارة ، وحينما رجعت الى البيت الابيض من كندا ، كان كل شيء قد أعد لتوقيع ميثاق الامم المتحدة . وتبودلت البرقيات بين لندن وموسكو ، وكان كل شيء قد تقرر الآن . وقد أذاع الرئيس كل ما عنده من مجهود لاقتناع لتفینوف السفير الروسي الذي عاود الظهور بعد تغير الاحداث ، فتقبل عبارة « الحرية الدينية » وقد دعى لتناول الغذاء معنا في حجرة الرئيس خاصة لهذا الهدف . ولكن كان على هذا الشخص بعد مروره باختبارات متعبة في بلاده ، أن يكون يقظا كل اليقظة ، وجرى كلام طويل بينه وبين الرئيس عن الروح وعن عذاب جهنم . ولعل ما قرأه علينا الرئيس في مناسبات متعددة عن وصف لما جرى بينه وبين السفير الروسي كان مؤثرا حقا . وفي احدى هذه المناسبات وعدت الرئيس روزفلت بأنني سأوصي بتعيينه رئيسا لاساقفة كنتربري اذا فشل في انتخابات الرئاسة القادمة . لكنني على أية حال لم أقدم مثل هذه التوصية الى الملك أو مجلس الوزراء لأن الرئيس فاز في معركة الانتخابات في سنة ١٩٤٤ ، ونقل لتفینوف وهو يرتجف خوفا مشكلا « الحرية الدينية » الى ستالين فارتضاها كأمر واقع ، وأضافت وزارة الحرب البريطانية عبارة التكافل الاجتماعي . وقد وافقت عليها باعتباري واضع أول قانون ضد البطالة . وبعد اسبوع من تبادل البرقيات مع كل جهات العالم تم الاتفاق على «الحلف الأكبر» . وقد اقترح الرئيس تغيير اسم «الدول المتماسكة» باسم «الامم المتحدة» واقتنعت بجمال هذه التسمية ، وبسطة على صاحبى الابیات الشعرية التي أتت على لسان اللورد بيرون في قصيدته «شايلد هارولد» .

« هنا حيث سل سيف الامم المتحدة

كان مواطنونا يقاتلون في ذلك اليوم

وهذا عظيم ، لأن الامر لن يمضى رخاء »

وفي صباح الاول من يناير حمل الى الرئيس في مقعده المتحرك ،

وخرجت من الحمام ووافقت على المسودة . وليس في طاقة البيان وحده أن يربح المعارك ولكنه أبان من نحن ، ولماذا نقاتل ؟ ووقع روزفلت وأنا ولتفينوف وسونج ممثلا الصين هذه الوثيقة العظيمة في ساعة متأخرة من ذلك اليوم في مكتبة الرئيس وأوصيت وزارة الخارجية الأمريكية بجمع توقيعات الدول الاثنتين والعشرين الباقية ، وأرى أن نسجل هنا الصورة الأخيرة للوثيقة :

« بيان مشترك من أمريكا وبريطانيا العظمى وشمال أيرلنده ، واتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، والصين ، وأستراليا ، وبلجيكا ، وكندا ، وكوستاريكا ، وكوبا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وجمهورية الدومنيكان ، والسلفادور ، واليونان ، وجواتيمالا ، وهمايتي ، وهندوراس ، والهند ، ولكسمبورج ، وهولندا ، ونيوزيلنده ، ونيكاراجوا ، والنرويج ، وبناما ، وبولنده ، وجنوب افريقية ، ويوغوسلافيا ، وتعلن الحكومات الموقعة أدناه والمذكورة أعلاه .

إنها باشتراكها في برنامج موحد الاهداف والمبادئ التي احتواها البيان المشترك الصادر عن الرئيس الأمريكي ، ورئيس وزراء بريطانيا العظمى وشمال أيرلنده ، والمؤرخ في الرابع عشر من أغسطس سنة ١٩٤١ والمعروف بميثاق الاطلنطي ، ولاقتناعها بأن النصر الأخير ، على أعدائها ضروري للدفاع عن الحياة والحرية والاستقلال والحرية الدينية ، وصيانة حقوق الإنسان والعدالة في بلادها وفي غيرها من البلدان ، ولما ترتب على اشتراكها الآن في صراع مشترك ضد قوى الوحشية التي تريد أن تستعبد العالم ، تعلن :

(أولا) تتعهد كل حكومة باستغلال كل مواردها العسكرية والاقتصادية ضد أعضاء المحور الثلاثي ، والدول المنضمة إليه ، والتي تشتبك هذه الحكومة في حرب معها .

(ثانيا) تتعهد كل حكومة بالتعاون مع الدول الموقعة على هذه الوثيقة ، وبعدم عقد هدنة منفردة أو صلح منفرد مع العدو .

« تستطيع الدول الأخرى أن تنضم الى هذا البيان بشرط أن تكون هذه الدول مشاركة مشاركة مادية في النضال للتغلب على الهتلرية » .

قد يرى مؤرخو المستقبل ان أهم نتيجة واصل اليها مؤتمرنا الأول في واشنطن الذي أطلق عليه اسم « أركاديا » وأبقاها أثرا ، هي انشاء لجنة اشتهر اسمها بلجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة . وقد تقرر أن يكون مكانها في واشنطن .

ولما كان من الضروري وجود رؤساء أركان حرب بريطانيا على كتب من حكومتهم ، فقد رثي أن يمثلهم في واشنطن بعض كبار الضباط ويتخذوا من العاصمة الأمريكية مقرا لهم . وكان هؤلاء الممثلون يتصلون يوميا ، بل بين كل ساعة وأخرى ، بلندن ، وكان في طاقتهم أن يفحصوا عن آراء رؤساء أركان حرب بريطانيا ويجلوها لرفاقهم الأمريكيين ، حول أية مشكلة تتعلق بالحرب في كل وقت من أوقات النهار أو الليل . وقد

جمعت المؤتمرات المعروفة التي عقدت في أماكن مختلفة من العالم كإنداز البيضاء وواشنطن وكوبيك وطهران والقاهرة ومالطة والقرم ، بين الرؤساء أنفسهم أوقات تمتد أحيانا الى أسبوعين . وقد اجتمع خلال هذه المؤتمرات ما يقرب من تسع وثمانين جلسة من مجموع مائتي الجلسة الرسمية التي عقدتها لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة طوال الحرب . وفي هذه الجلسات اتخذت أغلب القرارات الهامة .

وكان الاجراء الطبيعي أن تجتمع كل لجنة من لجان رؤساء أركان الحرب للدولتين منفردة في الصباح . ثم يجتمع الفريقان خلال النهار ، ويكونان لجنة واحدة ، وقد يرجعان الى الاجتماع معا في المساء . ويبحث المجتمعون سير الحرب قاطبة . ويقدمون الى الرئيس والى توصيات متفقا عليها . وفي خلال ذلك استمرت اتصالاتنا المباشرة نحن الاثنين عادة بوساطة التليفون أو اللاسلكي ، وكنا نحن نتصل مباشرة بأركان حربنا . وفي جلسات تمهيدية كانت تبسح اقتراحات المستشارين المحترفين ، وعلى هدى ذلك تصدر الاوامر الى قادة الميدان . وأيا كان النزاع حاميا في وجهات النظر في لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة ، وأيا كان النقاش واضحا وحادا ، فإن الولاء الصادق للقضية المشتركة . كان ينتصر على المصالح الذاتية حتى القومية . وحينما تبلغ القرارات الى رئيسي الحكومتين ويوافقان عليها ، يمضى الجميع في تنفيذها بصديق مطلق وخاصة أولئك الذين كانت القرارات معارضة لوجهات نظرهم الاولى . ولم تفشل قط في الوصول الى اتفاق ايجابي للعمل . أو الى بحث توجيهات بينه الى القادة في كل ميدان . وكان كل قائد منفذ يعلم أن هذه التعليمات التي يتلقاها تحمل معها آراء الحكومتين المشتركة وتوجيه خبرائهما . ولم يقم قط جهاز حربى على كجهازنا بين أى من الحلفاء ، واني ليهجنى استمرار هذا الجهاز فعلا ان لم يكن صورة حتى يومنا هذا .

ولم يمثل الروس في لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة . لقد كانت جبهتهم قضية وحيدة مستقلة ، ولم تكن ثمة حاجة ولا طريق للانضمام الى أركان الحرب . وكان يكفي أن نعلم الاتجاه العام لحركاتهم وميقاتها ، وأن يعلموا هم اتجاه حركاتنا وميقاتها . ومن هذه الجهة حافظنا على أكبر قدر من الاتصال المتين بهم مثل ما سمحوا لنا به . وسأبحث في الطرف السائح في زيارتي الشخصية لموسكو وكان رؤساء أركان حرب الدول الثلاث ، يجتمعون حول مائدة واحدة في المؤتمرات المشتركة التي أقمناها في طهران وبوتسدام .

فيما سلف ذكرت أن الفيلد مارشال ديل ، بالرغم من أنه لم يعد رئيسا لأركان حرب الامبراطورية ، أتى معنا على متن البارجة « الدوق اوف يورك » وقد أدى المارشال دوره كاملا في كل المباحثات التي جرت على ظهر البارجة ، بعد اجتماعنا بالزعماء الامريكيين . وفي سرعة تبينت أنه يتبوا منزلة بارزة في رأيهم ويؤثر عليهم تأثيرا كبيرا ، ولم يسبق أن نال أى ضابط بريطاني أرسلناه عبر الاطلنطي خلال الحرب مثل هذا التقدير وتلك الثقة من ناحية الامريكيين ، وقد تمكن من أن يحظى

بشخصيته وقوة ادراكه وحذقه ، ثقة الرئيس روزفلت وتمكن في الوقت نفسه من انشاء رفقة خالصة ، وصحبة شخصية مع الجنرال مارسال .

وصدر الأمر بالتوسع الهائل في حقل الانتاج . وكان بيفربروك في كل ذلك دافعا قويا . ويشهد تاريخ أمريكا الرسمى عن التخطيط الصناعى للحرب . على هذه الحقيقة شهادة كريمة . وقد وضع دونالد نيلسون المدير التنفيذى للانتاج الحربى الأمريكى خططا رائعة . وهنا يتحدث التاريخ الأمريكى « ولكن الافتقار الى الاقدام كان أمرا أوحى به اللورد بيفربروك الى نيلسون بصورة مسرحية ، ولعل الصورة التى رسمها نيلسون نفسه أحسن وصف للحقيقة التى وقعت .

أثبت اللورد بيفر بروت الحقيقة القائمة بأنه يلزمنا أن ننظر فى برامج انتاجنا الى أقصى من مدى سنة ١٩٤٢ لنستطيع مواجهة عدو عنيد ، جم الموارد وأوما الى أننا ما برحنا نحتاج الى التجارب بالنسبة الى ما طرا من خسائر فى المواد فى حرب من النوع الذى نخوضه الآن ، وكانت الفكرة التى يوحى بها اللورد بيفربروك الى لنيلسون ، ينشرها فى الوقت نفسه فى رأس الرئيس . وفى مذكرة قدمها اللورد بيفربروك الى الرئيس وضع الأرقام المحتملة لانتاج سنة ١٩٤٢ فى أمريكا وبريطانيا وكندا ، بالنسبة الى ما تفتقر اليه بريطانيا وروسيا وأمريكا . وقد أبانت المقارنة عجزا كبيرا فى برنامج الانتاج المقترح لسنة ١٩٤٢ وكان العجز فى الدبابات (١٠ر٥٠٠) وفى الطائرات (٢٦ر٧٣١) وفى المدافع (٢٢ر٦٠٠) وفى البنادق (مليون وستمائة ألف) وكتب اللورد بيفربروك أن أرقام الأغراض الانتاجية يتحتم زيادتها . وركز اعتقاده فى تنفيذها على « امكانيات الصناعة الأمريكية الرائعة ، وكانت النتيجة تفوق عدد من الأغراض الانتاجية فى ضخامتها على ما اقترحه نيلسون من أرقام ، وقد سلم الرئيس بوجوب التوسع الكلى فى مضامين قوتنا الصناعية . . وأصدر توجيهه بضرورة تنفيذ برنامج يدعو الى انتاج خمس وأربعين ألف طائرة مقاتلة وخمس وأربعين ألف دبابة وعشرين ألف مدفع مضاد للطائرات وأربعة عشر ألف وتسعمائة مدفع مضاد للدبابات ونصف المليون مدفع رشاش سنة ١٩٤٢ .

وفى آخر سنة ١٩٤٣ تحققت هذه الأرقام ، وتفوق بعضها . ففى الملاحه مثلا شيدت أمريكا فى سنة ١٩٤٢ بواخر حملتها (٥ر٣٣٩٠٠٠) طن فى حين شيدت فى سنة ١٩٤٣ ما حملتها (١٢ر٣٨٤٠٠٠) طن .

ودفع تركيز الفكر المستمر على الحرب ككل ، ومشاوراتى المتواصلة مع الرئيس ومسح كبار مستشاريه ومستشارى ، وخطبتى فى واشنطن وأوتاوا - ورحلتى الى كندا ، وتدفق العمل المتواصل الذى يستدعى سرعة البت ، وكثرة البرقيات المتبادلة مع رفاقى فى الوطن ، الى أن أصبح الوقت الذى أمضيته فى واشنطن ليس مجهدا فقط بل منهكا كذلك . وتراءى لأصحابى الأمريكين اننى أبدا مجهدا وأنه يلزمنى أن أستجم ، ووضع المستر ستيتينيوس دار يملكها فى مكان بعيد على الساحل بالقرب من «بالم بيتش» تحت تصرفى ، وفى الرابع من يناير طرت الى هناك .

ولقيت الوقت الكافى لعلاج بعض القضايا الصعبة التى أدركتني هناك .
وقد سبق لى أن فسرت الطوربيد البشرى الايطالى والغارة التى شنّها على
الاسكندرية والتى عطلت «الملكة اليزابيث» و «فاليانت» وقد أتت هذه
الكارثة بعد كل الخسائر البحرية التى أصبنا بها فى هذه الفترة ، مقلقة
للهيأة وفى ظرف غير مناسب وان وقفت على خطورتها فورا . وغدا
أسطول البحر المتوسط فى الظرف الحالى غير موجود ، كما غدت طاقتنا
البحرية للدفاع عن مصر ضد الغزو البحرى المباشر محفوفة بالخطر .
وظهر لى أن من المحتم فى مثل هذه الحالة العارضة أن نرسل الى مصر
ما يتوافر عندنا فى سواحل انجلترا الجنوبية من الطائرات وقاذفات
الطوربيد . وقد كانت نهاية هذا العمل وبيلة .

واقلفنى جدا ما حملة المستر ايدن حين رجوعه من موسكو من
تقارير عن مطامع الروس الاقليمية وخاصة فى دول البلطيق . وكان
بطرس الأكبر قد استولى على هذه الدول التى بقيت تحت حكم القيصرية
أكثر من مائتى عام . وغدت هذه الدول منذ الثورة الروسية حصن أوروبا
الأممى فى وجه البلشفية . وهى من الصنف الذى يسمى الآن
« بالديمقراطيات الاشتراكية » ولكنها تنبض بالحيوية وسوء الخلق ،
وقد رمى بها هتلر أمام الروس فى بداية الحرب ، كالطعم ، فحدثت فيها
عمليات تطهير شيوعية وروسية شديدة ، وتمت تصفية كل من فيها من
عناصر وشخصيات ظاهرة . وانتقلت حياة هذه الشعوب القسوية الى
الأعمال البوليسية . وفى سرعة قام هتلر كما سترى بعملية تطهير نازية
مقابلة . وعاد الروس الى الهيمنة عليها فى النهاية حين الفوز الأخير .

وهكذا مضى الصراع الفتاك باستونيا ولاتفيا وليتوانيا غدوا ورواحا
ولا يوجد أدنى ريب على أى حال فى أين يكون الحق ، فالدول البلطيقية
يتحتم أن تكون مستقلة . وصاحبة سيادة .

وفى ليلة التاسع من يناير عدت بالقطار الى واشنطن وبلغت البيت
الأبيض فى الحادى عشر منه ، وهناك لقيت لجنة رؤساء أركان الحرب
المشتركة قد حققت فوزا عظيما فى أعمالها . وأتى ما حققته مؤتلفا مع
آرائى . وفى الثانى عشر من يناير دعا الرئيس الى اجتماع عام ، وتم
الاتفاق على الأسس العريضة للحزب وأغراضها ، واقتصر الاختلاف على
التأكيد والتفضيل . وقد سيطر عليها عامل باغ جبار هو الملاحه .
ويتحدث السجل البريطانى ركز الرئيس جهوده الجلييلة على ترتيب
حملة أمريكية بريطانية مشتركة توجه الى شمال افريقية . وتم وضع
برنامج لاعداد حملة قوامها تسعون ألف أمريكى وتسعون ألف بريطانى
تؤيدهم قوة من الطائرات فى حملة الى شمال افريقية . وبالنسبة الى
الاستراتيجية الكبرى اتفق رؤساء الأركان على ألا ينقل من مسرح
العمليات ضد ألمانيا الا أقل ما يستطاع من القوات اللازمة للدفاع عن
المصالح الهامة فى مسارح الحرب الأخرى . وكان الجنرال مارشال له
الفضل الأكبر فى الوصول الى هذا القرار الرئيسى .

وفى الرابع عشر من يناير استأذنت من الرئيس ووزفلت فى السفر
وأظهر لى ما يساوره من مخاوف حول الرحلة ، فقد علم العالم كله منذ عشرة

أيام بوجدنا في واشنطن ، وأبرزت الخرائط وجود أكثر من عشرين غواصة معادية في سبيل رجوعنا الى الوطن . وفي جو جميل طرنا من نورفولك الى برمودا ، حيث كانت الدوق أوف يورك ومدمرات الحراسة ترتقبننا على شواطئها المرجانية . وطرت في سفينة طائرة كبيرة من طراز بوينج ، خففت أثرا عميقا في نفسي . وفي خلال الرحلة التي استوعبت ثلاث ساعات أصبحت صاحبا للطيار كيلي روجرز الذي ظهر لي رجلا قوى الشخصية كثير الحنكة ، وتقلدت القيادة بعض الوقت لاختبر هذه الآلة الضخمة التي تزن ثلاثين طنا وأكثر ؛ وانتي ترتفع في الجو وأصبحت أكثر تعلقا بهذه السفينة الطائرة . وسألت القائد : مارأيك في طيراننا من برمودا الى انجلترا ؟ وظهر لي شيء من الشجاعة خلف مظهرة الوداع وقال : « في طاقتنا طبعاً أن نفعل ذلك . ان قراءة حالة الجو الحالية توميء الى أن سرعة سير الريح معنا أربعون ميلا في الساعة . وفي طاقتنا أن نتم الرحلة في عشرين ساعة وسألته عن المسافة فقال : انها ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل تقريبا . وهنا بدأت أفكر .

وحيثما نزلنا ، درست الموضوع مع بورتال وباوند . فثمة أحداث كبيرة تحدث في الملايو ، ويجب أن نرجع في أسرع وقت مستطاع وقال رئيس أركان حرب الطيران فوراً : ليس ثمة ما يدعو الى هذه المجازفة كلها وأنه لا يمكنه أن يتحمل مسئوليتها . وعضد لورد البحر الاول رأى رفيقه . فثمة « الدوق أوف يورك » بمدمراتها الحارسة وبما فيها من أمن واستجمام ، تترقبنا وقلت : « ولكن ما رأيكما في الغواصات التي أومانا اليها » فأوما الاميرال باحتقار مما يشير الى حقيقة رأيه في هذا الخطر بالنسبة الى بارجة سريعة محروسة خير حراسة . وتراءى لي أن القائدين يوقنان أني سأطير وحدي وأدعهما يرجعان في البارجة ولهذا قلت « سيكون المكان بالطبع فسيحا لنا كلنا » وهنا تبدل وجهاهما . وبعد تفكير قصير قال بورتال : ان القضية خليقة بالبحث وأنه سيبحث الموضوع تفصيلا مع قائد السفينة الطائرة . وسيدرس حالة الجو مع سلطات الارصاد الجوية . وعند هذا الحد تركت الموضوع .

وبعد ساعتين رجع القائدان ، وقال بورتال : انه يوقن أن في وسعنا بأن نقوم بالرحلة ففي امكان الطائرة أن تقوم بها في اوقات مناسبة . ويظهر أن حالة الجو سائحة تماما ، بمساعدة الريح . ولا مرية في أن من المهم الاسراع في الوصول الى أرض الوطن . وقال باوند : انه كون لنفسه فكرة جميلة عن الطائرة وقائدها الذي يظهر له متمتعا بحنكة لا تبارى . ولا شك أن ثمة مغامرة ، ولكن في الرحلة البحرية مغامرة كذلك لوجود الغواصات . وهكذا قررنا السفر بالطائرة الا اذا ساء الجو . وتقرر أن نشرع في الرحلة في الثانية بعد ظهر يوم غد . ورثي أن من اللازم تخفيف المتاع الذي نحمله ، والاكتفاء ببعض صناديق من الاوراق اللازمة التي لا غنى عنها ، وقد تقرر أن يظل « دبل » في واشنطن كممثل عسكري شخصي لي لدى الرئيس . ولهذا انحصر فريقنا في باوند وبورتال ، وماكس بيفربروك وششارل موران وهوليس أما الباكون فسيعودون في « الدوق أوف يورك »

وفى ساعة مبكرة من صباح الغد صحت دون وعنى ، وقد هيمنى على اعتقاد بأنه يجب ألا أرقد . ويتحتم أن أقر بأننى أحسست بشيء من الرعب وتخيلت هذه المسافات الواسعة من الماء وأننا سنبعد عن البر بمقدار ألف ميل حتى نقترب من الجزر البريطانية ، وتراءى لى اننى اقتربت عملا طائشا وأنا وضعتنا عددا أكثر من اللازم من البيض فى سلة واحدة . وكنت أرنو إلى رحلة جوية عبر الاطلنطى بعين الخوف . ولكن السهم قد نفذ . ومع ذلك فأننى أعترف بأنهم لو قدموا الى عند الفطور أو قبل الغداء ، وأخبرونى أن الجو تبدل وأنه يلزمنا السفر بالبحر فأننى كنت أوافق قطعا على المضى فى السفينة الرائعة التى قطعت كل هذه المسافات البعيدة لنقلنا . وكان الامر كما ترقب قائد الطائرة وهو ان المشقة فى الارتفاع فوق الماء ، وفكرت فى أن يلزمنا أن ندفع التلال المنخفضة التى تقفل سبيل الميناء ، ولم يكن ثمة خطر فعلا . فقد كنا فى أيد أمينة وطارت الطائرة الجبارة على علو ربع ميل فوق الجرف ، وكان قد انما مسافة أخرى يمكننا توفيرها فى العلو . وليس هناك ريب فيما يحس به المسافر من راحة فى هذه السفن الطائرة . وسارت الحركة بسهولة ، وقضى على التردد فى يسر ، وأمضينا فترة بعد الظهر فى حال رائعة ، ثم تناولنا عشاء مرحا . وتتكون هذه الطائرات من طبقتين ، ويصعد الشخص سلما ليصل الى حجرة القيادة ، وحل الظلام ، وكانت كل التقادير طيبة ؛ فقد كنا نظير على علو سبعة آلاف قدم تقريبا بين ضباب كثيف . وكان فى طاقتنا أن نرى الطرق الامامى للاجنحة وقد تابعت فوقها الشرارات النارية من تفريغ الزيت المحترق . وفى هذه الطائرات أنبوبة كبيرة من المطاط تتمدد وتنكمش أحيانا لمنع التجمد . وقد أوضح لى قائد الطائرة طريقة عمل هذا الجهاز ، وكنت أبصر من حين الى آخر الجليد وهو يتحلل وذهبت الى النوم حيث نمت نوما عميقا عدة ساعات وتنهت قبل الفجر ، وذهبت فورا الى حجرة انقيادة ، وبدأ نور النهار ينداح شيئا فشيئا ؛ وأبصرت من تحتنا أرضا غير خالية من السحب ، وبعد أن أمضيت ساعة تقريبا وأنا قاعد فى مقعد مساعد الطيار ، شعرت بأحاساس من الانزعاج حولنا ، وكان مفروضا أننا ندنو من انجلترا من الجنوب الغربى ، وكان مفروضا أن تكون قد عبرنا جزر شيلي ؛ ولكننا لم نتمكن من مشاهدتها خلال الفتحات التى بين السحب ، ولما كنا قد طرنا أكثر من عشر ساعات فى سحب كثيف لا نبصر فيه غير نجم واحد فمن المتوقع أن تكون قد ملنا عن سبيلنا . وكانت الاتصالات اللاسلكية مرتبطة طبعاً بقواعد الحرب العادية . وبأن من المناقشات الجارية أننا لم نكن نعلم أين نحن بالضبط . وفورا تكلم بورتال الذى كان يشرح الوضع لقائد الطائرة وقال لى : سنتجه فورا الى الشمال وفعلا تم هذا ، وبعد نصف ساعة تقريبا خرجنا من السحب لنبصر انجلترا أمامنا وفى سرعة بلغنا سماء بلايموث ، حيث نزلنا بعد أن تفادينا المناطق المنيرة ، بهدوء وراحة .

وحينما غادرت الطائرة قال لى قائدها : لم أحس قط يا سيدي بالراحة فى حياتى كما أحسست بها وأنا أنزل بك فى الميناء بسلام

ولم أدرك أهمية ملاحظته حينئذ ولكنني عرفت فيما بعد أننا لو استمررنا في السير خمس دقائق أو ستا أخرى قبل اتجاهنا شمالا ، لصرنا فوق بطاريات الالمان المضادة في بريست . فقد ملنا أكثر من اللازم جهة الجنوب خلال الليل . الأدهى من هذا أن التعديل المضبوط الذي تم في سيرنا قد بلغ بنا انجلترا لا من الجهة الجنوبية الغربية التي كانوا يتربصون قدومنا منها بل من الجهة الجنوبية الشرقية التي تجيء منها طائرات العدو عادة ، وقد أسفر هذا عن وصول الخبر بأن طائرتنا هي قاذفة قنابل معادية آتية من بريست ، وصدر الأمر الى ست طائرات هاريكين من القيادة المحاربة بأن توقعنا . ولكنها لم تفلح في إيقاعنا . وأرسلت برقية الى الرئيس روزفلت أقول « لقد وصلنا من برمودا الى هنا بوثبة واحدة تدفعنا ربح مواتية سرعتها ثلاثون ميلا . »

سقوط سنغافورة

كان من المرتقب أن ألقى خطاباً مطولاً في البرلمان عن مهمتي في واشنطن ، وعن كل ما حدث في الأسابيع الخمسة التي أمضيته بعيداً عن الوطن ، وحضرت في ذاكرتي حقيقتان ، الأولى : أن الحلف الأبر سيكسب الحرب في النهاية وأن يكن على مدى بعيد . والآخرى أن سلسلة غير محدودة وغير محصورة من الكوارث ترتقبنا في هجوم اليابان الساحق وكان في طاقة كل شخص أن يشعر شعور الاطمئنان بأن حياتنا كشعب وكامبراطورية ، لم تعد في خطر . ولكن الاحساس بانتهاء خطر الحرب من الجهة الأخرى ، قد دفع كل ناقد حسن النية أو سيئها ، إلى التخلص من الأيمان إلى ما اقترف من أخطار جمة . وإلى جانب هذا شعر كثيرون بأن واجبهم يدعوهم إلى تحسين طرقنا في إدارة دفة الحرب . وباختصار مداها . وقد قلقت أشد القلق من الهزائم التي نزلت بنا . ولم يكن أحد يدري أكثر مني أن هذه الهزائم ليست إلا أول الطوفان ، ودفع تصرف الحكومة الاسترالية ، وانتقادات الصحف الواسعة الانتشار غير المتحيزة وطعن ما يقرب من عشرين أو ثلاثين نائباً من أكثر النواب كفاية دائماً ، والمناورات البرلمانية إلى وجود احساس من الضيق والقلق في نفس متخيلاً وجود رأى عام شقي غافل ، يتظاهر ضد مرتفعاً من كل صوب .

ولكنني كنت من الجهة الأخرى واثقاً من صلابة موقفى ، فقد كنت أستطيع أن أعتمد على حسن نية الشعب فيما قيمت به من مشاركة في المحافظة على بقائه في سنة ١٩٤٠ . ولم أبخس من قوة الصفاء العميق الفسيح الذي يزج بى إلى الامام . وقد أظهرت لى وزارة الحرب ورؤساء الأركان كل مظاهر الطاعة والاخلاص . وكنت واثقاً من نفسى . وقد أبنت لمن حولى اننى حين تحتم الضرورة لأقبل النقص أى شئ من سلطتى أو مسئوليتى . وكانت الصحافة مفعمة بالاقتراحات التي تقول باستمرارى رئيساً للوزارة ألقى الخطب في البرلمان على أن أنزل عن الاشراف الفعلي على توجيه دفة الحرب لآخرين . وأصررت على ألا أنزل عن شئ لاية ناحية وان أحمل شخصاً المسئولية الذاتية الرئيسية المباشرة ، وان أطلب الاقتراع على الثقة بى في مجلس العموم . وتذكرت القسول الف، نسي المأثور :

« الصنمت أفضل طريق للهيمنة على النفوس »

وكان من الواجب أن أحذر المجلس والبلاد من الكوارث المحتملة . وليس هناك خطأ في القيسادة العامة أفحش من التلويح بآمال كاذبة سرعان ما تنهدم ففي امكان الشعب البريطانى أن يقابل الاخطار والمحن

يجلد وأناة ونشاط ولكنه يأبى بمرارة أن يختل . أو أن يدع هؤلاء المسئولين عن أموره يحيون في جنبه انهمقى ، واحسست بأن من الواجب لا بالنسبة الى مركزى فقط بل الى اتجاه الحرب قاطبة ، أن يخفف من كوارث الغد بتوضيح الوضع الحالى فى أكثر التعبيرات سوادا وظلاما . وكان من المستطاع أن ينجز هذا فى هذه المرحلة من غير أن يؤثر على الموقف العسكرى أو يقلل من الايمان والنصر الاخير الذى يعمر الآن كل قلب . وعلى الرغم مما كنا نطالع به كل يوم يشرق علينا من الهزات والمتاعب فأننى لم أسف على الاكثنى عشرة ساعة أو الاربع عشرة ساعة التى تستغرق فى تدبيج خطاب من عشرة آلاف كلمة . يتناول جهات متعددة وبينما كانت السنة النار من حرب الصحراء غير المواتية تلسع قدمى ، استطعت أن أجهز خطابى وتقديرى للموقف كله .

وقد انهارت آمالى فى نصر يقضى به على رومل قبل أن أودع البيت الابيض فلم تكن النتائج التى حققتها انتصارات أو كتلك فى سيسى رزق والغزاة جاسمة ، ودفع عودة نشاط قوة العدو الجوية فى البحر المتوسط فى شهرى ديسمبر ويناير . واختفاء هيمنتنا الى حد ما على البحر عدة أشهر . الى حرمان أوكنلك من ثمار الفوز الذى كافح كثيرا لتحقيقه والذى ترقبه طويلا . وكان التفاؤل الذى حالف رسم خططنا لعملية انزال جيش انجليزى أمريكى فى افريقية الشمالية الفرنسية قد تلاشى اذ أرجئت هذه العملية ، كما هو معروف عدة أشهر .

ومن الصعب أن ينزل بنا الآن ما هو أسوأ . ويحول طول الشقة بينى وبين الاحاطة الكاملة بالكارثة العسكرية التى حلت بنا للمرة الثانية فى هذه الناحية نفسها ، وبعد سنة من محنتنا الاولى ، والتى نتب لها أن تدمر الحملة البريطانية كلها فى الصحراء سنة ١٩٤٢ ويلفى أن أذكر انه فى الحادى والعشرين من يناير قام رومل بهجوم استكشافى قوى من مواقعه فى العقيلة ، نهض به ثلاث فرق تتكون الواحدة منها من ألف من المشاة المنقولين بالسيارات تؤيدهم الدبابات وفى سرعة شقت هذه الفرق سبيلها مجتازة الفجوات الموجودة بين قواتنا الامامية التى تحتاج الى المدرعات فصدر اليها الامر بأن تتراجع . ورجع رومل فبرهن من جديد على تفوقه فى الحروب الصحراوية . اذ استطاع بوساطة التفوق على قادتنا فى اصابة الراى ان يسترد الجزء الاكبر من برقة . وتم الانسحاب مسافة ثلثمائة ميل ، مما أجهز على كل آمالنا « وأفقدنا بنغازى » ، وكل المخازن التى كان الجنرال أوكنلك يجهزها للهجوم الذى يأمل أن يقوم به فى منتصف شهر فبراير وارجع الجنرال ريتش كل قواته المدمرة فى المنطقة المجاورة للغزاة وطبرق . وظلت عمليات المطاردة والهجمات المضادة هنا حتى آخر مايو ، حينما استطاع رومل أن يسدد ضربته من جديد .

وفى السابع والعشرين من يناير بدأت المناقشة فى مجلس العموم ، وكان فى وسعى أن ألح روح انشقاق تهيمن على المجلس ، اذ أثرت اعتراضات متفرقة على أسس متعددة لا تمت بصلة الى مستلزمات الساعة وقد كنت طلبت تسجيل خطابى ليتمكن اذاعته على الامبراطورية وأمريكا

ولهذا فقد سحبت طلبتي مع ان مثله لا يرفضه اي برلمان آخر في العالم
وهكذا اقدمت على الخطابة في مثل هذا الطقس .

وبسطة على الاعضاء وصفا لمعركة الصحراء ، ولكن المجلس لم
يتمكن من تقدير الاهمية التي تحتوى عليها حركة رومل المضادة الناجحة
لان المجلس كان على جهل بالخطط العريضة التي كنا نجهزها للبدء في هجوم
بريطاني سريع يدفع الى الاستيلاء على طرابلس . وظهرت خسارة بنغازي
وأجدابية التي نشرت ، جزءا من عمليات الجزر والمباغثة في حرب
الصحراء . والى جانب هذا عدم توافر المعلومات الدقيقة لدى عما وقع ،
وكيف وقع .

وانتقلت في سرعة الى الموضوع الاكبر ، وهو موضوع مانشكو منه
من عراء في الشرق الاقصى فقلت :

ولم تمض مدة ولن تمضي ، كان في وسع بريطانيا العظمى
وحدها . أو الامبراطورية البريطانية وحدها أن تحارب ألمانيا وإيطاليا ،
وأن تقتحم معارك بريطانيا والاطلنطي والشرق الأوسط . وأن تكون
متأهية في الوقت نفسه في بورما وشبه جزيرة الملايو والشرق الأقصى
قاطبة ، لمواجهة ضغط امبراطورية عسكرية قوية كاليابان ، تملك ما لا يقل
عن سبعين فرقة متحركة ، وثالث أسطول في العالم ، وقوة جوية كبيرة .
وزحفا يقوم به ما يقرب من ثمانين الى تسعين مليوناً من الآسيويين
المحاربين القساة . ولو شرعنا في توزيع قواتنا على هذه الاماكن الواسعة
من الشرق الاقصى . لأدركنا الهلاك . ولو نقلنا جيوشنا هائلة نفتقر إليها
أشد الافتقار في جبهات القتال الى اماكن لم تنشب الحرب فيها بعد ،
وربما لا تنشب أبدا ، فأننا نكون مخطئين جدا ، ونكون قد رمينا
بالفرصة ، التي غدت الآن أكثر من مجرد فرصة ، لنجاتنا كلنا من الحالة
الرهيبية التي غرقنا فيها .

« وكنا قد اتخذنا قرارا لنشارك في معونة روسيا ولنحاول
الانتصار على رومل . ولنكون جبهة أقوى تمتد من الشرق الأدنى الى
بحر قزوين . ودفع هذا القرار الى انه ليس في طاقتنا الا أن نرسل
بعض قوات معتدلة الى الشرق الاقصى لمقابلة خطر الهجوم الياباني
المحتوم . وقد جمعنا فعلا ما يقرب من ستين ألف رجل في سنغافورة ،
ولكننا منحنا وادي النيل الأولوية في الطائرات الحديثة والندبابات
والمدافع المضادة للطائرات .

وأضيت ما يقرب من ساعتين ألقى على المجلس حملا فوق قدرته .
وقد ارتضى المجلس كل ما قلته له من غير حماسة ، ولكن وجد عندي
انطباع بأن المجلس قد آمن بما قلته . ونظرا لما كنت أترقبه من أمور
سيئة . رأيت اختتام كلامي بوضع الأمور في مكانها الصحيح مهما يكن
سيئا ، وبعدم التقدم بأي وعود من غير أن أحرم الاعضاء لذة الامل .

وظلت المناقشة ثلاثة أيام . ولكن لهجة الاعضاء فيما يختص بي
بثائت ودبة ولم يتم عندي أقل ريب فيما سيفعله المجلس ، ودافع أعضاء

وزارة الحرب وفي مقدمتهم المستر اتلي عن قضية الحكومة بشجاعة
وجرأة ، وكان على أن أنهى المناقشة في التاسع والعشرين . وخفت في
هذه الفترة الا يحدث اقتراع على الثقة وأرادت بوسيلة الاستشارة أن أدفع
ناقدينا الى الاقتراع ضدنا من غير أن أسوء الى المجلس الذي ظهر كله الآن
مؤتلفا معنا . ولكن لم يكن فيما رددته ما يخص الشخصيات التي كانت
مناهضة لنا من المحافظين والعمال والاحرار على الاقتراع ضدنا . وحين
دار الاقتراع على الثقة صوت ضدنا نواب ثلاثة من حزب العمال المستقل
وكان صوتان منهم يؤخذان طبعاً للتزكية ، ولهذا كانت النتيجة أربعاً
وأربعة وستين ضد صوت واحد . وقد شكرت لجيمس ماكستون زعيم
الاقلية سيره بالموضوع الى الامام . وكانت الصحافة قد أحدثت جلبة
كبيرة الى حد أدى الى انصباب برقيات التهنية على من كل نواحي العالم
الحليف . وكان أكثر هذه البرقيات حرارة من حلفائنا الامريكيين في
البيت الابيض . وكنت قد أرسلت الى الرئيس روزفلت أهنته بعيد ميلاده
الستين . فأبرق الى يقول « لعل مما يضحك اننى معك في السنة نفسها »
أما الصحفيون الذين يزداد نقيقتهم فلم يكفوا ولم يمتنعوا عن نقيقتهم .
وفي سرعة استدأروا بما عرف عن الغربان من خفة في الحركة يقولون :
هل كان من الواجب طرح الثقة بالوزارة ؟ فمن الذي يقدم على التفكير في
أن يسقط حكومة قومية ؟ . . لكن هذه الاصوات العاوية كما كنت
أسميها ، لم تكن الا نذر الكارثة الغربية غير المتوقعة .

وقررت استحالة التحقيق بوساطة لجنة ملكية في العلل والظروف
التي أحدثت بسقوط سنغافورة وما فتئت الحرب جارية . فليس في
امكاننا أن نستغنى عن الرجال أو عن القوى الكامنة .

وقد ارتضى البرلمان هذه النظرية ، ولكنني رأيت اتمام هذا التحقيق
عقب انتهاء الحرب انصافاً لكل الضباط والجنود . لكن هذا التحقيق لم
يتم على ايدي الحكومة القائمة . فقد مضت السنون وفنى الكثيرون من
الشهود . ولعلنا سنعجز أبداً عن اصدار حكم قاطع ، على أفدح نازية
وأكبر استسلام في التاريخ البريطاني ، عن طريق محكمة لها صلاحية .
ولن أبغى في هذه الصفحات وضع نفسي مكان محكمة كهذه ، أو اصدار
حكم على سير الاشخاص . وفي موضع آخر سجلت الحقائق كما ايقنتها .
وعلى القارئ ان يؤلف من هذه الحقائق ومن الوثائق التي سجلت في ذلك
الظرف الفكرة التي يشاؤها .

ومما هو خليق بالاستقصاء على الاقل ، هو اليس من الافضل تركيز
قوانا على الدفاع عن جزيرة سنغافورة . ومجاولتنا صد الهجوم الياباني
المنحدر من شبه جزيرة الملايو بقوات متنقلة خفيفة . وقد قبلت ماقررة
القادة في المنطقة من اقتحام معركة سنغافورة في جوهور ، مع محاولة
اعاقه العدو عن بلوغها الى أبعد حد مستطاع . ويكون الدفاع عن
البر الماليزي من انسحاب دائم ، مع شن حرب عصابات في المؤخرة .

وكانت كل الميزات في جانب العدو ، فقد مسح قبل الحرب مسحا

دقيقا. طبيعة الأرض ودرس الاحوال فيها . وجهاز خططا في غاية الاحكام
كما أرسل مندوبين سرين يتسللون الى المنطقة . واشتملت التجهيزات
على مجموعات كبيرة من احتياطي الدراجات ليستعملها راكبو الدراجات
اليابانيون ، وجمع العدو قوات فائقة واحتياطا كبيرا . لم يفتقر الى بعضه
في المعركة . وكانت كل الفرق اليابانية قد تدربت على حرب الادغال ،
الى جانب سيطرة اليابان في الجو ، وهو ما أوضحته ، والذي يبدو منه
افتقارنا الشديد الى الطائرات في أماكن أخرى ، عاملا فتاكا آخر ، لاصلة
لقادتنا هناك به وليسوا مسئولين عنه . وهكذا فان القوة الأساسية
المحاربة للجيش الذي أوصيناه بالدفاع عن سنغافورة ، وكل الامدادات
التي أرسلناها بعد اعلان اليابان الحرب ، استغلت في القتال الياسل
الذي جرى في شبه الجزيرة ، وحينما اجتاز هؤلاء الممر المائي الى المكان
الذي كان يتحتم ان تجرى فيه معركتهم الأساسية ، كانت قوتهم قد
نفقت . وهنا انحازوا الى الحامية المحلية ، والى جماهير المدافعين عن القاعدة
الذين ضاعفوا عددها من غير ان يزيدوا شيئا في قوتنا .

وهكذا تبدد الجيش الذي كان في وسعه أن يقتحم معركة سنغافورة
الحاسمة والذي جهز لهذا الغرض الرئيسي في هذا المسرح ، قبل بدء
الهجوم الياباني وقد يكون عدد رجاله مائة ألف رجل ، ولكنه لا يعتبر
جيشا مطلقا .

وبدا الآن أن الجنرال « ويفل » الذي غدا قائدا أعلى للحلفاء في هذه
المناطق الشرقية كان يرتاب في استطاعتنا أن ندافع طويلا عن سنغافورة ،
وكنتم أستاذنا الى مقاومة الجزيرة والقلعة لحصار ياباني طويل يستدعي
انزال المدافع الثقيلة ونقلها واقامتها . وقبل ان أتترك واشنطن كنت
اترقب ان تمتد المقاومة شهرين على الأقل . وكنتم اتوقع « بشيء من
التشاؤم » استنزاف قوى جيشنا خلال ثقهقره في شبه جزيرة الملايو ،
من غير أن أعمل عملا قاطعا للتدخل ، وكان ثمة من الجهة الاخرى عامل
كسب الوقت .

وفي السادس عشر من يناير أبرق « ويفل » اليينا يقول :

« كانت كل الخطط حتى زمن قريب تقوم على صد الهجمات الموجهة
من البحر الى سنغافورة ، والمقاومة على ارض جوهور ، أو في الشمال
منها ولم نعمل شيئا لتكوين خطوط الدفاع من الناحية الشمالية من
الجزيرة لمنع العدو من اجتياز مضيق جوهور ، مع أن الخطط رسمت
لنسف طريق الجسر . وتصلح مدافع القلعة الثقيلة العيار لاطلاق النار
في كل اتجاه ، ولكن اتجاه سير المقذوفات يجعلها غير صالحة لمقاومة
الاسلحة المضادة للمدفعية . وليس في طاقتنا فعلا ان نكفل الهيمنة على
مدفعية العدو أن فرض الحصار عليها » .

وشعرت بحيرة ممزوجة بالالام حينما قرأت هذه الرسالة صباح
التاسع عشر من الشهر . اذن ليس هناك حصون دفاعية مستمرة تدافع
عن الجزيرة من جهة البر ، وعن المدينة والقاعدة البحرية . والى جانب

هذا ، وهو ما اذهلني لم يتم واحد من القادة منذ قيام الحرب ، وحتى منذ ثبت اليابانيون أقدامهم في الهند الصينية بإقامة حصون دفاعية ميدانية تستحق الذكر . ولم يتم أحد من هؤلاء القادة حتى بمجرد التنبيه بأن مثل هذه الحصون غير قائمة فعلا .

وقد تأكد لدى ، بفضل ما شهدت من الحرب وقرأت عنها ، وخاصة بالنسبة الى قوة النار الحديثة ، اعتقاد راسخ بأن عدة أسابيع تكفى لإيجاد دفاع ميدان قوى ، واحاطة جبهة العدو وحصرها بحقول الألغام وغيرها من الموانع . ولكن لم يدرك بيالى قط أنه ليس هناك دائرة من الحصون المتفرعة ذات الطبيعة الدائمة ، تقوم بالدفاع عن مؤخرة القلعة المشهورة . ولم يكن فى طاقتى أن أدرك مطلقا كيف حدث هذا . ولكن يظهر أنه لم يفهم هذه الضرورة المهمة أحد القادة فى المنطقة او من خبرائى المهنيين فى الوطن ، واذا كان احدهم قد فهمها ، فإنه على الاقل لم يوصى بأهميتها لي ، حتى اولئك الذين اطلعوا على برقياتى المركزة على الاحتمال المخطئ بضرورة انتاهب لحصار طويل متسق . وكنت قد قرأت عن معركة بليفنا فى سنة ١٨٧٧ ولم تكن المدافع الرشاشة قد عرفت بعد ، فقد اخترع الاتراك طرقا حديثة فى الوسائل الدفاعية لمقاومة خطر الهجوم الروسى ، وبحثت كذلك معركة فردان فى سنة ١٩١٧ ، حيث استطاع جيش ميدان يجثم فى قلاع محصنة موزعة أن يسجل فوزا باهرا على جيش مهاجم . وقد ركزت اعتقادى على اجبار العدو على استعمال مدفعية على مدى واسع لدق مراكزنا الحصينة فى سنغافورة ، ومن المشتات المثبطة ، وانتخلف الطويل الذى سيعوق تركيز مثل هذه القوة المدفعية وجمع الذخيرة الضرورية لها عبر المواصلات المالىزية ، وها هى ذى كل أحلامى تنحرف بغته ، فابصر أمامى المنظر المريع . منظر الجزيرة العارية والجنود المتعبين ان لم نقل المنهوكين ، ينسحبون اليها .

انا لا أكتب هذا دفاعا عن نفسى . لقد كان من واجبى أن أعلم . ولقد كان من واجب مستشارى ان يعلموا ، وان يخبرونى بالحقيقة ، وكان على انا ان أسألهم . ولعل السبب فى عدم سؤالى هذا السؤال الوحيد بين آلاف الأسئلة ، التى كنت أوجهها ، اننى لم أتخيل أن سنغافورة ليس لديها وسائل دفاعية ضد البر ، كما لم أتخيل مطلقا نزول بارجة الى البحر من غير أن يكون لها عمق ، وقد اطلعت على كل الاسباب التى قدمت لتسويغ هذا العيب المكشوف ، ومنها اشتغال القوات فى التدريب ، وانشاء الخطوط الدفاعية فى شمال الملايو ، وقلة الايدى العاملة من المدنيين ، ورواسب ما قبل الحرب ؛ واشراف وزارة الحرب المركزى ، والقول بأن دور الجيش كان الدفاع عن القاعدة البحرية الموجودة على الساحل الشمالى من الجزيرة ، ولهذا فان واجبه أن يقاتل أمام الساحل لاعليه ، وأنا لا أعد كل هذه المسوغات صحيحة ؛ سليمة ؛ لقد كان من الضرورى ان تنشأ الخطوط الدفاعية .

وكان أول رد فعل على ما حدث اعتزامى اصلاح هذا الاهمال بقدر ما يستمع عامل الوقت ، ولكنى حينما استيقظت صباح الحادى والعشرين

من الشهر ، - وجدت هذه البرقية المتشائمة التالية من الجنرال ويفل ،
تأخذ مكان الصدارة فوق أوراقى :

« عاد الآن الضابط الذى أرسلته الى سنغافورة لتجهيز خطط الدفاع
عن الجزيرة . تتخذ الآن التأهب للدفاع عن الجزء الشمالى من الجزيرة .
ويفتقر الدفاع عنها الى قوات معادلة ان لم تكن متفوقة فى العدد على القوات
الضرورية للدفاع عن جوهور ، أمرت برسيغال (القائد العام) بأن يقتحم
المعركة فى جوهور ، وان يرسم الخطط لمقاومة عن الجزيرة الى ابعاد
غاية مستطاعة اذا خسرنا معركة جوهور . ولكن يلزمنى أن أذكرك بصعوبة
المحافظة على الجزيرة طويلا اذا أسقطت جوهور . فمدافع القلعة مقامة
للدفاع عنها من جهة البحر ، وذخيرتها من الصنف الذى ينفع
لهذه الغاية فقط . ولا يمكن أكثر هذه المدافع اطلاق نيرانه الا جهة
البحر . وقد أرسل بعض الحامية الى جوهور ، وأرتاب فى القيمة الحربية
لمن تبقى منها . آسف لمنحك صورة معتمدة ، ولكننى لا أشاء أن أمنحك
صورة خاطئة عن قلعة الجزيرة لقد أنشئت حصون سنغافورة للدفاع عنها
من جهة البحر ، وما فتئت أرجو أن تقاوم جوهور حتى تصل القافلة
القادمة ، »

واستمرت أفكر فى هذه الرسالة وقتا طويلا . فكل ما ركزت عليه
رجائى حتى الآن . هو اجبار دفاع الجزيرة ، بقلعتها ومدينتها على المقاومة ،
وكان هذا هو الموقف الذى يتحتم أن نحافظ عليه ، الى أن يحدث تغيير فى
سياستنا هناك . أما الآن فقد أخذت أفكر أكثر وأكثر فى بورما ، وفى
هذه المساعدات التى تسير الآن فى سبيلها الى سنغافورة فمال هذه
المساعدات الى التحطيم أو الى التحول . وما فتئت الفرصة سانحة لتتجه
انقوافل شمالا الى رانجون . ولهذا فقد جهزت المذكرة التالية لرؤساء
أركان الحرب ، وناولتها للجنرال ايسماى فى الظرف المناسب ليقدمها
اليهم حين يجتمعون فى الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة من صباح
الحادى والعشرين . وائنى لأقر مع ذلك بأن عقلى لم يقرر شيئا . واتجهت
الى أصحابى ومستشارى ، ولكننا كلنا كنا نقاسى الآن الحالة نفسها :

نظرا لهذه البرقية السيئة التى وصلتنا من الجنرال ويفل ، أرى انه
يجب علينا أن نبحث الموقف كله فى اجتماع تعقده الليلة لجنة الدفاع .

لقد اقترفنا الخطأ الذى كنت أخاف أن نقترفه . فقد انقسمت
القوات التى كان يمكنها انشاء جبهة حصينة فى جوهور ، أو على الاقل
على حاجز سنغافورة المائى أقساما صغيرة . ولم يبق أى خط دفاعى على
الجزيرة جهة البر . ولم يبق الاسطول باقاة خطوط دفاعية تجاه حركات
التطويق العادية من الساحل الغربى من شبه الجزيرة . وقد أبان الجنرال
ويشل أن الدفاع عن سنغافورة يستدعى قوات أكثر من تلك التى تتطلبها
النصر فى معركة جوهور . وقد انتهت معركة جوهور تقريبا بالخسارة .

ولا تومى رسالته بالامل فى دفاع مديد . ومن الجلى ان مثل هذا

الدفاع سيكون المساعدات التي هي في الطريق الآن . وإذا كان الجنرال . ويفل يرتاب في القدرة على المقاومة عدة أسابيع أخرى ، فإن السؤال الذي يثار الآن هو : أليس من الاحسن أن تنسف الارصفة وبطاريات المدفعية والمصانع ونسحب من سنغافورة ، ونركز كل شيء على الدفاع عن بورما ، وعلى ابقاء سبيل بورما مفتوحا .

أومن بأن هذا الموضوع يتحتم أن يقابل على هذا النحو مقابلة صريحة وأن يبسط بهذه الصورة على الجنرال ويفل . وما قيمة سنغافورة عند العدو بالنسبة الى بقية الموانئ في جنوب غرب الباسفيك ، اذا قمنا بعمل التخريبات البحرية والعسكرية بشكل دقيق ؟ -

وستكون خسارة بورما من الجهة الاخرى ضربة كاسرة انها ستفصلنا عن الصين . التي برهن جندھا حتى الآن على انهم اكفى من غيرهم في قتال اليابانيين . وقد نخسر كلا من سنغافورة وسبيل بورما حين تضطرب الامور ونتردد في اتخاذ قرار حازم مهما يكن كريها . وكل شيء يتوقف طبعاً على الغاية التي سيستطاع فيها الاحتفاظ بالدفاع عن الجزيرة ، واذا كان هذا الدفاع سيقصر على عدة أسابيع ، فأننى أرى أنه ليس جديراً بأن نضيع عليه كل معوناتنا وطائراتنا .

ويلزم الانسان مع ذلك أن يدرك أن سقوط سنغافورة مع سقوط كوريجييدور سيهز الهند هزة قوية ، لا ينجيها منها الا قوات كبيرة تصل الى جبهة بورما وتقوم بعمل مظفر فيها .

« أمل أن تبحثوا كل هذه النقاط ، في هذا الصباح »

ولم يتوصل رؤساء أركان الحرب الى نتيجة قاطعة ، وحينما اجتمعت لجنة الدفاع في المساء ، هيمن علينا تردد متشابه نحو الاقدام على اتخاذ مثل هذه الخطوة الحاسمة . واستمرت المسئولية المباشرة الاولى متوقفة على الجنرال ويفل باعتباره القائد الاعلى للحلفاء . وقد وجدت شخصياً أن القضية صعبة الى حد بالغ ، حتى اننى لم ألح في ضرورة تنفيذ خطتي الحديثة ، وهو ما كنت أفعله قطعاً لو كنت قد خزمت أمرى . ولم يكن في طاقة أحد منا أن يترقب تدهور الدفاع وهو ما حدث فعلاً في ثلاثة أسابيع . على أى وضع كان في امكاننا أن نمضى يوماً أو يومين آخرين في تدبر أكثر .

ولم يشهد السير ايرل بيج ممثل استراليا طبعاً اجتماع رؤساء أركان الحرب ، كما اننى لم أدعه لحضور اجتماع لجنة الدفاع . بيد أنه حصل بطريق أو بآخر على نسخة من المذكرة التي أرسلتها الى رؤساء أركان الحرب . وقد أبرق الى حكومته في الحال . وفي الرابع والعشرين من يناير تلقينا رسالة من المستر كيرتن رئيس وزراء أستراليا أقتطف منها الفقرات التالية :

حمل الينا بيج أن لجنة الدفاع تبحث الآن توقع الجلاء عن الملايو وسنغافورة . وفي طاقتى أن أجزم بأنه فيما يختص بالتأكييدات السالفة

التي تلقيناها منكم سيعتبر الجلاء عن سنغافورة هنا وفي مواطن أخرى غدرا ليس في الوسع التساهل فيه على الإطلاق . . . لقد أدركنا ان سنغافورة ستكون قلعة لا يستطيع الوصول اليها ، وهي على أي وضع تستطيع أن تصمد وقتا طويلا الى أن يصل الاسطول الرئيسي .

ومن المفروض حتى لو وقع طارئ ، توجيه المساعدات الى جزر الهند الهولندية لا الى بورما . . . وقد يسبب أي عمل مخالف غضبا ونقمة وقد يؤدي بالهند الهولندية الى عقد صلح منفرد وقد أدينا دورنا في الصفقة بكل اخلاص وأمانة تحقيقا لوعودنا ببعت سبيل لا ينقطع من المساعدات . ونحن نرجو ألا تقضوا على الهدف كله بهذا الجلاء .

ويلزمنا أن نجد المبرر الكافي لهذه الحال النفسية التي وجدت أستراليا نفسها فيها بسبب الفاعلية المربعة لجهاز الحرب الياباني . فقد زالت قيادة المحيط الهادي ، وكان في مصر ثلاث من أحسن فرق الاستراليين العسكرية وكانت الرابعة في سنغافورة . وقد فهموا أن سنغافورة يهددها خطر عاجل وخشوا أن تغزي أستراليا نفسها فعلا وتسقط كل مدنها الكبرى التي تشمل أكثر من نصف سكان القارة على شاطئ المحيط . وبدعوا الآن يقابلون توقع هجرة جماعة الى الداخل ، وترتيب حرب عصابات من غير أن تكون عندهم مخازن أو مؤن كافية ، ومعاونة الوطن الأب . قضية غير متوقعة ، وليس في الوسع أرجاع فرض القوة الامريكية في المياه الاسترالية الا بعد وقت وبشكل تدريجي . ولم اعتقد أن اليابانيين سيغزون أستراليا بعد أن يقطعوا ثلاثة آلاف ميل من مياه المحيطات ، في الطرف الذي تكون فيه في متناول أيديهم فريسة سهلة في جزر الهند الهولندية . والملايو . بيد أن الحكومة الاسترالية كانت تنظر الى الموضوع من ناحية مختلفة ، وكانت ثمة عوامل كثيرة تضغط عليها . واستمرت - الخلافات الحزبية في أستراليا قائمة حتى بشأن هذه المشكلات الشائكة المعقدة . ولم تتجاوز أكثرية الحكومة العمالية في البرلمان عضوين . وكانت الحكومة تعارض مشروع الخدمة الاجبارية حتى للدفاع الداخلي . ولم تنشأ في البلاد حكومة قومية مع أن المعارضة قد مثلت في مجلس الحرب .

ومع ذلك كانت برقية المستر كيرتن خطيرة ، غير مألوفة . فاستخدام عبارة « الغدر الذي لا يستطيع التساهل فيه » لم يكن متفقا مع الحقيقة أو مع الوقائع العسكرية . فثمة كارثة مرعبة تدنو منا شيئا فشيئا . فهل في طاقتنا أن نتفادها ؟ وكيف يقوم ميزان المكاسب والخسائر ؟ وحتى هذا الحين كان تقسيم المهمة لا يزال تحت اشرافنا . ولم يكن في طاقة لجنة الحرب الاسترالية أن تقدر الموقف كله . والا ماحض كيرتن على ضرورة ترك بورما ، وهي التي أثبتت الوقائع أنها المكان الوحيد الذي لدينا وسائل نجدته .

وليس من العدل أن يقال أن رسالة المستر كيرتن هي التي قررت القضية . ولو اتفقنا كلنا على السياسة التي يتحتم الاتفاق عليها كما اقترحت لكان في وسعنا أن نتقدم الى ويفل بقرارنا الذي اتفقنا عليه . ولكنني رأيت شيئا من التشدد في الرأي في معارضة ترك هذا الموقع الهام

المشهور في الشرق الأقصى . وكان من العسير أن يتخيل الانسان ما يمكن أن يظهر من أثر لمثل هذا « القرار » البريطاني في كل جهات العالم وخاصة في أمريكا ، في الطرف الذي يحارب الأمريكيون فيه بعناد واصرار في «لوريبيدور» . ولم يكن ثمة ريب مطلقا في طبيعة القرار الذي كان من المفروض أن يتخذ على هدى الاعتبارات العسكرية المجردة . وهكذا تقرر باتفاق الجميع أن تبذل كل الالتماسات لتعزيز سنغافورة وتقوية دفاعها . وذهبت الفرقة البريطانية الثامنة عشرة ، التي أنزل جزء منها . تتم انزالها .

وعلى أية حال كان وزن هذه المساعدات وغيرها ، أقل مما توميء به أعدادها فقد كانت تفتقر الى بعض الوقت لتجهيزها من جهة تكتيكية ، ولكن كان واجبها أن تلقى بنفسها في أتون المعركة الفاشلة عقب نزولها . وتركزت على طائراتنا المحاربة من طراز « الهاريكين » التي أرسلنا أعدادا منها الى الميدان ، آمال كبيرة . لأن في وسع هذه الطائرات من جهة كيفها أن تكون ندا للطائرات اليابانية . وقد جمعت بسرعة فائقة ، وألقي بها من الجو . واستطاعت في الايام الاولى أن تنزل أضرارا جسيمة . ولكن غرابة الاوضاع العامة على من وصل من الطيارين حديثا ، وكثرة عدد اليابانيين ، جعلنا خسائرنا باهظة . وبدأت قوتنا الجوية تضعف بسرعة . وكانت عند اليابانيين خمس فرق تامة . وبدأ جنودهم ينزلون الى الساحل بطريقة مذهلة ، وفي السابع والعشرين من يناير قرر الجنرال برسينال الانسحاب الى جزيرة سنغافورة بسرعة ، وكان لا بد أن يمر كل رجل وكل سيارة بطريق الجسر في المرحلة الاخيرة ، وقد خسرنا الجزء الأكبر من لواء واحد في المراحل الاولى ، ولكن أكثر القوات مرت بالجزيرة في صباح الحادي والثلاثين من يناير مجتازة طريق الجسر الذي قامت قواتنا بنفسه . ولم نكن في الوطن نعلق آمالا كاذبة على توقع امتداد الدفاع ولكن السؤال الوحيد الذي كان يدور في أذهاننا هو الى متى سيتمتد الدفاع ؟ ولم تكن المدافع الكبيرة في التحصينات الدفاعية التي يمكنها أن تطلق نيرانها جهة الشمال ، لها جدوى وفائدة عظيمة ، لذخيرتها المحدودة ، وانطلاقها تجاه أرض تكسوها الأدغال ، ويجمع فيها العدو قواته . ولم يبق في الجزيرة غير سرب واحد من الطائرات المحاربة ، وليس بها الا مطار واحد يصلح للاستعمال . وقد أثرت الخسائر والضياع في خفض عدد أفراد الحامية من مائة وستة آلاف كما قدرتهم وزارة الحرب الى ما يقرب من خمسة وثمانين ألفا منهم رجال الوحدات الادارية والجنود غير المقاتلين . وكان ما يقرب من سبعين ألفا من هؤلاء مسلحين ولم يتفق اعداد أجهزة الميدان الدفاعية والمواقع ، بالرغم مما بذل فيها من جهود محلية ضخمة ، مع ضرورتها الملحة التي بدت الآن . ولم تكن ثمة خطوط دفاعية راسخة على الجبهة المتصدية الآن للهجوم . وقد وهنت روح الجيش المعنوية بسبب تقهقر الجيش الممتد ، والقتال المرهق في شبه الجزيرة . وخلف الجميع تقويم مدينة سنغافورة التي كانت تضم حينئذ ما لا يقل عن مليون شخص يمثلون عدة جنسيات من بينهم جمع زاخر من اللاجئين .

وفي صباح الثامن من فبراير ذكرت الدوريات أن العدو يجمع قوات كبيرة في الحقول الواقعة شمال غربي الجزيرة . وتصدت مراكزنا لقصف

المدفعية الشديد . وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين مساءً بدأت طلائع موجات الهجوم تجتاز مضيق جوهور في قوارب انزال مدرعة ، أتى بها نتيجة تخطيط طويل دقيق ، الى مواقع الهجوم بطريق البر . وجرى قتال وحشي . وأغرقت بعض قطع الانزال ، ولكن قوات استراليا البرية كانت ضعيفة واستطاعت فرق من العدو أن تنزل في عدة أماكن . وفي الليلة التالية حدث هجوم جديد مشابه حول طريق الجسر . ونجح العدو من جديد في ايجاد مكان له . وامتاز الحادي عشر من فبراير بقتال مضطرب على امتداد الجبهة كلها . وكان طريق الجسر قد دمر من الجهة المقابلة للعدو ، وأمكن اصلاحه بسرعة بعد تراجع قوات تغطيتنا وتقدم الحرس الامبراطوري الياباني على امتداد الجسر تلك الليلة . وفي الثالث عشر من فبراير نفذت الحطة المعدة لاجلاء ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص معروفين عن طريق البحر الى جزيرة جاوه وأكثرهم من القادة المهمين وضباط الاركان والمرضات وآخرين تعد خدماتهم لازمة لمواصلة الحرب .

وقد بلغت الاوضاع في الجزيرة الآن درجة مخيفة ، فقد توقف العمل الاداري وتدهور ، وأصبح خطر توقف مشروع المياه مائلا ، وقل ما عند الجنود من احتياطي المؤن والذخيرة ، بسبب وقوع بعض المستودعات في قبضة العدو ، وشرع في تنفيذ برنامج التدمير المنظم على قدم وساق ، وحطمت مدافع التحصينات الدفاعية الراسخة وكل مدافع الميدان والمدافع المضادة للطائرات ، والاجهزة وأحرقت الوثائق السرية أيضا ، وفجرت كل مخازن الوقود ومستودعات قنابل الطائرات وحدث بعض الاضطراب من جراء عمليات التدمير في القاعدة البحرية . ولكن الاوامر صدرت فأغرق الحوض العائم . وحطمت الطلمبات وروافع البواخر . ولكن معظم تفاصيل خطة التحطيم لم ينفذ بدقة .

وفي الرابع عشر من فبراير أرسل ويقل الى الرسالة التالية التي ظهرت لي أخيرا وقاطعه :

« تناولت رسالة من بيرسيفال تقول ان العدو دنا من المدينة وأن قواته لم تعد تستطيع شن أية هجمات مضادة . أمرته بالاستمرار في انزال أقصى ما يستطيع من الاضرار بالعدو وبالقتال في المنازل والشوارع اذا اقتضى الامر . لكنني أخاف على أي حال ألا تمتد المقاومة » .

وعسى القارئ يذكر الآن المذكرة التي أرسلتها الى رؤساء أركان الحرب في الحادي والعشرين من يناير حول ترك الدفاع عن سنغافورة وتوجيه المساعدات الى بورما . وكيف أنني لم أتمسك بهذه النقطة . وحينما تصلبت أفئدتنا جميعا حول قرارنا بالدفاع عن سنغافورة ، كان الأمل الوحيد في الفوز وفي كسب الزمن ، وهو كل ما كان في طاقتنا أن نأمل ، أن تصدر الاوامر القاطعة بالسير في القتال اليائس حتى النهاية . وقد ارتضى الجنرال ويقل هذه الاوامر واحتضنها وضغط على الجنرال بيرسيفال لتنفيذها . ومن الصواب أبدا ألا يعلم القائد في الميدان بما يجري من ريب في ذروة الجهاز المشرف على ادارة الحرب ، وأن يتلقى توجيهاته سهلة وجلية . أما الآن وقد بان لي أن كل شيء قد انتهى في سنغافورة

فقد رأيت أن من الخطأ مواصلة مذبحه لا داعي لها ، وليس عندنا أمل في الظفر ، باجبار المدينة الشاسعة على اقتحام أهوال معركة شوارع ، يذهب ضحيتها السكان الخائفون والقانونيون والذين هيمن عليهم الذعر . وأخبرت الجنرال بروك رأيي فلقيته متفقاً معي ، على ألا نفرض ضغطاً من ناحيتنا على الجنرال ويفل وأن نمكنه من إصدار القرار الذي لا مناص منه ، والذي نتقاسم فيه المسؤولية .

وفي يوم الأحد الخامس عشر من فبراير عام ١٩٤٢ حل وقت الاستسلام وليس ثمة في الجزيرة من احتياطي الغذاء للعسكريين أكثر من مقدار يكفي عدة أيام ، كما نفذت عتاد المدافع ولم يبق وقود للسيارات . والأدهى من هذا كله أن تموين الماء لم يكف أكثر من أربع وعشرين ساعة أخرى . ونصح كبار ضباط الحامية قائدهم الجنرال برسيغال ، بأن الاستسلام هو الطريق الوحيد لأن القوات المجاهدة لم يعد في طاقتها أن تقوم بهجوم مضاد وقرر برسيغال الاستسلام وطلب اليابانيون أن يكون مجرداً بلا قيد أو شرط ، فقبل طلبهم . وفي الثامنة والنصف مساءً توقفت العمليات الحربية .

جنة الغواصات

بالرغم مما حدث من تعديل فى حكومتى ، لم يتأثر مركزى طوال هذه المدة من الاضطراب السياسى ، والتغيرات فى الوطن ، والكوارث فى الخارج ، وكانت المشكلات التى تحدث من ساعة الى أخرى تشغلنى كثيرا ، حتى انه لم يكن عندى وقت كاف للتفكير فيها . وبان أن سلطاتى الشخصية قد قواها ما حام حول بعض رفاقى الوزراء أو الأشخاص الذين يصحبونهم ، من ريب ، ولم أقاس من الرغبة فى التخلي عن بعض مسئولياتى . وكان ما أرغب فيه هو الموافقة على ما أريده بعد نقاش معقول . وقد قربت الكوارث بينى وبين رؤساء أركان الحرب ، وقد شعرت كل دوائر الحكومة بهذه الوحدة . ولم تكن هناك همسات عن دسائس أو شقاق فى وزارة الحرب ، أو فى صفوف مجلس الوزراء الأكبر حجما ، ومع ذلك كان ثمة ضغط متواصل من الخارج لتغيير أساليبى فى توجيه دفة الحرب . للحصول على نتائج أفضل من النتائج الحالية . وكانت النظرية المسيطرة تقول . كلنا مع رئيس الوزراء ، ولكنه مجهد بالعمل ، ويجب أن نرفع عن عاتقه بعض الأثقال . وكانت ثمة نظريات أخرى . لكننى كنت مصرا أصرا تاما على الاحتفاظ بكل سلطاتى فى توجيه دفة الحسب . ولا يستطيع تحقيق هذا الا بالجمع بين منصبى رئيس الوزراء ووزارة الدفاع ، وفى العادة تكون المشقة والجهد فى الانتصار على المعارضة وتسوية الآراء المتعارضة والمتضاربة ، لا فى اصدار القرارات نفسها ، ومن المهم جدا أن يكون ثم فى القمة عقل واحد يهيمن على كل الميادين . ويعالج بصدق وتصوب أخطاؤه باخلاص . بشرط ألا يكون هذا العقل مقسما . ولن اظل طبعاً فى منصب رئاسة الوزارة ساعة واحدة اذا حرمت منصب وزارة الدفاع . وكان ادراك الجميع لهذه الحقيقة سببا فى ابعاد أى تحدى لى . حتى فى أشد الأوقات وأقساها . وهكذا تدهورت أكثر الاقتراحات الصادرة عن نية حسنة ، أو المتضمنة انشاء لجان أو أجهزة عامة . ويلزمنى أن أسجل هنا شكرى العميق لكل هؤلاء الذين أعانونى على التغلب على هذه المشقة .

وكتب علينا أن توافينا سنة ١٩٤٢ برجات فى غاية القسوة . وفى الأشهر الستة الأولى منها ، تعثرت الأمور تعثرا مخيفا ، وكانت معركة الأطلنطى أقسى الجبهات - فقد زاد أسطول الغواصات الى ما يقرب من مائتين وخمسين غواصة . وكان فى طابقة الأميرال دونتس أن يبلغ الفوهرر أن مائة منها على الأقل تعمل مع خمس عشرة غواصة أخرى تخرج الى عرض البحر كل شهر . وبدأت هذه الغواصات تشق المياه الأمريكية متحدية أية رقابة أو هيمنة . ووصلت خسائر شهر يناير الى أحسنى وثلاثين باخرة . حملتها مائتا ألف طن ، غرقت على كثر من الساحلين الأمريكى والكندى . وامتد الهجوم بسرعة جنوبا الى هامبتون

رودز وراسي هايتراس ومن ثمة الى ساحل فلوريدا . وقد حدث هجوم على الممر المائي الكبير في ظرف كانت البواخر الامريكية والحليفة ليس فيها سلاح للمقاومة . وعلى امتداد هذا السبيل يسير أسطول ناقلات البترول الثمين سيرا متواصلا من موانئ النفط الى فنزويلا وخليج المكسيك ثم اليها . وقد وجدت الغواصات لها هنا في البحر الكاريبي فرائس ثمينة من الناقلات .

وهوجمت بواخر الدول المحايدة دون تمييز ، واتسعت دائرة المذبحة أسبوعا بعد أسبوع . وفي شهر فبراير حطمت الغواصات إحدى وسبعين باخرة حمولتها (٣٨٤) ألف طن في الاطلنطي ، غرقت كلها ماعدا باخرتين في المنطقة الامريكية وكان هذا أقصى رقم قياسي فيما تحملناه من خسائر حتى الآن ، ولكن هذا الرقم تحطم بسرعة أيضا .

وقد تم كل هذا التحطيم الذي بز كل ما عرفناه في هذه الحرب ، وان لم يبلغ أرقام النوازل التي منينا بها في أسوأ أيام سنة ١٩١٧ على أيدي مالا يربو على اثنتي عشرة أو خمس عشرة غواصة تعمل في المنطقة في وقت واحد . واستمرت الحماية التي يقدمها الاسطول الامريكي بضعة أشهر ، غير كافية بصورة تدعو الى اليأس . ومن المحير أنه إبان عامين من دنو الحرب الجماعية من القارة الامريكية لم تتخذ وسائل وقائية أكبر ضد هذا السلاح الفتاك . وكانت أمريكا قد قدمت لنا كل شيء بمقتضى سياسة الرئيس القائلة بتقديم كل معونة الى بريطانيا ماعدا - الحرب . وكنا قد نلنا خمسين مدمرة أمريكية قديمة وعشر بواخر من مكافحات التهريب ، مقابل القواعد النفيسة في جزر الهند الغربية . ولكن هاهي ذي حليفتنا تفتقد هذه القطع الآن . فقد أخذ المحيط الهادي بعد معركة ميناء الدر يضغط بشدة على أسطول أمريكا ، ومن العجيب حقاً أنهم بالرغم من كل ما حصلوا عليه من بيانات عن اجراءاتنا الدفاعية خوضهم الصراع وبعده ، لم يضعوا خططا للقوافل الساحلية أو حراسة سفنهم الصغيرة الكثيرة . ولم يطوروا سلاحهم الجوي الدفاعي الساحلي كذلك . ولم يجتز السلاح الجوي الأمريكي الذي يشرف على كل الطائرات الحربية العاملة في قواعد ساحلية ، أي تمرين على حرب مكافحة الغواصات في حين كان الأسطول وهو المعد بالطائرات العائمة والطائرات البرمائية، يحتاج الى الوسائل لمكافحة هذه الغواصات . وليس ممكنا في هذه الأشهر الصعبة ايجاد جهاز دفاعي أمريكي فعال ، الا بخفي عسيرة تتوقف بين وقت وآخر .

ولو دفع الألمان ببوارجهم العائمة الضخمة في معركة الاطلنطي في هذه المرحلة لكانت خسائرنا أثقل وأضخم ، ولكن هتلر كانت تهيمن عليه الفكرة التي تقول اننا ننوي غزو شمال النرويج في وقت مبكر وهكذا ضحي بفرصة وضاعة تصميمنا منه على خطته التي تستهدف القتال في جبهة واحدة في آن واحد ، اذ جمع كل ما استطاع من قطع بحرية ومن غواصات نفيسة في المياه النرويجية . وكان يقول : أن النرويج هي مكان الغدر في هذه الحرب . وبالطبع كانت النرويج مهمة للغاية ولكن فرصة الألمان كانت في الاطلنطي اذ ذاك . وإراد أمراء البحرية أن

يستدرجوه الى شن هجوم بحرى ، ولـسـكن فـوهـرهم استمر جامدا كالصخرة ، وقد فوت ندرة الوقود قراره الاستراتيجى وقد أرسل فى شهر يناير بارجته الوحيدة « تيربيتز » وهى أقوى بارجة فى العالم ، الى تروند هايم ، وفى الثانى عشر قرر أن يستدعى الى موانئ الوطن الطرادين ، البترجتين شارنهورست وجنتزناو اللذين أجهز عليهما بالحصار فى بريست منذ سنة تقريبا . وقد دفع هذا الى حادث سبب كثيرا من التوتر والثورة فى انجلترا مما استدعى البيان والتوضيح .

كان مامينا به من خسائر بالغة فى البحر المتوسط ، والشلل المؤقت الذى أحرق بأسطولنا الشرقى كله ، من الدوافع التى أجبرتنا على أن نرسل كل ما لدينا من الطائرات حاملات الطوربيد الى مصر للدفاع عنها ضد ما يتوقع من غزو بحرى . ولكننا اتخذنا فى الوقت نفسه كل التاهيات المستطاعة لمراقبة بريست ومهاجمة أية محاولة للخروج قد تقوم بها البارجتان بالقنابل وبالطوربيدات فى الجو والبحر . وبشنا الألغام على امتداد الطريق الذى يتوقع مرور البارجتين به مجتازة بحر المانش والساحل الهولندى . وارتقت الأيرالية أن تجرى المحاولة لاجتياز مضائق دوفر فى الليل ، ولكن الأيرال الألمانى فضل استغلال الظلام لتفادى دورياتنا حين تركه بريست ، والمخاطرة بالمرور أمام مدافع دوفر فى وضح النهار وهكذا أبحر من تريست فى الحادى عشر من فبراير قبيل منتصف الليل . وكان صباح الثانى عشر كثيف الضباب . وحينما أبصرت بارجتنا العدو ، عجز رادار طائرات دورياتنا عن تحديد موقعهما ، وعجز رادارنا الساحلى أيضا عن هذا التحديد . وتراءى لنا حينئذ أن الأمر ناتج عن حادث طارئ بسبب سوء الحظ . ولكننا عرفنا بعد انتهاء الحرب أن الجنرال مارتينى رئيس الرادار الألمانى قد وضع خطة متقنة وكانت التأثيرات الألمانية المضادة على أجهزتنا حتى هذا الوقت غير مفيدة . ولكنها تضاعفت بفضل ادخال أجهزة حديثة . ولكن خوفا من إثارة شبهات قواتنا الجوية شرعت هذه الأجهزة فى عملها بصورة تدريجية ، بحيث لا تبدو التأثيرات المضادة بصورة جلية الا يوما بعد آخر ولهذا لم يرتب عمال اللاسلكى لدينا فى أى شئ ، ولم تخالط الريب أى انسان فى وجود شئ غير عادى . ولكن التأثيرات المضادة كانت يوم الثانى عشر قوية ، لدرجة أضحت معه أجهزة الرقابة الرادارية غير مفيدة . ولم تتلق الأيرالية الأخبار الا فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين وقد وصلت البارجتان مع القوات الحارسة لها جوا وبحرا . الى مدى عشرين ميلا من بولون . وقذفت مدافع دوفر بعد الظهر نيرانها الحامية ، وقامت خمسة زوارق من قاذفات الطوربيد فورا بهجوم فى البحر ومن قاعدة مانستون فى « كنت » قامت ست طائرات من حاملات الطوربيد بقيادة الكوماندور ايزموند بهجوم دون ارتقاب ، معاونة عشر طائرات من قاذفات اللهب كانت فى سبيلها لمعاونتها . وهاجمت مقاتلات العدو طائراتنا بقوة ولكن هذه استطاعت أن ترمى طوربيداتها بعد أن منيت بخسائر شديدة ، فقد خسرت الطائرات الست . ولم ينج غير خمسة من رجالها . ومنح ايزموند وسام صليب فكتوريا بعد وفاته .

واستمرت موجات متتالية من القاذفات وحاملات الطوربيد تهاجم العدو حتى نزول الظلام . وكان ثمة قتال شديد مضطرب مع المقاتلات الألمانية منينا خلاله بخسائر شديدة تفوق خسائر العدو ، وذلك لتفوقه في العدد علينا . وحينما دنت بارجتا العدو من الساحل الهولندي في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر هاجمتها خمس مدمرات قامت من قاعدة « هارويش » وأطلقت عليها الطوربيدات من مسافة ثلاثة آلاف ياردة تحت ضغط نيران مرعبة . وذهب السرب الألماني دون أن يصاب من نيران البطاريات الساحلية أو من الطوربيدات ، وفي صباح الثالث عشر وصلت كل قطعة سالمة الى أرض الوطن . وقد حيرت هذه الاخبار الرأي العام البريطاني الذي لم يمكنه أن يفهم ما قرأه « الا على أساس أنه برهان على سيادة ألمانيا على بحر المانش » . وفي سرعة استبان جهاز مخابراتنا السرية ، أن البارجتين ، الطرادتين شارنهورست وجينزناو قد أصيبتا بالغامنا التي ألقيناها من الجو ، وقد مضت ستة أشهر قبل أن يتمكن جينزناو من استئنافه العمل ، أما شارنهورست فلم يرجع قسط الى الظهور في البحر ، ولكننا لم يمكننا اذاعة ذلك . واستمر غضب الشعب مهيمنا وقويا .

ورغبة منا في محو الريب قررنا عمل تحقيق رسمي قام بنشر ما سردته من حقائق واذا تطلعنا الى الحقائق على هدى ما تبيناه فيما بعد وعلى هدى الجهات العامة . فان سير القصة كان لمصلحتنا تماما . وأبرق الرئيس يقول : وحينما أتحدث الى الشعب في الاذاعة مساء الاثنين القادم . سأؤمىء الى أولئك الناس الذين يتكلمون عن قصة القنصة الانجليزية وكأنها هزيمة . وأنا أكثر يقينا الآن بأن حصر كل البواخر الألمانية في ألمانيا سيجعل مشكلاتنا البحرية في شمال الاطلنطي أقل صعوبة وأكثر سهولة ولكن الصورة ظهرت سيئة لكل شخص في دول الحلف الأكبر خارج دائرة حلقاتنا السرية .

وفي خلال ذلك كان التوتر مهيمنا على ساحل أمريكا المشرف على الاطلنطي وأرسل قائد احدى الغواصات تقريرا الى الاميرال دونتس يقول فيه : انه لو زاد عدد الغواصات الى عشرة أضعاف فانها تجد أهدافا يسيرة المنال وكانت الغواصات تستجم في قاع البحر طوال النهار ، وحينما يحل المساء تبادر الى أفتراس أئمن صيد لها . وكان كل طوربيد تحمله يلقي فريسة له . وحينما ينتهى ما تحمله من طوربيدات ، تستخدم مدافعها وتحقق بها النتائج التي ترغب فيها . وكانت المدن الواقعة على ساحل الاطلنطي ، والتي تستمر واجهاتها المائية مضادة طول الليل كله ، تسمع كل ليلة أصوات المعركة ، وتبصر الحرائق الناتجة عما يغرق من بواخر قرب الساحل ، فتبادر الى انقاذ الناجين والغرقى . وقد احتدم الغضب واحتدمت المراءة من الادارة الأمريكية التي غدت حائرة . ولكن يظل من الأيسر استثارة - الأمريكيين لارهابهم وازعاجهم .

وكنا في لندن ننظر الى هذه الكوارث بعيون يملؤها الأسى والقلق وفي العاشر من شهر فبراير قدمنا أربعاً وعشرين سفينة من أحسن السفن المقاومة للغواصات لدينا والمعدة أحسن اعداد ، وعشر سفن أخرى

من ذات المدفع الواحد مع بحارتها الى الاسطول الامريكى . واحتفت حليفتنا بهذه الهدية النفيسة التى وصلت أولى قطعها الى نيويورك فى اليوم الأول من مارس . وكانت هذه المعونة يسيرة الا أنها كانت أقصى ماوسعنا تقديمه ولم يكن فى الوسع تجهيز قوافل ساحلية الى أن يتم اقامة تنظيم خاص به تسنده وحدات الحراسة . وأسند أولا الى الطائرات والسفن الحربية المتيسرة الدفاع عن المناطق المهددة فبدأت غواصات العدو تتفادى هذه المناطق وتفتش عن صيد فى مناطق أخرى وانصب الضغط الشديد الآن على المنطقة الواقعة بين شارلستون ونيويورك ، فى حين كانت الغواصات الفردية تسير خلال مياه الكاريبى وخليج المكسيك ، بحرية وانطلاق كان من العسير توقفها ووصلت حمولة السفن الغرقى الى ما يقرب من نصف المليون طن ، وقد غرق أكثرها على مدى ثلاثمائة ميل من الساحل الامريكى ونصفها من ناقلات النفط . ولم تنجح الطائرات الأمريكية فى اغراق أكثر من غواصتين فى المياه الأمريكية ، ولم تتمكن البوارج العائمة من اغراق أية غواصة حتى الرابع عشر من ابريل ، حينما أغرقت المدمرة الأمريكية « روبر » غواصة ألمانية .

وفى أوروبا انقضى شهر مارس بمغامرة سان نازير البطولية الهائلة وكان هذا هو الميناء الوحيد على ساحل الاطلنطى ، الذى يمكن تيربيتز أن تقصد اليه لاصلاح ما يلحق بها من دمار اذا أصيبت . فاذا أمكن تحطيم أحواض السفن فيها ، وهى من أكبر الاحواض فى العالم . فان خروج تيربيتز من تروند هايم الى الاطلنطى يصبح فى غاية الخطورة ولا يستوجب المغامرة وكان فدائيونا تواقين لاقتحام المعركة ، وهنا يظهر العمل المجيد ، ويتعلق بأعظم ما فى الحرب من خطط استراتيجية . وبعد ظهر السادس والعشرين من مارس تحركت من ميناء فالماوث حملة من المدمرات والسفن الساحلية الخفيفة بقيادة الكوماندور رايدر من الاسطول الملكى ، والعقيد نيومان من كتيبة ايسكس ، تقل ما يقرب من مائتين وخمسين فدائيا ، وكان عليهم أن يجوبوا أربعمائة ميل من البحر الذى تسير فيه دائما دوريات معادية . ثم يصعدوا خمسة أميال فى مصب نهر اللوار .

وكان الغرض هو تدمير أبواب القفل الكبير . وتقدمت كامبلتاون ، وهى إحدى المدمرات الأمريكية الخمسين القديمة ، تحمل ثلاثة أطنان من المتفجرات الشديدة الى مداخل القفل ، تحت بأس نار شديدة قوية ، وهنا أحرقت المدمرة تمهيدا لاغراقها ، وجهزت القتائل والكبسولات لتفجير ما تحمله من متفجرات تحت اشراف مساعد الكوماندور بيتى . ووثب من فوقها الرائد كوبلاند مع جماعة معدة للنزول لتحطيم أجهزة الأحواض . وواجههم الألمان بقوة رائعة ، وبدأ قتال وحشى ، وقتل كل الذين أنزلوا أو أسروا ما عدا خمسة فقط . واستمرت سفن الكوماندور رايدر عائمة بمعجزة بالرغم من اطلاق النار عليها من كل النواحي ، الى أن أمكن الافلات الى البحر بمن بقى على متنها ورجعوا سالمين الى الوطن . لكن انفجارا كبيرا سيقع فيما بعد ، بسبب حدوث خطأ فى الكبسولات ، وفى اليوم التالى ، وكان عدد كبير من الضباط الألمان والفنيين يقومون بتفتيش حطام المدمرة كامبلتاون التى أحرقت ونفذت المياه إليها فى بوابات القفل . قضى على مئات من الألمان حينما انفجرت.

الدمرة بصورة مفزعة ، واهتزت جوانب القفل الكبير المدة الباقية من الحرب . . وعامل الأملن الأسرى باحترام بالغ ، وكان قد أنعم على أربعة منهم بوسام صليب فكتوريا ، في حين أنزلت عقوبة شديدة بالفرنسيين البسلاء الذين بادروا حين وقوع الحادث من كل مكان لمعاونة البريطانيين في تنفيذ ما تصوره بداية معركة التحرير .

وفي الأول من إبريل استطاع أسطول أمريكا في النهاية أن يبدأ في ترتيب قوافل جزئية . ولم يتجاوز هذا التنسيق في بداية الأمر القيام بوثبات نهائية مسافة الواحدة منها مائة وعشرون ميلا تقطعها القوافل كل نهار بين الموانئ التي تحرسها حراسة قوية ، وفي الليل تتوقف حركة الملاحة جميعها . وكان ثمة ما يقرب من مائة وعشرين باخرة تفتقر الى الحماية كل يوم بين فلوريدا ونيويورك ، وكان هذا التأخر في التنقل كارثة ولكن بصورة أخرى . وفي الرابع عشر من مايو أقلت القافلة الأولى المنسقة تنسيقا دقيقا من هامبتون رودز الى كي ويست ، وفي سرعة امتد التنظيم شمالا الى نيويورك ، وهاليفاكس ، ولم يأت آخر الشهر حتى كانت الدائرة قد تمت على امتداد الساحل الشرقي من كي ويست الى الشمال . وهكذا كان الإبلال فوريا ، وسرعان ما وقعت الخسائر .

وفي سرعة انتقل الأدميرال دونتس بمراكز هجومه الى البحر الكاريبي وخليج المكسيك ، حيث ان نظام القوافل لم يكن قد اتبع بعد . وانفسحت نواحي نشاط الفواصات فبدأت تظهر أمام ساحل البرازيل وفي نهر سنت لورنس ، ولم يكن في الوسع اتمام نظام القوافل ليفطى كل هذه البحار والمحيطات الواسعة قبل آخر العام . ولكن شهر يونية شهد تقدما جليا ، وفي الوسع اعتبار الأيام الأخيرة من شهر يوليه نهاية المجزرة الشنيعة التي نزلت بالبواخر على الساحل الأمريكي . ووصلت خسائر الحلفاء في الاطلنطي من الفواصات في سبعة أشهر الى أكثر من ثلاثة ملايين طن ، شملت (١٨١) باخرة بريطانية حمولتها (١٣.٠٠٠ ر.١٠٠) طن ، أدنى من عشرها كان مع القوافل . وحتى شهر يوليه لم يخسر العدو أكثر من أربع عشرة غواصة غرقت في الاطلنطي والمحيط المتجمد الشمالي ، غرق منها ست فقط في مياه أمريكا الشمالية .

واسترددنا زمام المبادرة بعد هذا التاريخ . فأغرقنا في شهر يوليه وحده خمس غواصات على ساحل الاطلنطي الى جانب ست غواصات المانية أخرى وثلاث ايطالية أغرقت في مناطق نائية . ودفع هذا الرقم القياسي الذي وصل في شهر واحد الى أربع عشرة غواصة نصفها بالبوارج الحارسة للقوافل ، الى بعث الشجاعة والرجاء في نفوسنا ، لقد كانت احسن نتيجة حققناها حتى الآن ، لكن عدد الغواصات التي كانت تنزل الى البحر كل شهر ما برح متفوقا على ما نفرقه منها وكان الأدميرال دونتس الى جانب هذا يغير أماكن غواصاته في الوقت الذي كنا نبدأ انتصاراتنا ، فانفساح آفاق المحيطات يضمن باستمرار وقتنا قصيرا من الحصانة في منطقة جديدة . وفي شهر مايو فقدت قافلة من عابرات الاطلنطي سبع بوآخر على مدى سبعمئة ميل الى الغرب من أيرلنده . وسرعان ما أدركتنا كارثة أخرى قرب جبل

طارق ، وعادت الغواصات من جديد تظهر حول فريتاون . وقدم هتلر مرة أخرى لنجدتها بتصميمه على ابقاء عدد من الغواصات متأهبة لاحتياط محاولة الحلفاء القيام بالاستيلاء على جزر الآزور أو جزر ماديرا ، ولم تكن فكرته في هذه الناحية في غير مكانها ، ولكن طلبه أتى متسقا مع انقضاء أيام الهدوء على الساحل الأمريكى كان أسوأ ما ينزل بنا هو هجمات الغواصات ، وكانت الحكمة تقضى على الألمان بالمقامرة بكل شيء على هذا النحو ، وانى لأذكر ما كان يقوله أبى : يجب أن تتمسك في دنيا السياسة بما تضع يدك عليه »

ولا مرية في أن هذه الحكمة تنطبق على الأسس الاستراتيجية كذلك وكما كان جورج ينقل دائما أهدافه الجوية في معركة بريطانيا سنة ١٩٤٠ ، كذلك وهنت الآن حرب الغواصات من جراء عوامل الجذب المنافسة ، قد يكون من الأفضل هنا أن ننتقل الى سرد الأحداث في أماكن أخرى وأن نسجل في ايجاز تطور معركة الاطلنطى حتى آخر سنة ١٩٤٢ .

ففى شهر أغسطس حولت الغواصات عنايتها الى المنطقة المحدقة بترينيداد والساحل الشمالى للبرازيل ، وجعلت أهدافها البواخر التى تحمل مسحوق الألومنيوم اللازم لصناعة الطائرات الى أمريكا ، والبواخر التى تنقل المؤن الى الشرق الأوسط ، وكان بعضها يعمل على كذب من فريتاون ، فى حين نزل بعضها الآخر جنوبا قرب رأس الرجاء الصالح ، وتوغل عدد قليل فى المحيط الهندى . وأصبح جنوب الاطلنطى مبعث ازعاج لنا فترة من الزمن ، وفى شهرى سبتمبر وأكتوبر غرقت خمس بوآخر كبيرة للركاب كانت تبحر منفردة ، فى حين استطاعت كل سفننا الحاملة للجنود والمتجهة الى الشرق الأوسط فى قوافل ، أن تمر بسلام دون أن تصاب وكانت لاكونيا التى تحمل عشرين ألف طن ضمن البواخر التى غرقت وعلى متنها ألفان من الأسرى الإيطاليين كانوا فى سبيلهم الى إنجلترا ، وقد غرق عدد كبير منهم

واستؤنفت المعركة الآن فى طرق القوافل الرئيسية فى شمال الاطلنطى وكانت الغواصات قد أخذت تقدر قوة الهواء . ولهذا فقد حصرت جهودها فى هجماتها الجديدة فى وسط الاطلنطى بعيدة عن الطائرات العاملة من أيسلنده ونيوفوندىلند . وفى شهر أغسطس أصيبت قافلتان بخسائر شديدة ، فقد غرق من احدهما احدى عشرة باخرة ، وأفلحت الغواصات فى هذا الشهر فى اغراق مائة وثمانى بوآخر تربو حمولتها على نصف المليون طن . وفى شهرى سبتمبر وأكتوبر رجع الألمان الى اجرائهم السالف فى الغارات السطحية فى وضح النهار . ولما استخدموا أعدادا كبيرة فى مجموعات تشبه مجموعات الذئاب للقيام بالهجوم ، ولما كانت مواردنا محدودة ، فانه لم يكن فى طاقتنا أن نتفادى الخسائر الشديدة وخاصة اننا فقدنا العدد الكافى من الطائرات البعيدة المدى جدا فى القيادة الساحلية . وكان الغطاء الجوى يمتد الى مسافة تبعد ستمائة ميل عن قواعدنا الساحلية وأربعمائة ميل عن نيوفوندىلند ، مما جعل هناك فجوة كبيرة فى وسط المحيط الاطلنطى تحتاج الى الحراسة ، حيث ان سفن الحراسة البحرية

لا تستطيع أن تلقى مساعدة من الجو . ولكن طيارينا بذلوا المستحيل في هذه الأوقات المرهقة العصبية .

ولم يكن في إمكان سفن الحراسة البحرية أن تحوم بعيدا عن القوافل لتفريق أمر انحشود الهائلة من غواصات العدو على الأجنحة . وهكذا كان في إمكان مجموعات الذئاب حين تهاجم قوافلنا أن تستأصل دفاعنا كله ، وكان العلاج الوحيد أن تحاط كل قافلة بعدد كاف من الطائرات للعثور على الغواصات القريبة واجبارها على الفوص في الماء . مما يفتح السبيل أمام قوافلنا . ولم يكن هذا العلاج كافيا لأنه كان يجب علينا أن نبحث عن هذه الغواصات ونهاجمها بشدة أينما وجدت سواء في البحر أو في الجو . وكانت الطائرات والطيارون المدربون والأسلحة الجوية قليلة ، ولكننا شرعنا في تشكيل وحدات من القوات السطحية ، سميناهم « المجموعات المؤازرة »

ومنذ وقت طويل كنا ندعو الى هذه الفكرة ، ولكننا كنا نحتاج الى الوسائل . وكانت أولى هذه المجموعات التي غدت فيما بعد عاملا مهما للغاية في حرب الغواصات ، تتكون من سفينتين من ذوات السرية الواحدة ، وأربع « فرقاطات » حديثة من الصنف الذي أخذت أحواضنا تنتجه ، وأربع مدمرات ، وعن طريق البحارة المدربين والخبراء ، وبوساطة الأسلحة الحديثة استطاعت هذه المجموعات التي تعمل مستقلة عن وحدات الحراسة مع القوافل ، والتي لاتجهد في المسئوليات الأخرى ، أن تؤدي واجبها ، بالتعاون مع السلاح الجوي ، في التفتيش على الغواصات واصطيادها ، وتحطيمها . وفي سنة ١٩٤٣ غدا الاجراء أن ترشد الطائرة في « المجموعة المؤازرة » الى مكان فريستها وتدفع مطاردة غواصة واحدة الى استبانة رفيقاتها ، مما يعرض « قطع الذئاب » كله لخطر الاكتشاف .

واستطعنا أيضا أن تؤمن العدد اللازم من الطائرات لمصاحبة القوافل ولم تأت نهاية عام ١٩٤٢ حتى قامت ست حاملات بواجبها . وتم تشييد عدد من الحاملات في أمريكا الى جانب ما يصنع في بريطانيا ، وفي شهر سبتمبر صاحبت احدها وتدعى « المنتقم » قافلة متجهة الى شمال روسيا . وأخذت هذه السفن الحديثة تظهر ظهورا مؤثرا مع القوافل المتجهة الى شمالي افريقية في أواخر أكتوبر . وكانت طائرات « السورد فيش » العاملة من متنها تقوم بعمليات الاستكشاف الى مسافات بعيدة . مستقلة عن القواعد الجوية على البر ، وبالتعاون مع سفن الحراسة السطحية . وهكذا استطعنا أن نبدأ في الريح عن طريق الجهد المستمر والاختراع ولكن قوة العدو كانت تتضاعف كذلك ، وكان يجب علينا أن نقابل عددا من النكسات .

وفيما بين يناير وأكتوبر عام ١٩٤٢ تضاعف عدد الغواصات . فقد كانت (١٩٦) غواصة تعمل في عرض البحار ، وتصدت قوافلنا في شمالي الاطلنطي لهجمات من « قطعان الذئاب » بصورة أشد واضخم من أي وقت مر . وكان يجب أن ندخر من قوات حراستنا لافتقارنا اليها في عملياتنا الرئيسية في شمالي افريقية وهكذا وصلت خسائرنا في نوفمبر الى أقصى رقم وصلت اليه في الحرب كلها اذ فقدنا عن طريق

الفواصات وحدها (١١٧) باخرة ، حمولتها أكثر من سبعمائة ألف طن ، الى جانب مائة ألف فقدناها بفضل عوامل أخرى .

وهكذا غدا الوضع في المياه الخارجية خطيرا للغاية . مما أجبرني في الرابع من نوفمبر على أن أتولى شخصا الدعوة الى تكوين لجنة جديدة لمكافحة الفواصات . وقد أدت باصدارها قرارات بعيدة المدى دورا مهما في الصراع ، ورغبة منا في محاولة اطالة مدى طائراتنا الليبراتور الحاملة للرادار ، قررنا سحبها من العمل الى أن يتم ادخال التعديلات الواجبة ، وتلبية لطلبى ارسل الرئيس كل الطائرات الأمريكية الصانحة ، المعدة بأحدث وسائل الرادار للعمل من بريطانيا ، واستطعنا فورا أن نستأنف العمليات في خليج بسكاي بقوات أضخم وبمعدات أحسن ، وكتب لهذه الجهود أن تؤتي ثمارها في عام ١٩٤٣ .

انتصارات امريكا البحرية

بحر المرجان وجزيرة ميدواى

حدثت الآن فى المحيط الهادى حوادث مثيرة ، اثرت على سير الحرب كلها .

فلم تأت نهاية شهر مارس حتى كانت المرحلة الاولى من خطة اليابان الحربية قد حققت فوزا تاما ذهل واضعوها انفسهم . فقد هيمنت اليابان على هونج كونج وسيام والملايو وكل منطقة الجزر الرائعة التى تؤلف جزر الهند الشرقية ، وكانت القوات اليابانية تتوغل فى بورما توغلا عميقا . وما فتئت القوات الامريكية تحارب فى كوريبيدور فى الفلبين ، ولكن بغير امل .

وقد وصلت امجاد اليابان الى قمتها ، فالاعتزاز بالانتصارات العسكرية والثقة فى القيادة ، عززا الاعتقاد بأن الدول الغربية ليس لديها رغبة فى القتال حتى النهاية . وقد وقفت جيوش الامبراطورية على الحدود التى اختيرت لها فى الخطط التى جهزت قبل الحرب لتكون الذروة النهائية فى التقدم . وكان فى امكان اليابانيين فى هذه المنطقة الرائعة التى تشمل موارد وثروات لا حد لها ولا حصر ، ان يوطدوا اقدامهم ويركزوا فتوحاتهم ، ويطوروا هذه القوة التى نالوها حديثا .

وكانت خططهم المجهزة منذ وقت طويل ، توجب التوقف فى هذه المرحلة فترة للاستجمام قليلا ، ومقاومة أى هجوم أمريكى مضاد وترتيب زحف جديد . ولكن تراءى للقادة اليابانيين فى هذا النصر المتألق ، ان ساعة تحقيق آمالهم قد قربت ، وعليهم والحالة هذه ان يكونوا ذوى كفاية لها . وقد وجدت هذه الأفكار لا من مجرد اغراء غريزى يتعرض له الناس من الانتصار المدهل فقط ، بل من التفكير العسكرى السليم وبان لهم ان مشكلتهم الاستراتيجية المتعادلة تقوم على اختيار احد أمرين ، ترتيب قطاعهم الجديث ترتيبا كليا ، أو التقدم الى الامام والخوض بعنق لتأمين الدفاع عن هذا القطاع .

وبعد مشاورات طوكيو تقرر اللجوء الى السبيل الأكثر طموحا ، وامتداد قبضتهم لتهيمن على جزر الاليوشان الغربية وجزيرة ميدواى ، وجزيرة ساموا ، وجزر فيجى ، وكاليدونيا الحديثة ، وميناء مورينى فى جنوب غينيا الجديدة . وسيهدد هذا الامتداد ميناء الدر الذى ما فتئ قاعدة امريكا الرئيسية ، كما انه اذا حوفظ عليه تماما سيدفع الى قطع المواصلات المباشرة بين امريكا واستراليا ويؤمن لليابان قواعد مناسبة لشن هجمات أخرى فى المستقبل .

وقد أبدت قيادة اليابان العليا غاية الجراة والعبقرية فى وضع

خطتها وتنفيذها ، ولكنها بدأت على مبادئ لم تقدر فيها القوى الدولية في نسبها السليمة . ولم يمكن هذه القيادة قط أن تدرك القوة الكامنة لأمريكا . وكانت حتى هذا الوقت توقن أن ألمانيا هتلر ستنتصر في حرب أوروبا . وشعرت في أعماقها برغبة عارمة في قيادة آسيا إلى فتوحات لاحد لها ولا حصر ، وفي تحقيق أمجادها .

وهكذا اندفعت خلف مقامرة ، لو كتب لها النجاح ، ماغيرت من حقيقة الأمر شيئا غير اطالة هيمنتها عاما آخر ، ولكنها لما فشلت أسفرت عن اختصار مدى الهيمنة سنة كاملة . وهكذا دفعت هذه المقامرة في واقعها إلى استبدال موقف قوى نسيبها ، وامتيازات أحكمت قبضتها عليها بهيمنة واسعة ، كان من الشاق عليها أن تحتفظ بها ، ولهذا فانها حينما هزمت في هذه المنطقة الخارجية لقيت نفسها في موقف تحتاج فيه إلى القوى الكافية لخلق دفاع مترابط عن منطقتها الداخلية الأكثر حيوية وأهمية .

وبالرغم من ذلك لم يكن في طاقة احد في هذه المرحلة من مراحل الصراع العالمي أن يتيقن من أن ألمانيا لن تستطيع تدمير روسيا أو إجبارها على التراجع إلى ماخلف الأورال ، وأن تعود أدراجها بعد ذلك فتغزو بريطانيا ، أو تتفرق كحل بديل عبر القوقاز وإيران لتلتقي مع طلائع اليابانيين في الهند . ولارجاع الأمور إلى نصابها الصحيح بالنسبة لدول الحلف الأكبر ، كان من الواجب أن تحصل أمريكا على نصر بحري حاسم يضمن لها التفوق في المحيط الهادئ ، وأن كان لا يضمن لها الاشراف الكامل المباشر العاجل على هذا المحيط . وكتب لنا أن نحزر هذا النصر . وكنت أوقن باستمرار أن الاسطول الأمريكي سيسترد هيمنته على المحيط الهادئ في شهر مايو بما يمكننا تقديمه من مساعدات في هذا الشهر . وكنت أبني مثل هذه الآمال على حساب الانشاءات البحرية الأمريكية والبريطانية الحديثة التي كادت تبلغ حد النضج ، والتي تشمل البوارج وحاملات الطائرات وغيرها من السفن الحربية الأخرى . وفي طاقتنا الآن أن نشرح صورة موجزة ، كما تقضى الضرورية ، للمعركة البحرية المتألقة المذهلة ، والتي أكدت هذا الواقع العظيم ، في صورة لا يتسرب إليها الريب .

في آخر شهر ابريل عام ١٩٤٢ بدأت القيادة العليا اليابانية سياستها التوسعية الجديدة . وقد شملت هذه الخطة احتلال ميناء مورتسبي وتولاجي في جزر سليمان الجنوبية ، مقابل جزيرة جواد قنال الكبيرة . وبلاستيلاء على ميناء مورتسبي تتم المرحلة الاولى من هيمنتها على غينيا الحديثة ، ويكفل ضمانا أخرى لقاعدتها البحرية الألمانية في راباول في جزيرة بريطانيا الحديثة .

وفي امكانها ان تبدأ من غينيا الحديثة ومن جزر سليمان مجاصرة استراليا .

وفي سرعة علمت المخابرات الأمريكية أن جموعا يابانية في هذه المياه ، فقد شوهدت قوات يابانية كبيرة تحتشد في راباول قادمة من القاعدة الرئيسية في تروول في جزر كاولين . وأصبح التقدم صوب

الجنوب امرا واقعيا لا مناص منه . وكان من المستطاع ان يتربح الانسان بدء العمليات العسكرية في الثالث من مايو . .

وكانت حاملات الطائرات الامريكية متفرقة في هذا الوقت ، تؤدي اعمالا مختلفة ، من بينها الهجوم الجريء الرائع الذي شنه الجنرال دوليتل من الجو على مدينة طوكيو نفسها في الثامن عشر من ابريل . ولا مرية في ان هذا الحادث كان عاملا مهما في تقرير السياسة اليابانية الجديدة .

وأحس الاميرال نيمتز بالخطر في الجنوب ، فبدأ يحشد أقوى قوة ممكنة في بحر المرجسان (كورال) . وكان الرير اميرال فليتشر قد قدم الى هناك ومعها حاملات الطائرات يوركتاون وثلاثة طرادات ثقيلة .

وفي الأول من مايو انضمت اليه قوة مكونة من حاملات الطائرات ليكسينجتون ، وطرادين آخرين بقيادة الرير اميرال فيتش ، وقد قدمت من ميناء الدر ، وسرب آخر يقوده الرير اميرال البريطاني كريس وهو مكون من الطرادين الاستراليين « استراليا وهوبارت » ، والطراد الأمريكي « شيكاغو » .

وكانت الحاملتان الاخيرتان المتوافرتان الان ، وهما انتر برايز وهورنيت ، تسهمان في غزو طوكيو ، وبالرغم من صدور الاوامر اليهما بالتحرك بسرعة جنوبا للانضمام الى الاميرال فليتشر ، لم يمكنهما ادراكه حتى وسط شهر مايو ، وكانت المعركة المرتقبة قد انتهت قبل هذا الوقت .

وفي الثالث من مايو كان الاميرال فليتشر يتزود بالوقود في البحر على مدى اربعمائة ميل تقريبا جنوب جواد قنال ، حينما علم ان العدو نزل الى البر في تولاجي مستهدفا انشاء قاعدة بحرية هناك فورا . ليراقب منها المداخل الشرقية لبحر المرجان . وقبل يومين تراجعت الحامية الاسترالية الصغيرة من هذا الموقع الامامي نظرا للخطر القائم وقرر فليتشر ان يتحرك بمجموعته الاساسية الخاصة لمهاجمة الجزيرة لان مجموعة فيتش كانت مافتتت تزود بالوقود . وفي صباح اليوم التالي هاجمت الطائرات العاملة من يوركتاون جزيرة تولاجي بقوة . وكانت القوات التي تغطي العدو قد تراجعت ، ولم يبق في الجزيرة الا عدد من المدمرات والسفن الصغيرة .

ولهذا أتت النتائج مخيبة للرجاء .

ومضى اليومان التاليان دون حوادث تستحق الذكر ، ولكن كان من الواضح انه سيحدث في القريب صدام مسلح . وكانت مجموعات فليتشر الثلاث قد تزودت بالوقود . واصبحت تؤلف وحدة واحدة تقف جهة الشمال الغربي من غينيا الحديثة . وكان فليتشر يعلم ان القوة اليابانية التي تستهدف غزو ميناء مورسبي ، قد غادرت راباول ، وانها قد تمر عبر مضيق جومارد في أرخبيل لوياد في السابع أو الثامن من الشهر . وكان يعلم ان بالمنطقة ثلاث حاملات معادية ، ولكنه لا يدري

مواقعها وكان من بين القوة اليابانية الضاربة حاملتا طائرات هملة زويكاكو وشوكاكو ، وطرادان ثقيلان ، وقد قدمت الى الجنوب من ترول ، شرقى جزر سليمان وهى بعيدة عن متناول طائرات - الاستكشاف ، وفى مساء الخامس من مايو دخلت بحر المرجان من جهة الشرق . وفى السادس منه كانت تدنو من قوة فليتشر ، وفى غصون الليل غدت على مدى سبعين ميلا منه ، ولكن كلا من الفريقين لم يعلم بوجود الآخر . .

وعاد الفريقان فابتعد كل منهما عن الآخر فى الليل ، وفى السابع قدم فليتشر بوحداته الى الجنوب من أرخبيل لويزياد ، حيث قرر أن يعسكر بها ليضرب قوات العدو ، وأصدر أمره الى مجموعة كريس بالتقدم لمراقبة المدخل الجنوبى لمضيق جومارد ، حيث ينتظر وصول العدو فى ذلك اليوم . وسرعان ما اكتشف العدو موقع كريس ، وأمطره بوابل من قاذفات الطوربيد ، وشن عليه من القواعد الساحلية هجمات عنيفة متعاقبة تشبه فى ضراوتها تلك التى أغرقت « الامير ويلز » و « ريبالس » . ولم تصب وحدة من وحداتنا التى واصلت السير الى أن وصلت ميناء مورسبى ، بفضل القيادة البارعة ، وحسن الحظ .

ولما علم كريس بتراجع العدو ، انسحب جهة الجنوب .

وفى خلال ذلك ظلت حاملات الطائرات المعادية التى لم يعرف فليتشر عنها معلومات دقيقة ، أهم مايشغله ويزعجه ، وعناء الفجر بدأ حركة بحث واسعة النطاق ، وفى الساعة الثامنة والرابع لقي جزاءه حينما بلغه نبأ يقول ان هناك حاملتين وأربعة طرادات معادية الى الشمال من جزر لويزياد ، ولم تكن هذه القوة التى شوهدت هى قوة العدو الضاربة ، بل قوة الحراسة الضعيفة التى تحرس سفن الغزو ، وبينها الحاملة الخفيفة « شوهو » .

على أى حال صوب فليتشر ضربته بأقصى ماله من قوة ، وبعد ثلاث ساعات أغرقت « شوهو » . وقد أفترقت قوة الغزو بسبب هذا الحادث غطاءها الجو وأجبرت على التقهقر .

وهكذا لم يكتب لسفن النقل المجهزة للتحرك الى ميناء مورسبى، دخول مضيق جومارد ، وظلت واقفة الى الشمال من جزر لويزياد الى أن صدر اليها الأمر أخيرا بالانسحاب .

وهكذا كشف فليتشر موقعه للعدو ، فأصبح معرضا لخطار فادحة ، وكان يجب أن يتوقع هجوما معاديا فى كل لحظة ، فى وقت لم يكن فى طاقته إعادة تسليح قوته الضاربة وتجهيزها لمعركة أخرى قبل العصر .

ومن حسن طالع أن الجو كان سيئا ، بل انه أخذ يزداد سوءا . ولم يكن لدى العدو أجهزة رادار . وكانت القوة اليابانية الضاربة فى الواقع قريبة ومواجهة للمدافع شرقا . وبدأت هجومها بعد الظهر ، ولكن الطائرات لم يمكنها أن تميز أهدافها فى هذا الجو السيئ . وفى

طريق عودتها الى حاملاتها دون تحقيق اهدافها ، مرت بالقرب من قوة فليتشر فبدت على لوحات رادارها . وبعثت المقاتلات الامريكية لتقطع عليها سبيلها ، وجرت معركة في الظلام ومر فيها عدد من الطائرات ايبانية ، التي غادرت الحاملات والتي كان مجموعها سبعا وعشرين قاذفة قنابل .

واستطاعت بضع طائرات منها ان تعود سالمة لتشارك في معركة اليوم التالي .

وتخيل كل من الفريقين ، ادراكا منه لقرب الفريق الاخر ، انه يمكنه ان يشن عليه هجوما في الليل بقوات سطحيه . ولكنهما قدرا ان مثل هذا الهجوم سيكلفهما كثيرا . فرجعا وابتعدا كل عن الآخر ، وحينما طلع صباح الثامن من مايو تغير طالع الطقس ، فغدا اليابانيون في حماية السحب المنخفضة ، في حين كانت سفن فليتشر تستحم في اشعة الشمس المشرقة . وبدأت عملية « الاستخفاء والاستكشاف » من جديد . واخيرا استطاعت طائرة عاملة من « ليكسينجتون » ان تكتشف موقع العدو في الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين ، وان تلتقط اشارة لاسلكية معادية تنبئ عن اكتشاف العدو مكان الحاملات الامريكية . وهكذا اصبحت المعركة الكبرى محتملة بين قوتين متساويتين ومتكافئتين .

وقبل الساعة التاسعة بقليل ، انطلقت قوة امريكية ضاربة مكونة من اثنتين وثمانين طائرة من عقاليها ، وفي الوقت نفسه انطلقت تسع وستون طائرة يابانية ، وفي الساعة الحادية عشرة بدا الهجوم الامريكي ، وبعده بعشرين دقيقة بدا الهجوم الياباني ، وانتهت المعركة في الحادية عشرة والدقيقة الاربعين ، وقد صادفت الطائرات الامريكية بعض المصاعب التي سببتها السحب المنخفضة عند الهدف . وبادرت احدى الحاملتين بالاختفاء تحت ستار من المطر الشديد ، على حين انصبت قوة الهجوم كلها على الحاملة الاخرى شوكاكو ، وقد اشتعلت فيها النيران عندما اصابها ثلاث قنابل ، ولكن الاضرار كانت اقل كما بدت . في الظاهر ، وعلى الرغم من انها تعطلت عن العمل في الوقت الحالي ، الا انها تمكنت من ان تصل الى قاعدتها لاصلاحها . اما الحاملة الاخرى زويكاكو فلم يمسهما اي ضرر .

وفي خلال ذلك جرى الهجوم الياباني في جو واضح يستهدف الحاملتين : يوركتاون وليكسينجتون . واستطاعت الاولى بفضل المناورة البارة ان تتفادى الاصابات الفتاكة تقريبا ، وان كانت قد تلقت بعض الضربات ، فقد اصابها قنبلة قضت على عدد كبير من رجالها واشعلت فيها النيران ، التي لم تلبث ان حوصرت واخمدت بسرعة ، واستردت الحاملة قدرتها على القتال بالرغم مما اصابها واثّر فيها قليلا اما « ليكسينجتون » فكانت اقل حظا ، اذ انها تلقت اصابتين بالطوربيد وثلاثا بالقنابل ، ودهمتها النيران عقب انتهائها المعركة ، فأسرعت الى الميناء ، وقد غمرت المياه ثلاثة من مراحلها . وبعد محاولات جبارة اخمدت النيران وسيطر على السفينة ، وراحت تعدو بسرعة خمس وعشرين عقدة .

وقد ردت خسائر الطائرات في هذه المعركة الجوية التي تعد الأولى من نوعها بين حاملات الطائرات ، بثلاث وثلاثين طائرة أمريكية وثلاث وأربعين طائرة يابانية . ولو أن حوادث بحر المرجان انتهت عند هذا الحد لكان ميزان النتائج في صالح الأمريكيين قطعاً . فقد أغرقوا حاملات الطائرات شوهو ، وأصابوا الحاملة شوكاكو أصابات بالغة ، وأجبروا قوة الغزو المتجهة إلى ميناء مورسبي على التقهقر . أما الحاملتان الأمريكيتان فما برحتا في حالة طيبة ، وكانت خسارتهما الوحيدة حتى هذه اللحظة ناقلة زيت تابعة للأسطول ، ومدمرة صاحبة لها . وقد أغرقتهما الحاملتان اليابانيتان في اليوم السابق ، وقد كان من المتوقع أن تحدث كارثة الآن ، فبعد ساعة من انتهاء المعركة ، سمع في ليكسينجتون دوى انفجار عنيف ، شوهدت بعده النيران تشتعل في كل مكان ، وقد تعذر مكافحتها ، ولم تنجح كل الجهود التي بذلت لانقاذ السفينة ، التي هجرت في هذه الليلة تفادياً لعدم وقوع خسائر أخرى في الأرواح ، وقد نسفها - طوربيد أمريكي ، وانسحب الفريقان من بحر المرجان ، وقد زعم كل منهما أنه انتصر ، وزعمت الدعاية اليابانية اغراق بارجة وطراد إلى جانب حاملتي طائرات الأدميرال فليتشر ولكن أعمالهم بعد المعركة كانت تتناقض مع هذه الادعاءات فقد أرجأوا زحفهم نحو ميناء مورسبي حتى شهر يوليو على الرغم من انفتاح الطريق لهم الآن . وحينما جاء شهر يوليو كان الوضع قد تبدل تماماً ، وعدلوا عن خططهم ، جريا وراء تقدم من جهة البر ، من القواعد التي كانوا قد استولوا عليها في غينيا الجديدة . وتشير هذه الأيام إلى الحد الأقصى لتقدم اليابانيين بحراً صوب استراليا .

وكان من أهم الضرورات الاحتفاظ بقوة حاملات الطائرات بالنسبة إلى الجانب الأمريكي . وأدرك الأدميرال نيميتس أن ثمة أحداثاً أكثر أهمية يتوقع حدوثها في الشمال ، وهي تستدعي منه جمع قوته وقد اقتنع بوقف زحف اليابانيين في الوقت الحالي جهة بحر المرجان . واستدعى إلى ميناء الدركل حاملات طائراته ومن بينها انثر برايز وهورنيت اللتان كانتا تتجهان في سرعة للانضمام إلى فليتشر وكانت الحكمة تقضي بتكتم نبأ اغراق حاملة الطائرات نيكسينجتون إلى مابعد المعركة ميدواي ، لأن اليابانيين لم يكونوا على علم بحقيقة الوضع ، وكانوا تواقين إلى اللام بالمزيد من المعلومات .

وكانت هذه المعركة من حيث الأهمية التكتيكية التي علق عليها لها تأثير لا يتناسب مع هذه الأهمية . ومن حيث الاستراتيجية كانت انتصاراً أمريكياً مرضياً ، لأنه أول انتصار على اليابان ، ولم يشهد التاريخ له مثيلاً قبل ذلك ، فهذه هي أول مرة تتقابل فيها قطع بحرية سطحية ولا تتبادل طلقة واحدة . وقد حولت فرص الحرب ومخاطرها إلى معركة جديدة . وفي سرعة البرق الخاطف طافت الأنباء بكل مكان في العالم ، باعثة التشجيع والرضا في استراليا ونيوزيلندة، إلى جانب أمريكا نفسها . وسرعان ما طبقت الدروس التكتيكية التي تمت دراستها في هذه المعركة ، والتي تكلفت ثمناً باهظاً ، وفي معركة

جزر ميدواى التى أحرزت فيها انتصارات عظيمة ، والتى دنت الان من بدايتها .

ولم يكن التقدم صوب بحر المرجان الا المرحلة الاولى فى سياسة اليابان الاكثر طموحا . وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه أول معركة كان - ياماموتو أميرال اليابان الاكبر ، يتأهب لتحدى قوة أمريكا فى وسط الباسفيك ، بالاستيلاء على جزر ميدواى ومطارها الهائل الذى يمكنه أن يهدد منه ميناء الدر نفسه ، الذى يقع على مسافة ألف ميل شرقا ، وأن يحتله حينما تسنح الفرصة . وفى الوقت نفسه قرر ارسال قوات فرعية للاستيلاء على مواقع ذات أهمية فى جزر اليوشان الغربية وقد بعث التوقيت الدقيق لخطوات ياما موتو لديه الأمل فى أن يجتذب الاسطول الأمريكى الى الشمال لمواجهة الخطر الذى يتهدد جزر اليوشان ، ويصبح من السهل لديه ارسال قوته الرئيسية الى جزر ميدواى ، وكان يأمل ، قبل أن يغزو الأمريكيون قادرين على التدخل هنا بقوة ، أن يكون قد سيطر تماما على الجزيرة واصبح متأهبا لمقابلة أى هجوم معاد بقوات متفوقة .

ولا مرية فى أن ميدواى مهمة بالنسبة لأمريكا لانها الموقع الامامى لميناء الدر ، وأهميتها هذه كافية لجعل هذه الحركات تؤدى الى اشتباك رئيسى . وأحسن ياماموتو بالثقة فى قدرته على فرض المعركة الحاسمة وفقا للشروط التى يملها هو ، وأنه يمكنه ، بتفوقه الهائل وخاصة فى البوارج السريعة ، أن يهيئ لنفسه الفرصة الممتازة للقضاء على العدو . وهذه هى الخطوط العريضة للخططة التى صرح بها لمساعدته أميرال ناجومو . . . وكان كل شيء يتوقف على وقوع الاميرال نيميتز فى الفخ ، وألا يكون قد دبر هو الآخر مفاجأة ضد اليابانيين .

ولكن القائد الأمريكى كان يقظا ونشيطا ، وكان يطلع عن طريق مخابراته على كل شيء حتى على ميعات ماسيوجه اليه من ضربات . وبالرغم من أن خطه غزو ميدواى قد تكون ستارا لاختفاء الضربة الحقيقية التى قد تصوب الى سلسلة جزر اليوشان للتقدم عن طريقها الى القارة الأمريكية ، فان ميدواى تمثل بالنسبة اليه الخطر ، الاكبر ولم يتوان فى تركيز قواته فى هذه الناحية . وكان المصدر الرئيسى لقلق القائد الأمريكى ، أن حاملات طائراته ، وان كانت فى أحسن حالاتها ، قد تكون أضعف من حاملات ناجومو الاربعة المجربة التى أحرزت انتصارات باهرة - امتدت من معركة ميناء الدر حتى جزيرة سيلار . وقد أرسلت منها اثنتان الى بحر المرجان ، وأصيبت أحدهما أصابة بالغة ، ولكن نيميتز خسر بدوره ليكسينجتون ، وغدت اليوركتاون مشلولة ، ولم تعد سياراتوجا الى الانضمام اليه بعد أن أبلت بلاء حسنا فى المعركة ، ولحققتها أضرار فى حين ما فتئت « الواسب » فى البحر المتوسط حيث بادرت الى هناك لحماية جزيرة مالطة ومساندتها ، ولا يمكنه أن يجهز للمعركة القادمة سوى انتر برايز وهورنيت اللتين تتحفظان الآن للقدوم من جنوب المحيط الهادى ، ويوركتاون ان أمكن اصلاحها فى الوقت المناسب ليتمكنها الاسهام فى المعركة . ولم تكن

عنده بوارج اقرب من البوارج الموجودة في سان فرانسيسكو ، وهي بطيئة في عملها مع حاملات الطائرات . وكانت لدى ياماموتو احدى عشرة بارجة ، بينها ثلاث من اقوى البوارج واسرعها في العالم . وكانت الفرص غير مواتية للامريكيين ، ولكن كان في امكان نيميتز الاعتماد على المساعدة القوية العاملة من مطار ميدواي .

وفي الاسبوع الاخير من شهر مايو بدأت القوة الرئيسية من الاسطول الياباني تتحرك . وكانت القوة الاولى التي تحركت هي قوة الاليوشان التي قصد بها التمويه والخداع والتي كلفت مهاجمة الميناء الهولندي في الثالث من يونيه لاجتذاب الاسطول الامريكي الى هذا الاتجاه .

وكان من المقرر أن تنزل القوات بعد ذلك في جزر آتو وكيسكا واداك الواقعة غربا . وفي اليوم التالي يقوم ناجومو بقوته المكونة من اربع حاملات يضرب جزيرة ميدواي ، وفي الخامس من يونيه تجيء قوة من قوى المظلات وتستولي على الجزيرة . ولم يكن من المرتقب أن تلقى القوة اليابانية مقاومة كبيرة . ثم يعود ياماموتو بأسطوله الى الغرب متفاديا مناطق الاكتشاف الجوي ليكون مستعدا لتصويب ضربته حينما يبدأ الامريكيون في هجومهم المضاد .

لقد كانت اللحظة الثانية الهائلة بعد ميناء الدر . وفي السادس والعشرين من مايو وصلت الحاملتان انتر برايز وهورينت من الجنوب

وفي اليوم التالي قدمت اليوركتاون ، وكانت الاضرار التي لحقتها تستدعي اصلاحات تستغرق ثلاثة أشهر ، ولما كان الموقف حرجا فقد اجريت بعض الاصلاحات العاجلة بها في خلال ثمان واربعين ساعة وغدت مستعدة للمعركة ، بعد أن زودت بمجموعة جوية حديثة .

وفي الثلاثين من مايو ابحرت لتنضم الى الاميرال سبروانس الذي ابحر قبل يومين مع حاملتين آخرين ، وظلت القيادة التكتيكية للقوة المشتركة بيد الاميرال فليتشر . وامتلا مطار ميدواي بقاذفات القنابل ، وصدر الامر الى القوات البرية المدافعة عن الجزيرة بأن تكون متحفزة مستعدة . وكان من اللازم التيكير في الحصول على معلومات عن اقتراب العدو ، ولذلك استمرت عمليات الرقابة الجوية منذ الثلاثين من مايو . واستمرت الفواصات الامريكية تراقب الشمال والغرب من ميدواي ، وانقضت اربعة ايام في حيرة وقلق . وفي الساعة التاسعة من صباح الثالث من يونيه شاهدت « سفينة طائرة » من طراز كاتالينا وهي تقوم بالمراقبة على بعد سبع مائة ميل غرب ميدواي . مجموعة مؤلفة من احدى عشرة سفينة حربية معادية . ولم يصب الهدف من هذه القنابل والطوربيدات سوى طوربيد واحد اصاب ناقلة زيت ، وبدأت المعركة ، وبانت حقيقة ما يرمى اليه العدو . واستطاع الاميرال فليتشر أن يعرف عن طريق مخابراته أن حاملات العدو ستدنو من شمال غربي ميدواي ، ولهذا لم يغير ماتلقاه من تقارير اولية عن مشاهدة العدو ، خطته الاصلية ، فقد قدر ، ووفق

في تقديره ، أن ماشوهد لا يتجاوز مجموعة من سفن النقل . وفي فجر الرابع من يونيه حرك حاملاته الى مكان انتقاه على مدى مائتي ميل تقريبا شمال ميدواي ، لتكون متأهبة للانتقاضي على جناح ناجومو حينما يظهر وحيثما يظهر .

وطلع الرابع من يونية جليا مشرقا ، وفي الساعة الخامسة والدقيقة الرابعة والثلاثين صباحا ، أرسلت دورية من ميدواي أخيرا برقية طال انتظارها ، تعلن فيها دنو حاملات الطائرات اليابانية . وأخذت التقارير تتدفق وتنهمر . وشوهدت طائرات كثيرة تتجه الى ميدواي وشوهدت البوارج تحمي الحاملات وفي الساعة السادسة والنصف صباحا حدث الهجوم الياباني في قوة وعنفة ، وقوبل بمقاومة عنيفة ، ولم يعد من الطائرات المهاجمة ثلثها تقريبا ، وحدثت أضرار فادحة ، رسقط الكثير من الضحايا ولكن المطار بالرغم من هذا ظل صالحا للاستعمال .

وكانت هناك فرصة لشن هجوم مقابل على اسطول ناجومو . وقد كلف تفوقه الساحق في الطائرات المقاتلة الامريكيين ثمنا باهظا . وابت الغارة الجريئة التي علقت عليها آمال ضخمة مشبقة للهمم ، ولكن الاضطراب الذي أحدثته في صفوف العدو أدهش القائد الياباني ، وشتت تفكيره ، وخاصة ان طياريه الحفوا عليه بضرورة شن غارة أخرى على ميدواي . وكان قد ادخر عددا كافيا من الطائرات للقضاء اية حاملات أمريكية قد تظهر فجأة ، بعد ان أعياه الحديث عنها .

وقرر ان يقسم التشكيلات التي جهزها لهذه الغاية ، وأن يسلمها لتصوب ضربة أخرى الى ميدواي . على أية حال كان من اللازم أن يخلي سطح حاملاته ليستغرق الطائرات التي ترجع من الهجوم الأولى .

لكن هذا القرار عرضه لخطر قاتل ، وقد علم ناجومو بعد فوات الاوان بوجود قوة أمريكية في الشرق تضم إحدى الحاملات . وتحتم عليه أن يواجه ضغط الهجوم الأمريكي وقد امتلات ظهور حاملاته بقاذفات لا يرجى منها فائدة ، تقوم بعملية التزود بالوقود والذخيرة .

وبوساطة التقدير السليم كان الاميرال فليتشر والاميرال سبيتسر في مركز قوى يمكنهما من التدخل في هذا الوقت الحاسم الحرج .

وكان قد تنسما الأخبار التي تدفقت في الصباح الباكر ، وفي الساعة السابعة صباحا بدأت الانتر برايز والهورينت هجوما استعملتا فيه كل ما هو متوافر لديهما من طائرات ، ما عدا ما قد يحتاجان اليه من الطائرات للدفاع عن نفسيهما . وقد تأخرت طائرات اليوركتاون لأنها كانت تقوم بعمليات الكشف منذ الصباح ، ولكنها استعدت بسرعة وحلقت قوتها الضاربة في الساعة التاسعة صباحا في الوقت الذي كانت الطلائع الأولى من طائرات الحاملتين الأوليين تدنو من صيدها . وقد تحذر على القاذفات أن تحدد هدفها لان الطقس القريب من العدو كان غائما ، ولم تحس طائرات الهورنيت قط باستدارة العدو ، ولذلك لم تظهر مطلقا بحاملاته ، ولم تسهم في المعركة . ونظرا لسوء الطالع هذا

أقتصرت الهجومات الأولى على قاذفات الطوربيد من الحاملات الثلاث، وبالرغم مما بذلته من ضغط شديد لم تستطع أن تحرز أي نصر أمام ما لقيته من مقاومة عنيفة . ولم يعد من الطائرات الأحدى والأربعين من قاذفات الطوربيد سوى ست طائرات فقط ، ما كاد يراها اليابانيون حتى وجهوا إليها كل الطائرات المقاتلة المتوافرة ، ولحسن حظها وصل إلى الميدان في هذا الوقت سبع وثلاثون قاذفة منقضة من الأنتربرايز واليورككتاون، وصبت قنابلها ، دون أن تلقى مقاومة ، على سفينة ناجومو - أكاجي ، وشقيقتها كاجا ، في حين هاجمت سبع عشرة طائرة أخرى من اليورككتاون، الحاملة سوريو . ولم تمر دقائق حتى تحولت الحاملات الثلاث إلى حطام تأكله النيران ، وتنفجر عليه الطائرات ، وتلاشت الحاملات الشريكة نهائياً .

ولم يكن في وسع الأميرال ناجومو إلا أن ينقل رايته إلى طراد ، وأن يشهد ثلاثة أرباع أسطوله وهي تحترق .

وقد فقد الأمريكيون ستين طائرة حينما كانوا يستعيدون طائراتهم وبالرغم من هذا حصلوا على فرصة عظيمة . ولم يبق من حاملات العدو سوى هيرو التي قررت على الفور أن تسدد ضربة انتقاماً لراية « ابن الشمس » وبينما الطيارون الأمريكيون يروون حكايتهم على متن اليورككتاون بعد عودتهم وصلتهم أنباء بأن هجوماً عاجلاً سيشن عليهم وقدردت طائرات العدو بأربعين طائرة ، هاجمت بعنف وقوة وعلى الرغم من مقاومة المقاتلات والنيران المضادة أصيبت أوليورككتاون بثلاث إصابات ، وبالرغم من ذلك أمكن إخماد النيران وواصلت السير إلى أن عاودت هيرو ضربتها بالطوربيدات بعد ساعتين وحطمتها ، ولكنها بالرغم من ذلك ظلت عائمة يومين حتى أغرقتها غواصة يابانية .

وقبل أن تغرق اليورككتاون نأر لها الأمريكيون، ففي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين حدد موقع الهيرو ، وفي الساعة الخامسة هاجمتها الطائرات التي حلقت من الأنتربرايز ولم تتركها إلا حطاماً محترقاً غرق في الصباح التالي .

هكذا دمرت الحاملات الأربع لأسطول ناجومو ، وضاع معها كل طيارها المدربين . ولم يكن في الوسع الاستعاضة عنهم . وهكذا انتهت معركة الرابع من يونيو ، وهي المعركة التي اعتبرت نقطة التحول في حرب المحيط الهادئ .

وهناك أخطار أخرى يجب على القادة الأمريكيين المنتصرين أن يواجهوها ، فقد يهاجم أميرال البحر الياباني بأسطوله الضخم جزيرة ميدواي وقد منيت القوات الجوية الأمريكية بخسائر فادحة ولم تكن هناك سفن حربية كبيرة يمكنها أن تشتبك في معركة مع ياماموتو ، إذا أثر مواصلة التقدم . وقرر الأميرال سبروانس الذي كان يقود مجموعة الحاملات عدم مواصلة مطاردة قوات العدو غرباً ، لأنه يجهل حقيقة قوته ، ولأنه يحتاج إلى مؤازرة السفن الكبيرة لحاملاته .

ولا مرية في أن قراره كان سليماً . ولكن الشيء الذي يدعو إلى التساؤل هو لماذا لم يحاول الأميرال ياماموتو التنازل ، واسترداد طوالعه

فقد قرر في البداية أن يواصل ضغطه ، وأصدر أمره الى أربعة من طرادته القوية بضرب جزيرة ميدواى فى الساعات المبكرة من صباح الخامس من يونيه .

وفى الوقت نفسه تقدمت قوة يابانية ضخمة أخرى جهة الشمال الشرقى ، ولو أراد سبروانس مطاردة ما تبقى من مجموعة ناجومو لسقط فى شرك ليلى ، يدفعه الى كارثة . ولكن الاميرال اليابانى غير رأيه فى الليل فجأة ، وأصدر أمره بالانسحاب الشامل فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح الخامس من يونيه .

ولم تكن الاسباب التى دفعته الى اصدار هذا القرار واضحة ، ولكن يبدو أنه تأثر من هزيمة حاملاته النفيسة التى لم يكن يتوقعها . ثم كتب عليه أن يواجه نازلة أخرى ، فقد اصطدم طرادان من طراداته الثقيلة ، وهما فى طريقهما الى جزيرة ميدواى لضربها حينما حاولا تفادى هجوم شنته غواصة أمريكية ، وقد أصيبا أصابات بالغة وتركا وحدهما حين بدأ التراجع الشامل .

وفى السادس من يونيه هاجمها طيارو سبروانس وأغرقوا أحدهما وخلفوا الآخر وهو يفرق ولكن هذه السفينة الحربية المدمرة موجتمى استطاعت أن تصل الى قواعدها .

وقد تراجع اليابانيون فى سكون كما جاءوا ، بعد أن احتلوا جزيرتى أتووكيسكا الصغيرتين فى المجموعة الغربية من جزر اليوشان .

ولا شك فى أن دراسة أوضاع القيادة اليابانية فى هذا الوقت مفيدة للغاية . وفى شهر واحد كلفت القوات البحرية والجوية اليابانية مرتين بالقتال ، وفقا لخطط متقنة وبإصرار وعناد .

وفى المرتين كان اليابانيون يتخلون عن هدفهم حينما تمنى قواتهم الجوية باضرار جسيمة بالرغم من أنه يكاد يسقط فى أيديهم وكان رجال ميدواى ، مثل الاميرالات ياماموتو وناجومو وكوندو وهم الذين رسموا ونفذوا خطط العمليات الحربية الجريئة والهائلة ، التى دمرت فى خلال أربعة أشهر أساطيل الحلفاء فى الشرق الاقصى . ودحرت أسطول بريطانيا الشرقى من المحيط الهندى . وقد انسحب ياماموتو من جزيرة ميدواى لانه اتضح من سير الحرب أن الاسطول بدون الحماية الجوية لايمكنه اذا كان بعيدا عن قاعدته آلاف الاميال ، أن يغامر ببقائه مع قوة ترافقها حاملات طائرات ظلت طائراتها سليمة . وقد أصدر أمره الى سفن النقل بالانسحاب ، لان مواصلة الهجوم عمل انتحارى مالم يعززه السلاح الجوى ، وذلك بالنسبة الى جزيرة تدافع عنها القوات الجوية ، ومساحتها صغيرة الى حد يجعل من الصعب القيام بأية مفاجأة .

ويعزى جمود التخطيط اليابانى وتعنته ، والرغبة فى التخلي عن الهدف حينما تسير العمليات وفق الخطط المرسومة الى طبيعة لغتهم المفزعة غير الدقيقة ، بحيث يصعب اختراع الخطط الحديثة ، ونقلها بوساطة المواصلات اللاسلكية .

الجهة الثانية

وصل كل من هارى هوبكنز والجنرال ماريشال الى لندن فى الثامن من شهر ابريل ، حاملين مذكرة وافية اعدتها رئاسة اركان الحرب الامريكية المشتركة وصدق عليها الرئيس روزفلت ولا شك فى ان اهمية هذه المذكرة تسوغ نشرها كاملة .

العمليات فى اوروبا الغربية - ابريل عام ١٩٤٢

نعتقد ان افضل مسرح للقيام بأول هجوم رئيسى تشترك فيه أمريكا وبريطانيا العظمى هو اوروبا الغربية وفى هذا المسرح وحده يمكن تطوير مواردنا المشتركة فى البر والجو تطويرا تاما وتقديم أقصى ما يستطيع من المساعدة لروسيا .

ومن المفروض ان يتخذ قرار يقضى بشن هذا الهجوم فورا نظرا للاستعدادات الهائلة اللازمة فى مختلف الاتجاهات والى ان نستطيع شن هذا الهجوم ، يجب ان يكون وضع العدو فى الغرب فى مركز دقيق وأن يعرض باستمرار لحالة من الحيرة والشك بوساطة الغارات والحداع ، فمثل هذه الغارات تمكننا من كسب معلومات قيمة ومن تدريب قواتنا على احسن وجه . .

ولا بد ان تتكون قوات الغزو المشتركة من ثمان وأربعين فرقة بينهما تسع فرق مدرعة على ان يكون لبريطانيا فيها ثمانى عشرة فرقة بينها ثلاث فرق مدرعة، وتحتاج القوات الجوية المساعدة الى ٥٨٠٠ طائرة للقتال بينها ٢٥٥٠ طائرة بريطانية ، والسرعة جزء أساسى فى المشكلة . ولعل أهم العقبات المعرقة هي قلة السفن اللازمة للانزال والهجوم ، ونسده البواخر الضرورية لنقل القوات من أمريكا الى بريطانيا ونستطيع ان نمد كل شئ دون ان تتأثر التزاماتنا الضرورية الأخرى فى مسارح الحرب الباقية قبل الاول من ابريل عام ١٩٤٣ على ان تكون ستون فى المائة من البواخر التى تقوم بالنقل غير أمريكية .

أما اذا اعتمد النقل على البواخر الامريكية وحدها فانه يتحتم تأخير الهجوم حتى أواخر صيف عام ١٩٤٣ .

وسنفتقر الى سبعة آلاف قطعة انزال تقريبا ولذا يتحتم علينا مضاعفة برامج البناء الحالية مضاعفة كبيرة لبلوغ هذا الرقم ، وفى الوقت نفسه يجب المبادرة فى الاعمال التمهيدية اللازمة لمواجهة قوات برية وجوية أمريكية واعدادها للعمل .

ويجب ان يحدث الغزو على شواطئ مختارة بين الهافروبولون وأن يكون على دفعات تتألف الدفعة الاولى منها من ست فرق على الاقل

تؤازرها في ذلك القوات الهابطة من الجو ، ويجب تعزيزها بما يوازي
مائة ألف رجل في الاسبوع ، وحينما تثبت رؤوس الجسور على الشواطئ
تبادر القوات المدرعة الى الاستيلاء على خط «الواز - سان كنتان» وبعد ذلك
تكون «انتويرب نفسها» هي الهدف الثاني .

ولما كان من المستحيل أن يتم هذا الغزو في اطار هذا النطاق قبل
الاول من ابريل عام ١٩٤٣ فانه كان يجب اعداد خطة يلاحظ فيها التوقيت
حتى آخر لحظة للقيام بعمل عاجل من قبل قوات قد تتنافر من وقت الى
آخر ، ويجب تنفيذ هذه الخطة كاجراء طارئ في حالة استغلال حدوث
انحلال الماني مفاجيء ، أو كتضحية للتفادي من انهيار المقاومة الروسية
العاجل ، والتفوق الجوي في كلتا هاتين الحالتين أمر بالغ الاهمية .

ومن ناحية أخرى ربما لانستطيع في خريف عام ١٩٤٢ ارسال
أكثر من خمس فرق أمريكية وتزويدها بما يلزمها، وفي هذا الوقت تتحمل
بريطانيا العبء الأكبر فمثلا يمكن أمريكا أن تجد في الخامس عشر من
سبتمبر فرقتين ونصف الفرقة من الفرق الخمس اللازمة ، ولا يجاوز
مايمكنها أن ترسله من طائرات سبعمائة طائرة ، وعلى هذا فان اشتراك
بريطانيا يكلفها خمسة آلاف طائرة .

وقد شعر هوبكنز بارهاق شديد من وعاء السفر وظل طريق الفراس
بومين أو ثلاثة في حين بدأ مارشال بمباحثاته فورا مع رؤساء أركان الحرب
البريطانيين ولم يكن من الممكن عقد الاجتماع الرسمي مع لجنة الدفاع قبل
يوم الثلاثاء في الرابع عشر ، وفي خلال ذلك درست الموضوع دراسة
وافية مع رؤساء الأركان والمزلاء وقد أبهجنا كثيرا مابدأ على أمريكا من
عقد العزم على التدخل في أوروبا ووضع هزيمة هتلر في الصدارة في
خططها وخاصة أن هذه الهزيمة كانت تتصدر كل خططنا وتفكيرنا
الاستراتيجي ، ولم يكن في وسع أي منا أو من المستشارين العسكريين
وضع خطة عملية لاجتياز المانش «بجيش بريطاني - أمريكي كبير»
والنزول في فرنسا قبل أواخر صيف عام ١٩٤٣ ، وقد بينت في فصول
سابقة ان هذا الغزول وذلك الموعد كانا هدفي بالاضافة الى التوقيت الذي
خططته وقد كان بين أيدينا المشروع الأمريكي الجديد للنزول بقوات لا بأس
بها في حالة الطوارئ في خريف عام ١٩٤٢ وكنا متأهبين تمام التأهب
لدراسة هذا المشروع أو أي مشروع آخر يستهدف توزيع قوة الماني
لمساعدة روسيا وللتخطيط لشن الحرب بصورة عامة .

وفي ليلة الرابع عشر اجتمعت لجنتنا الدفاعية في داوننج ستريت
رقم ١٠ وحضر الاجتماع أصدقاءنا الأمريكيون ، وكان البحث متشعبا
ومتأزما لكننا وصلنا الى نتيجة جماعية وقد التقت كلمتنا جميعا على أن
القناة يجب أن تجتاز في عملية أسمينها عملية الطرد في عام ١٩٤٣

ولم يكن في مقدورنا التخلي عن بقية واجباتنا عند التخطيط لهذا
المشروع الهائل ، حيث كان علينا واجب امبراطوري أولى في الدفاع عن
الهند ضد الغزو الياباني ، وهو خطر أضحي الآن ماثلا للغيان .

والى جانب هذا كان لواجب الدفاع عن الهند علاقة حاسمة بالحرب

كلها ولم نستطع أن ندع اليابانيين يكتسحون وينهبون أربعمئة مليون من رعايا جلالته في الهند ، نحس تجاههم بواجب الشرف ، وأن ندعهم في مواجهة عواصف الطغيان الياباني العاتية التي تعرضت لها الصين إذ أن مثل هذا التخلي من جانبنا يعد عملا مغيبا للغاية والسماح للألمان واليابانيين بالتلاقى في الهند والشرق الأوسط يحمل كارثة خطيرة لقضية الحلفاء كلها لا تقل في نتائجها عن تقهقر الروس إلى ما وراء جبال الأورال ، أو عقدهم صلحا منفردا مع ألمانيا ، ولم أكن أحسب أن أي هذه الاحتمالات دافع في هذه المرحلة فقد كنت أومن بقوة الجيوش الروسية والشعب الروسي واصرارهما على الدفاع عن وطنهما ، أما امبراطوريتنا الهندية فعلى الرغم من كل أمجادها فانها تتعرض للوقوع فريسة سهلة في قبضة العدو ، وكان لزاما على أن أعرض وجهة نظري هذه على المبعوثين الأمريكيين ، وإذا لم تنهض بريطانيا إلى مساعدة فعالة ، فقد يستولى عليها اليابانيون في خلال عدة أشهر ، أما استيلاء هتلر على روسيا فقد يحتاج إلى وقت أطول وتضحيات أكثر ، ولا مزية في أن هيمنة بريطانيا وأمريكا المشتركة على الجو ، سوف تصبح أمرا واقعا قبل أن يتم هذا الاحتلال ، وستصبح هذه الهيمنة عاملا حاسما ولو بات كل الحطط الأخرى بالفشل .

وقد اتفقت مع « هوبكنز » كل الاتفاق على ضرورة مهاجمة العدو وجها لوجه في شمالي فرنسا عام ١٩٤٣ ، لكن ماذا يجب أن نصنع قبل هذا الهجوم ؟ إذ ليس في طاقتنا أن ندع جيوشنا الرئيسية في فترة تاهب لا غير في هذا الوقت . وهنا حدث تصدع كبير في الرأي : فقد تقدم الجنرال ماريشال باقتراح لمحاولة الاستيلاء على « بريست وشربورج » أو الأخيرة - على الأقل - في خريف عام ١٩٤٢ ، وأكد ضرورة كون العملية بريطانية خالصة ، وتأمين الاسطول والقوة الجوية وثلاثي الجنود وكل معونات الانزال الكثيرة ، وإبان أن أمريكا لا يمكنها تأمين أكثر من فرقتين أو ثلاث ، وكان هذا الاقتراح جديدا علينا لأنه كان ينبغي أن ينصرم عامان - على الأقل - وأن تبذل جهود ضخمة وتجهيز قيادة فنية قوية من الصباط قبل تأمين قوات من الدرجة الأولى صالحة لمثل هذا الغرض ، لهذا كان مثل هذا المشروع من المشروعات التي يجب أن يرجح فيها رأى رؤساء أركان الحرب البريطانيين ، لأنه يحتاج قبل كل شيء إلى دراسة فنية كاملة .

وفي البداية لم أرفض الفكرة رفضا تاما ، بل أعددت في ذهني اقتراحات بديلة للاستعاضة بها عنها ، وقد كان أولاها : أن نقوم بالنزول في أفريقية الشمالية الفرنسية التي تشمل مراكش وتونس والجزائر وهي عملية سميناها : «لاعب الجمناز» ولم تلبث أن أضحت جزءا من عملية « الشعلة الكبرى » وقد حضرتني «فكرة بديلة أخرى» كانت تحلق دائما في مخيلتي ، وأيقنت أن في طاقتنا القيام بها مع حركة غزو أفريقية الشمالية في وقت واحد ، وهي : «حركة المشتري» التي تقصد تعزيز شمال النرويج ، وامتداد روسيا بالعون المباشر حيث تتاح الفرصة لتعاون عسكري مشترك مع قوات روسيا وأسطولها وسلاحها الجوي ، كما يمكن تأمين سلامة الطرف الشرقي من أوروبا وفتح طريق للامدادات على

أرحب نطاق إلى روسيا ، ومثل هذا المشروع - الذي ستجرى معاركه في منطقة قطبية - لا يحتاج إلى أعداد ضخمة من الرجال ولا من المؤن والعتاد وقد استطاع الألمان أن يحصلوا على هذه المواقع الاستراتيجية الهامة دون أن تكلفهم إلا اليسير ، وقد يمكننا استردادها دون أن تكلفنا الكثير .

وهكذا اتجه اختياري أولاً إلى عملية المشعل ، وقد أحاول الاتجاه إلى « عملية المشتري » أيضاً في عام ١٩٤٢ متى هب لي ذلك .

وقد بان لي أن محاولة خلق رأس جسر في شربورج أكثر صعوبة وأقل جاذبية وثمرية وعونا ، ومن الخير لنا أن ننشعب مخلصنا الأيمن في شمال إفريقية ، وأن ننشعب مخلصنا الأيسر في أقصى بحر الشمال ثم نترقب عاماً آخر قبل أن نغامر بنشوب أسناننا في القلعة الألمانية المنيعه عبر المانش .

لقد كانت هذه هي الآراء التي أفصحت عنها حينئذ ، ولم أعرض بنان الندم أسفا عليها قط ، ومع ذلك فقد كنت متأهباً لأن أمنح عملية « شربورج » التي سمينها « المطرقة الكبيرة » ماتتطلبه مع الاقتراحات الأخرى أمام لجان التخطيط من دراسة ، وكنت على يقين بأن هذه العملية ستسقط من حساب تفكيرنا إذا درسناها دراسة وافية ، ولو كانت لي الصلاحيات التي تخولني إصدار الأوامر ، لقررت البدء بعمليتي : « المشعل والمشتري » في الحريف القادم ، ولسمحت بنشر الشائعات عن عملية « المطرقة » وعن التأهب لها كستار يحجب حقيقة أغراضنا .

لكن كان علي أن استخدم كل نفوذ وأن أسلك كل أسلوب دبلوماسي رقيق للحصول على موافقة حليفنا العزيزة وتأييدها وانسجامها ، لأن مؤازرتها تحول دون تعريض العالم للدمار ، لهذا لم أقترح أي حل من هذه الحلول البديلة في الاجتماع الذي عقدناه في الرابع عشر من الشهر .

ولقد صادف الاقتراح الحاسم الذي قدمته الولايات المتحدة للقيام بغزو شامل لألمانيا في أقرب وقت ممكن بشرط أن تكون إنجلترا هي نقطة الانطلاق من الناحية الأساسية للقضية ترحيباً بالغاً منا ، وبعث في نفوسنا مباحج الفرح والسرور .

وكان من المحتمل أن نقابل - كما سنرى فيما بعد - خطط أميركا لأسباج الأولوية على مؤازرة الصين وسحق اليابان ، لكن الرئيس روزفلت والجنرال مارشال قد رأيا منذ بدء تحالفنا - بعد هجوم ميناء « الدر » بالرغم من تيارات الرأي العام المعارضة - أن هتلر هو العدو الأساسي الأول ، وكانت لي رغبة شخصية في مشاهدة الجيوش البريطانية - الأمريكية وهي تتقدم في أوروبا جنباً إلى جنب ، ولكنني كنت على يقين مطلق بأن دراسة التفاصيل : كالخطط المتعلقة بالنزول وما ماثلها .. والتفكير الواضح في استراتيجية الحرب الرئيسية ، سيدفعان إلى العدول التام عن « عملية المطرقة » وإذا حانت ساعة العمل الجاد ، فلن تستطيع أية سلطة عسكرية أو بحرية أو جوية على أي من جانبي الأطلنطي ، اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمثل هذه الخطة أو تحمل أعباء مسئولياتها - حسب

معلوماتي- ولا تستطيع النوايا المشتركة والتمنيات الطيبة الانتصار على مرارة الحقائق قسوتها .

وموجز القول ، أنني تقصيت باستمرار فكرتي التي ضمنتها مذكرتي التي قدمتها الى الرئيس في ديسمبر عام ١٩٤١ والتي تتلخص في أن على جيوش التحرير البريطانية - الأمريكية أولا ، أن تنزل في أوروبا عام ١٩٤٣ ، وأن انزال هذه القوة الهائلة لا يمكن اتمامه الا من جنوبي انجلترا ، وأنه يجب أولا ألا يمنع مانع من تحقيق هذه الغاية ، وأخيرا : ليس في طاقتنا أن نقف بمعزل عن الروس الذين يحاربون القوات الألمانية الضاربة في كل ساعة على نطاق هائل ، بل يجب أن نشتبك مع العدو .. وهذا التفكير يبدو أيضا في كل خطط الرئيس . فما الذي يمكننا أن نصنعه في الاشهر الاثني عشر أو الخمسة عشر التي يجب أن تنسلخ قبل أن نستطيع اجتياز المانش بقوات كبيرة .

ولا مرية في أن الاستيلاء على شمال أفريقية الفرنسي ، كان في حد ذاته ممكنا ومعقولا ، ويتفق مع الخطة الاستراتيجية الشاملة .

ولقد كنت آمل ، أن تتقدم هذه العملية جنبا الى جنب مع تدهور في النرويج ، ولا أزال أعتقد احتمال حدوث هاتين العمليتين في آن واحد وقد يكون من أفدح الاخطار أن يفقد الانسان بساطة الهدف وفرديته في مثل هذه المناقشات الحامية التي تتناول أمورا لاحصر لها ، على الرغم من أنني كنت آمل أن تتحقق عمليتا «المشعل والمشتري» في وقت واحد فأنني لم أكن أهدف قط الى أن تربك العملية الثانية العملية الاولى .. فعشاق التركيز وتكتيل كل الجهود التي تبذلها دولتان قويتان للقيام بهجوم قوى ، بلغت من الكثرة حدا لا يمكن أى غموض من أن يحول دون أية مشورة سليمة لهذا رأيت أن السبيل الوحيد ملء الفراغ ، قبل أن تستطيع اعداد كبيرة من القوات البريطانية والأمريكية محاربة الالمان مباشرة في عام ١٩٤٣ - هو : أن نقوم معا بالاستيلاء بالقوة على أفريقيا الشمالية بحيث يسير هذا الاحتلال مع الزحف البريطاني الى الغرب عبر الصحراء صوب طرابلس وتونس .

وأخيرا حين انتهى بحث كل الخطط والأدلة الأخرى أصبح هذا الموضوع يحتل قرار الحلفاء الغربيين .

وفي شهر مايو زارنا آخرون . فقد جاء مولوتوف ليفاوضنا في انشاء حلف انجليزى - روسى ، وليعرف وجهات نظرنا في موضوع اقامة الجبهة الثانية ، وقد تم الوصول الى التحالف المذكور ، كما دار البحث حول موضوع «الجبهة الثانية» بالتفصيل وأراد ضيوفنا الروس أن يكون نزولهم خارج لندن طيلة اقامتهم ، لذا وضعت تشيكوز تحت تصرفهم . وبقيت أنا في هذا الوقت في ملحق داوننج ستريت ، وأن كنت قد ذهبت الى تشيكوز لقضاء ليلتين فيها ، حيث سنحت لى الفرصة لاجراء مباحثات خاصة ومستفيضة مع مولوتوف والسفير مايسكى الذى كان من أحسن المترجمين لما يمتاز به من السرعة الفائقة وسهولة التعبير وادراكه موضوعات البحث .. وقد أردت أن أوضح لهما بوساطة الحرائط

ما نصنعه في هذا الوقت، وأبين الحدود والحصائص المعينة في الطاقة الحربية لدولة بحرية مثل بريطانيا ، وقد أفضت في الحديث عن « أساليب الحرب البرمائية » ، وأوضحت مانكابه من أهوال ومشاق في سبيل المحافظة على شريان حياتنا عبر الاطلنطي من هجمات الغواصات ، واعتقد أن مولوتوف قد تأثر بكل ماقلت ، وعرف أن مشكلتنا تختلف كلياً عن مشكلة دولة برية ضخمة ، وعلى أية حال فلقد كانت هذه المباحثات خير معين على التقارب بيننا أكثر من أى وقت مضى .

وفي خلال زيارة مولوتوف لتشيكورز ظهرت الشكوك المتأصلة لدى الروس تجاه الاجانب فى بعض الحوادث البارزة فقد طلبوا عند وصولهم مفاتيح كل غرف النوم ، واستطاع رجالنا أن يحصلوا عليها بصعوبة بالغة وراح الضيوف يغلزون على أنفسهم أبواب هذه الغرف باستمرار ، وحينما كان الخدم يدخلون الغرف لأصلاح الاسرة ، كانوا يعثرون على المسدسات تحت الوسائد ، فى كل مرة ، وقد أتى الثلاثة الكبار من أعضاء البعثة بضباط أمنهم لحراستهم ، كما أتوا بامراتين روسيتين للاهتمام بملابسهم وتنظيف غرفهم ، وحينما كان المبعوثون الروس يغادرون « تشيكورز » الى لندن كانت المرأتان تتبادلان حراسة غرف الضيوف باستمرار ، فلا تنزلان معا لتناول وجبات الطعام ، ومع ذلك أظهرت المرأتان بعض اللين بعد أيام قلائل من الزيارة ، وطفقتا تتحدثان الى خدم المكان بفرنسية غير سليمة أو بالاشارة .

وقد اتخذت اجراءات وقائية أكثر من المعتاد لحماية مولوتوف والمحافظة على سلامته ، وقام رجال شرطته بتفتيش حجرة نومه ؛ ولم يدعوا خزانة فيها أو شبرا أو قطعة من أثاث دون أن يفتشوها تفتيشا دقيقا بعين بصيرة ، وقد كان تفتيش السرير والفراش موضع اهتمام خشية أن تكون بهما معدات فتاكة ، وكان الروس يقومون بأعادة تنظيم الفراش لكي يمكنوا صاحبه من الفرار منه اذا ما شعر بالخطر يداهم ، بدلا من الوقوع فى الشرك .

وفي الليل كان يضع مسدسه وحقيبة أوراقه الى جانبه ، ومن الواجب أن نتخذ دائما أشد الاحتياطات أيام الحرب للوقاية مما قد يحدث من أخطار ، لكن أى اجراءات تتخذ ينبغي أن يراعى فيها الحرص على تقدير الواقع تماما ، ولعل أيسر امتحان : أن يسأل المرء نفسه دائما هل للفريق الآخر منفعة فى قتله ، وحينما توجهت الى موسكو منحت الروس ثقتى المطلقة فى حسن ضيافتهم .

وطار مولوتوف الى واشنطن ثم قفل عائدا بالمشروعات التى تتضمن اجتياز القناة فى عام ١٩٤٢ ، وكنا لانزال ندرس هذه المشروعات دراسة جدية مع أركان الحرب الامريكيين ، ولم تبد لنا بعد نتيجة دراستنا غير المصاعب ، ولم يكن هناك حرج فى اصدار بيان ذى صبغة عامة قد يرغب الألمان على التخوف وابقاء أكبر عدد ممكن من جنودهم فى الغرب ، ولقد وافقنا على اصدار بيان رسمى أعلن فى الحادى عشر من يونيو ، واشتمل على العبارة التالية :

« وتم التفاهم أبان المحادثات على الضرورة الملحة لإنشاء الجبهة الثانية فى أوروبا عام ١٩٤٢ »

ورأيت من الأهمية القصوى أنه يتحتم علينا ألا نحاول خداع حليفنا حين نحاول خداع العدو ولهذا قمت فى الوقت الذى كنا نعد فيه مسودة البلاغ الرسمى ، بتسليم مولوتوف شخصيا - داخل غرفة مجلس الوزراء وبحضور عدد من الزملاء - مذكرة أبنت فيها : أنه على الرغم مما سنبدله من جهد مستطاع لوضع الخطط اللازمة فإننا لانستطيع أن نتقيد أونرتبط بوعود معينة ؛ لهذا حينما وجه إلينا اللوم فيما بعد وحين أثار ستالين الموضوع معى بصفة شخصية كنا دائما نستخرج المذكرة ونومىء الى العبارة التى جاءت فيها بأننا لانستطيع أن نتقيد بأى تعهد ، وهذا نص المذكرة :

مذكرة

« اننا نقوم بوضع الخطط الضرورية لنزولنا فى القارة فى أغسطس أو سبتمبر عام ١٩٤٢ . وكما أبنا فيما سبق ، تحدد الحاجة الى سفن الانزال الخاصة قوة ما سيجرى انزاله من قوات ، ومن الجلى أنه ليس فى صالح قضية الروس أنفسهم ولا فى صالح قضية الحلفاء ككل أن نقوم بعملية لمجرد القول بأننا قد عملنا بأى ثمن ، تؤدى الى كارثة وتمنح العدو فرصة مواتية لاغتنام الأمجاد والمفاخر نتيجة هزيمتنا ، ومن العسير أولا أن نقول : هل سيؤدى الوضع الى جعل مثل هذه العملية أمرا ممكنا حين يجرى وقتها المناسب ؟ ولهذا : فليس فى طاقتنا أن نبذل أى وعد فى هذا الامر ، لكن اذا تحقق لنا ان مثل هذا المشروع معقول ومنطقي أيضا ، فإننا لن نتردد أبدا فى تنفيذه . »

وفى الاسابيع القادمة خطت آراء الخبراء خطوات واسعة وقد ركزت افكارى كلها على عملية « المطرقة » الكبرى وطلبت من مستشارى امدادى بتقارير دائمة ومستمرة ، وسرعان ما انكشف لى ما فيها من صعاب ومتاعب فاكتمساح شربورج بجيش ينزل من البحر فى مواجهة المقاومة الألمانية التى قد تفوق قواتنا عددا وتفيد من حصونها المنيعه ، عملية فى غاية الخطورة ، ولو كتب لهذه العملية النجاح ، فان قوات الحلفاء ستجد نفسها مضطرة الى البقاء محصورة فى شربورج وشبه جزيرة كوتنتان مدة عام على الاقل ، تعتمد على نفسها فى التزود بما يفتقر اليه من المؤن والذخائر ، وتتصدى لضرب الطائرات والمدفعية المتواصل والطريق الوحيد لاىصال هذه الامدادات هو ميناء شربورج نفسه الذى يتحتم علينا الدفاع عنه ضد غارات جوية مستمرة ومتفوقة فى الغالب طيلة فصلى الشتاء والربيع ، ومثل هذه العملية سوف تفرض على مواردنا البحرية والجوية حملا ثقيلا ، قد يستنزفها ويؤثر على عملياتنا الاخرى ، واذا كتب لنا النجاح فى هذه العملية فسنرغم على الخروج من شبه جزيرة كوتنتان فى فصل الصيف المقبل بعد أن نكتسح سلسلة طويلة من خطوط الدفاع الألمانية التى تقوم بحمايتها أية قوات يمكن الالمان توفيرها للدفاع عنها .

ولو تحقق هذا فرضا فلن يكون هناك سوى خط حديدي واحد يمكننا استخدامه في التقدم ، ولا شك في أن الألمان سيحطمونه قبل أن يتمكن من استخدامه وإلى جانب هذا لا يمكنني أن أفهم كيف يمكن أن يساعد هذا المشروع الفاشل روسيا ، فقد خلف الألمان في فرنسا خمسا وعشرين فرقة متحركة وليس في وسعنا أن نجهز قبل شهر أغسطس أكثر من تسع فرق لعملية المطرقة ، من بينها سبع فرق بريطانية ، ولهذا لم تكن هناك حاجة لدى القيادة الألمانية إلى استدعاء فرق جديدة من الجبهة الروسية .

وفي الوقت الذي أخذت فيه هذه الحقائق وما شاكلها تظهر ببشاعتها أمام ضباط الأركان ، بدأ شيء من الريب والاحتياج إلى الحماسة يظهر لاعند ضباط الأركان البريطانيين فحسب ، بل عند رفاقهم من الأمريكيين أيضا .

وظلت محادثات الأركان جارية طوال فصل الصيف . هذا وقد تم العدول عن عملية المطرقة الكبرى بالاجماع ، ولم ألق من الجهة الأخرى تأييدا ايجابيا لعملية المشتري في شمال النرويج . واتفقنا كلنا على أن نقوم بغزو رئيسي عبر القناة في عام ١٩٤٣ وكان السؤال الذي يحضر في أذهاننا بصورة واضحة لا تقبل الجدل والنقاش هو : ماذا سنصنع في هذا الوقت ؟ لقد كان من العسير أن تقعد بريطانيا وأمريكا دون قتال ، طوال هذه الفترة إلا في معركة الصحراء ، وكان الرئيس مصرا على أنه يجب على الأمريكيين أن يحاربوا الألمان على أوسع نطاق مستطاع ابان عام ١٩٤٢ .

ولكن في أي ميدان يمكن أن يجري هذا القتال ؟ انه لا يمكن أن يجري إلا في افريقيا الشمالية الفرنسية . وقد ارتضى الرئيس هذا المشروع . وهكذا يمكن للحظة الصالحة أن تبقى دون غيرها من الخطط وأنا في انتظار الرد الأمريكي .

موسكو

الاجتماع الاول

فى ساعة متأخرة من ليلة العاشر من شهر أغسطس بعد ان تناولنا العشاء فى دار سفارة القاهرة الرائعة الجميلة مع عدد من الشخصيات ، بدأنا رحلتنا الى موسكو ، وكان فريقى الذى شغل رجاله ثلاث طائرات حينذاك - يتكون من رئيس أركان حرب الامبراطورية والجنرال « ويفل » الذى يعرف الروسية وماريشال «الجو تيدر» والسير «اليكسندر كادوجان» وكان افريل هاريمان قد وصل أخيرا من أمريكا بناء على طلب منى قدمته الى الرئيس ، وقد سافرنا معا فى طائرة واحدة ، وعند الفجر ، كنا نقرب من جبال كردستان ، حيث كان الجو بديعا ، وكان طيارنا «فاندركلوت» فى أحسن حالاته ، وعندما اقتربنا من هذه الأرض الجبلية السامقة .. سألته عن الارتفاع الذى يعتزم أن يبلغه فى طيرانه فقال : انه تسعة آلاف قدم وهو ارتفاع مناسب ، ثم حانت منى التفاتة الى الخريطة فرأيت قمما يرتفع بعضها الى أحد عشر ألفا أو اثني عشر ألفا ، كما رأيت احداها ترتفع الى ثمانية عشر ألفا أو عشرين ألفا وان كانت بعيدة ، وفى وسع المرء ، ما لم تعترضه سحب مبالغتة تحيط به أن يسلك سبيلا ملتويا بين الجبال فى أمان وطمأنينة ومع ذلك طلبت الارتفاع الى مدى اثني عشر ألفا وبدأنا نمتص الاوكسجين من أنابيبنا ، وعندما هبطنا فى الثامنة والنصف صباحا فى مطار طهران - وكنا قد اقتربنا من الأرض - لاحظت أن جهاز قياس الارتفاع ، كان يسجل أربعة آلاف وخمسمائة قدم فقلت - عن جهل - «من الأفضل اصلاح هذا الجهاز قبل أن نستأنف الطيران من طهران» ، فرد «فاندركلوت» قائلا : «ان مطار طهران يرتفع مثل هذه المسافة عن سطح البحر» .

وكان السير « ريدر بولارد » وزير جلالته المفوض فى طهران ينتظرني بالمطار ، وقد كان بريطانيا يتسم بالعنف والقسوة ، وله خبرة طويلة بشتون ايران ولا يجرى وراء الأوهام .

وقد تأخرنا كثيرا ، حتى أننا لم يعد فى وسعنا اجتياز جبال البروز قبل أن ينشر الظلام جناحيه ، وقد دعيت لتناول الغداء مع الشاه فى قصر به حوض سباحة رائع يقوم وسط أشجار عالية على ارتفاع ملحوظ بين الجبال ، وكانت القمة العظمى التى لاحظتها فى الصباح على الخريطة تسطح أضواؤها بألوان قرمزية وبرتقالية ، وقد عقدنا فى حديقة دار المفوضية البريطانية بعد الظهر ، اجتماعا طويلا حضره افريل هاريمان وكبار موظفى السكك الحديدية من بريطانيين وأمريكيين ، وتقرر أن تتولى أمريكا ادارة السكك الحديدية عبر ايران كلها من خليج البصرة الى بحر قزوين . وكان هذا الخط الحديدى - الذى قامت باتمامه شركة هندسية

بريطانية - آية في روعة العمل الهندسي ؛ فقد لشتمل على ما يقرب من ٣٩٠ جسرا كبيرا على طول الخط عبر المضائق الجبلية وقال هاريمان : ان الرئيس يرغب في تحمل المسئولية الكاملة عن ادارته وتشغيله الى ابعد حدود طاقته ، وفي وسعه ان يؤمن له القاطرات والعربات والحبراء في وحدات عسكرية الى الحد الذي نعجز عن تأمينه ، ولذا فقد وافقت على عملية النقل هذه بشرط ان ينص على اعطاء الأولوية لاحتياجاتنا العسكرية الملحة ، وقد قضيت ليلي في القصر الصيفي للمفوضية البريطانية ، وهو يرتفع عن طهران بما يقرب من ألف قدم بسبب شدة الحر وضوضاء العاصمة ، حيث بدا وكأن كل شخص يملك سيارة تنطلق الاصوات من أبوابها باستمرار .

وفي السادسة والنصف من صباح اليوم التالي وكان يوافق الثاني عشر من أغسطس غادرنا طهران وارتفعنا ونحن نظير فوق الوادي العظيم الذي يؤدي الى «تبريز» ثم اتجهنا شمالا الى «اينزلي» على بحر قزوين ، واجتزنا هذه السلسلة الثانية من الجبال على ارتفاع يقرب من أحد عشر ألف قدم لنتفادي قممها وسحبها في آن واحد وكان معنا الضباط الروس وقد تحملت الحكومة السوفيتية مسئولية سيرنا وسلامة وصولنا ، وبدأت المردة من الجبال المغطاة بالثلوج الى الشرق ، ولاحظت أننا نظير وحدنا ، وقد أوضحت لنا احدى الرسائل اللاسلكية سبب تأخر طائرتنا الثانية التي تضم رئيس أركان الامبراطورية وويفل وكادوجان وغسيرهم اذ اضطرت الى العودة الى طهران بسبب خلل طرأ على آلاتها ، وبعد ساعتين كنا فوق مياه بحر قزوين ، ثم لاحظت لأعيننا «اينزلي» أسلفنا ولم أكن قد رأيت بحر قزوين من قبل ولكني تذكرت : كيف أننى قبل ربع قرن تقريبا - وكنت اذ ذاك وزيرا للخزينة - ورثت أسطولا ، ظل يسيطر سنة كاملة على مياه الهادئة الشاحبة ، وقد هبطنا الآن الى ارتفاع لم نعد فيه بحاجة الى كميات اضافية من الاكسجين على شواطئ البحر الغربية التي كنا لا نرى منها الا لاما حيث تقوم آبار بترول «باكو» وكانت الجيوش الألمانية قد اقتربت حينذاك من بحر قزوين ، فاتجهنا بطائرتنا الى «كويبيشيف» مبتعدين عن ستالينجراد ومناطق القتال ووصلت بنا هذه الحركة الى دلتا نهر الفولجا تقريبا وامتدت آفاق شاسعة من الأرض الى أقصى مدى وكانت هذه الأراضي تبدو منبسطة سوداء ، لا أثر فيها لحياة انسان ، وكنا نرى هنا أو هناك أجزاء مخططة محروثة من الأرض ، تشير الى وجود مزرعة للدولة ورأينا نهر الفولجا العظيم ينساب في دعة بين خطين عريضين من المستنقعات الواسعة ، كما كنا نرى أحيانا طريقا مستقيما كل الاستقامة يمتد من أفق شاسع الى آخر ، وبعد أن قضيت ساعة في استجلاء روعة هذا المنظر الذي يستهوي الأفئدة ويسحر العقول ، عدت أنشد الراحة فاستسلمت للنوم .

وقد فكرت في أمر هذه الدولة البلشفية التي كنت برما بها ، حيث حاولت جهدى خنقها عند ولادتها ، وكنت اعتبرها حتى ظهور هتلر العدو الاول للحرية الحضارية ، وأخذت أسأل نفسي ماذا ينبغي أن أقول لرجال هذه الحكومة الآن ؟ لقد لحص الجنرال ويفل - ذو الميول الادبية - كل ما اريد ان أقوله في قصيدة واحدة . . . كانت هناك أبيات كثيرة من الشعر

ولكن البيت الاخير من كل مقطع كان هو : « لن تكون هناك جبهة ثانية في عام تسعمائة واثنين واربعين » ان هذا القول أشبه مايكون بنقل كمية هائلة من الثلج الى القطب الشمالى . ومع ذلك فقد شعرت أن من واجبى ان أنقل اليهم الحقائق شخصيا ، وأن أجابه بها ستالين وجها لوجه بدلا من أن أكلها الى البرقيات الوسطاء ، فمثل هذا الاتصال المباشر ، يبدى اهتمامنا بهم وبمصائرهم - على الأقل - ويوضح تفهمنا لما يعنيه كفاحهم للحرب عامة . وقد كنا بالطبع نكره دائما نظام حكمهم ، كما كانوا هم كذلك الى أن هوى سوط الألمان عليهم . . انهم كانوا يؤثرون رؤيتنا - ونحن نمحى من الوجود - دون اهتمام ليقسموا امبراطوريتنا في الشرق مع هتلر فرحين .

ولما كان الجو مناسبا والرياح مواتية ، وكانت رغبتى قوية عارمة في الوصول الى موسكو بأسرع وقت ممكن : تقرر أن نختصر الطريق عند زاوية « كويبيشيف » ونتجه فورا الى العاصمة وكل ماخشيت أنه نكون قد اضعنا عليه مادية رائعة وحفاوة كبيرة بروح الكرم الروسى الصادق وفي الساعة الخامسة تقريبا بدأت قباب موسكو ومنايرها تبدو أمامنا وقد طفنا حول المدينة في طرق تم تخطيطها بعناية ومهارة وتم تحذير بطاريات المدافع المضادة من اطلاق النار على طائرتنا ثم هبطنا في المطار الذى قدر لى أن أعود اليه في أثناء زيارتى له ابان الحرب .

ورأيت أمامى مولوتوف على رأس مجموعة من الجنرالات ورجال السلك الديپلوماسى مع عدد ضخم من مصورى الصحف الذين اعتدنا ان نشاهدهم في مثل هذه المناسبات ، وقد استعرضنا حرس شرف رائع الهندام على نظام عسكري طيب ، وبعد أن عزفت الاناشيد الوطنية للدول العظمى الثلاث التى ستقرر مصير هتلر ، توجهت الى مكبر الصوت وألقيت كلمة قصيرة وتحدث «أفريل هاريمان» بالنيابة عن الولايات المتحدة وقد تقرر أن يقيم هاريمان في دار السفارة الامريكية ، أما أنا فقد حملنى مولوتوف بسيارته الى المكان الذى أعد لنزولى على بعد ثمانية أميال من موسكو وهى « دار اندولة رقم ٧ » ، وحينما كنا نمر فى شوارع موسكو التى بدت خالية أمامى ، أدنيت زجاج النافذة يربو على البوصتين ، وكم أدهشنى أننى رأيت سمك زجاج النافذة يربو على البوصتين ، على على أن هذا التحفظ قد فاق كل ماسبق أن مارسته أو باشرته من تجربة . وقال المترجم « بافلوف » : « يقول الوزير ان هذا أكثر حيطة وحكمة » ، وبعد أكثر من نصف ساعة بقليل كنا في المكان الذى خصص لى .

وقد أعد كل شيء بما عرف عن الأنظمة الجماعية من افراط ، على انه كان تحت أمرتى ضابط مرافق رائع الصورة مهيب الطلعة ، يمت الى احدى الأسر النبيلة في عهد القيصرية - فيما أعتقد - وقد قام بدور المضيف بالنسبة لى فكان نموذجا طيبا لدماثة الخلق والعناية ، وكان هناك عدد من الخدم المهرة يرتدون ملابسهم البيض التقليدية تعلووجوهم ابتسامة مشرقة ، وقد وقفوا ينتظرون تلبية كل طلب أو اشارة من الضيوف ، وفي غرفة الطعام ، تمت مائدة كبيرة وعدد آخر من الموائد الصغيرة ، خوت الذ وأطيب مايمكن أن يجمعه المرء على مائدة من ألوان

الطعام ، وقد كشفت الانوار الكهربائية الساطعة روعة الحمام ونظافته .. تفجر منه الماء الساخن والبارد وتاقت نفسى الى حمام ساخن يزيل ما عانيت من ارهاق وما أصابنى من حرارة الجو فى رحلة طويلة شاقة .. وفى سرعة فائقة أعد كل شىء .. ولاحظت أن الاحواض لا تمتلئ بالماء الساخن أو البارد كل منها على حدة ، بل ينزل الماء من صنوبر واحد وفقا لدرجة الحرارة التى يرغبها المرء ، ولا يغسل الانسان يديه فى الحوض ، بل تحت السيل المتدفق من الماء وقد اقتبست هذا النظام فى بيتى ، وأستطيع أن أقول : انه اذا توافرت المياه فتلك هى الطريقة المثلى .

وبعد أن أشبعت رغبتى فى الغطس والاستحمام أنضمت الى الرفاق فى قاعة الطعام ، حيث قدم لنا كل ألوان الطعام والشراب وفى مقدمتها - الكافيار والفودكا - مع عدد من ألوان الخمور الفرنسية والالمانية وأطعمتها بشكل لا يمكننا الاتيان عليه ولم يبق أمامنا سوى وقت قصير ننتقل بعده الى موسكو وقد أبلغت مولوتوف أننى سأكون متاهبا لمقابلة ستالين تلك الليلة ، وقد اقترح «مولوتوف» أن يتم الاجتماع فى الساعة .

ووصلت الى الكرملين ، واجتمعت لأول مرة بالزعيم الثورى العظيم ، والسياسى الروسى المكتمل ، ذلك المحارب الذى قدر أن يرتبط به ارتباطات رسمية وثيقة فضلا عن أنها مشيرة وان كانت احيانا فى منتهى الرقة والدمائة ، وقد استغرق اجتماعنا أربع ساعات كاملة ، ولما كانت طائرتنا الثانية لم تصل بعد حامله «بروك وويفل وكادوجان» فقد اقتصر الحاضرون على « ستالين ومولوتوف وفورشيلوف وعلى أنا وهريمان وسفيرنا فى موسكو مع عدد من المترجمين » وقد استندت فى الوصف التالى على تدويننا للوقائع كما تذكرتها فيما بعد وكما بعثت بها فى برقياتى الى الوطن حينئذ .

وكان الجفاف والفتور يسودان الساعتين الأوليين وقد بدأت الحديث فورا عن الجبهة الثانية قائلا : اننى اود التحدث بصراحة كما أطلب من ستالين أن يبادلنى الصراحة نفسها ، فما قدمت الى موسكو الا لأننى أحس بأنه يستطيع البحث فى الامور الواقعية ، فعندما جاء «مولوتوف» الى لندن ، كنت قد ابلغته اننا نقوم بمحاولة لوضع خطط لتحويل بعض ضغط الالمان الى فرنسا ، ولكنى كنت قد أوضحت لمولوتوف أنه ليس فى وسعى أن أعد بشىء فى عام ١٩٤٢ ، وقد سلمته مذكرة تتضمن هذا المعنى ، ثم بدأت منذ ذلك التاريخ دراسات شاملة مفصلة من جانب بريطانيا وأمريكا معا لهذه المشكلة وقد توصلت الدولتان الى الاستنتاج بأنهما تعجزان عن القيام بعملية رئيسية فى سبتمبر - وهو الشهر الأخير من السنة الذى يمكن الاعتماد على طقسه للقيام بمثل هذه العملية - لكن الدولتين - كما يعلم ستالين ولا شك - تعدان العدة للقيام بعملية عظيمة فى عام ١٩٤٣ ، ولهذه الغاية من المنتظر أن يصل الى مراكز التجمع فى إنجلترا فى ربيع عام ١٩٤٣ ، ما يقرب من مليون جندي امريكى ، يؤلفون حملة تضم سبعا وعشرين فرقة تضيف اليها بريطانيا احدى وعشرين فرقة أخرى ، وسيكون نصف هذه القوات تقريبا من سلاح المدرعات ولم تصل الى بريطانيا حتى الآن الا فرقتان

ونصف فرقة ، لكن اضخم عمليات النقل ستتم في أشهر أكتوبر ونوفمبر
وديسمبر .

وقد قلت لستالين : اننى اعرف ان هذه الخطة لا تحقق مساعدة
لروسيا في عام ١٩٤٢ ، ولكننى أعتقد أن من الممكن حينما يتم الاعداد
لخطة عام ١٩٤٣ ، أن يكون للألمان جيش في الغرب أقوى مما لديهم الآن ،
وعندما وصلت الى هذه النقطة تجهم وجه ستالين وبدأ عليه العيوس ،
ولكنه لم يقطع على حديثى ، وقلت : ان لدى أسبابا قوية تحول دون
القيام بهجوم على الساحل الفرنسى في عام ١٩٤٢ ، فليست لدينا الآن
وسائل ومعدات للانزال تكفى ممارسة انزال أكثر من ست فرق والمحافظة
عليها عند وقوع هجوم على ساحل محصن ، واذا نجح هذا الهجوم ،
فقد يكون فى وسعنا أن نبعث بفرق أخرى ، على أن افتقارنا الى وسائل
الانزال هو العامل الذى يحدد أية حركة من جانبنا ، وهو افتقار نحاول
اصلاحه الآن بالاكثار من تهيئة وبناء هذه الوسائل فى بريطانيا ، ولاسيما
فى الولايات المتحدة وقد يكون فى وسعنا أن ننقل فى العام المقبل ثمانى
فرق أو عشرة مقابل كل فرقة نستطيع نقلها هذا العام .

وقد بدأ ستالين متجهما مقطب الجبين ، وكأنه غير مقتنع بكل
ما قلته ، ثم سأل : أيستحيل أن تقوم بمهاجمة أى جزء من الساحل
الفرنسى ؟ فعرضت عليه خريطة توضح العقبات التى تحول دون اقامة
مظلة جوية فوق قوات الغزو ، الا فوق « مضايق دوفر » وبدأ لى انه
لم يفهم ووجه بضعة أسئلة عن سرعة الطائرات المحاربة فيها ، أو ليس
فى استطاعة هذه الطائرات مثلا أن تفدو وتروح طيلة الوقت ؟ وقد
أوضحت أن فى وسعها أن تفعل ، ولكنها فى مثل هذا المدى لا يمكنها أن
تحارب ، وأضفت : أن من الواجب الإبقاء على أية مظلة مفتوحة ، اذا
أريد منها أن تكون مجدية ، وقال : انه ليست هناك فى فرنسا أية فرقة
المانية ذات قيمة ، وهى جملة عابرة سارعت الى نفيها ودحضها وأكدت
له أن فى فرنسا الآن خمسا وعشرين فرقة ألمانية بينها تسع من فرق
الحط الأول ، وهز ستالين رأسه وقد داخله الشك فى ذلك . . . وقلت
له اننى قد أصطحبت معى رئيس أركان حرب الامبراطورية والجنرال
« ويفل » للبحث فى مثل هذه النقاط بالتفصيل مع أركان الحرب
الروسي فهناك نقطة يقف عندها الساسة فى مناقشتهم المتعلقة بمثل هذه
الموضوعات ولا يستطيعون مجاوزتها .

وقال ستالين - وقد اشتد تجهمه ، انه قد فهم منى اننا عاجزون
عن فتح جبهة ثانية بقوات كبرى ، وأننا غير راغبين فى انزال ست فرق،
فاكدت له أنه فى وسعنا انزال ست فرق ، ولكن الضرر الذى يحدث
نتيجة انزالها أكبر من النفع الذى يترتب على هذا الانزال ، اذ أنه
سيؤثر تأثيرا ضارا على العملية الكبرى التى نعد العدة للقيام بها فى العام
المقبل : فالحرب حرب لا حماقة ، ومن حماقة أن يسعى الانسان بنفسه
الى كارثة لا نفع فيها لأى فريق ، وقلت له : اننى أخشى أن تكون الانباء
التي حملتها سيئة . وانه اذا كان فى استطاعتنا أن نبعث ما بين مائة
 وخمسين الفا الى مائتى الف من الجنود - كمظاهرين له - وانها

ستكون قادرة على سحب قوات المانية ضخمة من الجبهة الروسية ، فانا لن نتردد لحظة واحدة في القيام بهذه الخطوات مهما تكبدنا بسببها من خسائر ، أما اذا لم تؤد الى سحب أية قوات ، فإن القيام بها يكون خطأ فادحا ، ولا سيما اذا كانت تؤثر على آمالنا في « حملة عام ١٩٤٣ » .

وقال ستالين - وقد بدا عليه القلق - : ان نظرتة الى الحرب تختلف عن نظرتنا ؛ فالرجل الذي لا يكون مستعدا للمجازفة لا يستطيع ان يظفر في الحرب ، فلماذا اذن هذا الخوف الشديد من الألمان ؟ انه لا يستطيع ان يفهم له سببا ، وقد علمته التجارب ان القوات ينبغي ان تدمى في المعارك ، واذا لم تعرض قواتك للدماء فلن تقوى على الحكم على قيمتها ، وسألته : ألم تسأل نفسك ابدا لماذا أحجم هتلر عن غزو انجلترا في عام ١٩٤٠ عندما كان في أوج قوته ولم يكن لدينا أكثر من عشرين ألف جندي مدربين ومائتي مدفع وخمسين دبابة ، ولكنه لم يقم بهجوم ، لأن هتلر خاف ان يقوم بالعملية ، فليس من اليسير اجتياز قناة المانش ، ورد ستالين قائلا : ان ما قلته لا يعتبر تشبيها فان نزول هتلر في انجلترا سيلقى مقاومة من جانب الشعب ، أما نزول البريطانيين في فرنسا ، فسيرحب به الشعب الفرنسي ، وهنا اوضحت له ، ان هذا ينحى جانبا فكرة الغزو غير الناضجة ، اذ ان أى تراجع آخر سيعرض الشعب الفرنسي للانتقام هتلر ، ويبدد قوى هذا الشعب التي سنفتقر اليها أشد الافتقار في عملية عام ١٩٤٣ الكبرى .

وابتسم ستالين ابتسامة متكلفة ، وقال اخيرا : اننا اذا لم نستطع ان ننزل في فرنسا هذا العام ، فليس من حقه الالتجاء على ولكنه يرى ان من واجبه ان يقول : انه لا يسايرنى فى آرائى !

وقد عرضت حينئذ خريطة لجنوب شرقى أوروبا والبحر المتوسط وشمال افريقية ، فما هى اذن الجبهة الثانية ؟ اترأها مجرد نزول على ساحل محض مقابل انجلترا ؟ أم انها يمكن ان تتبلور في مشروع آخر ضخم ، قد يكون مفيدا للقضية المشتركة ؟ وقد رأيت من الافضل ان امضى به جهة الجنوب في خطوات ، وقلت : اننا اذا استطعنا مثلا ان نوقف تقدم العدو في خليج كاليه بوساطة جمع قوات ضخمة في بريطانيا ، واذا استطعنا في الوقت نفسه ان نقوم بالهجوم مثلا في « اللوار » أو « الجيرونند » أو « الشلدا » فان مثل هذا الهجوم ، سيكون مفعما بالاحتمالات ، فهناك حتما صورة شاملة للعملية الكبرى في العام المقبل . . وقد أعرب ستالين عن خشنيته الا تكون خطتنا عملية ، وقد رددت عليه بأن من المتعذر حقا انزال مليون رجل ولكن علينا ان نحاول ونصل الى النجاح !

وبعد ذلك تحولت الى موضوع الغارات على ألمانيا وقد قبلنا مادار حوله من بحث وقد أكد ستالين أهمية تحطيم معنوية الشعب الألماني ، وقال : انه يعلق أهمية كبيرة على عملية الهجوم الجوى وأنه يدرك أن غاراتنا تخلف وراءها أثرا كبيرا في ألمانيا .

وبعد هذه المقدمة - التي كان لها اثر بالغ في تخفيف حدة التوتر

بعض الشيء - قال ستالين : انه يفهم من حديثنا الطويل اننا لن نقوم بعملية « مطرقة » او عملية « طراد » وأن كل ما سنقوم به لا يتجاوز ضرب ألمانيا من الجو ، وقررت أن أمنحه الجرعة المصرة أولا ، وأن أهيب الجو الصالح للمشروع الذي قدمت لعرضه والكشف عنه ، ولهذا لم أحاول بصفة عاجلة أن أخفف من أكفهرار الجو المحيط بي ، وقلت : أن من المحتمل أن يكون الحديث بين الاصدقاء والزملاء الذين يتعرضون للمخاطر سويا في غاية الصراحة ، لكن دماثة خلقى انتصرت أخيرا .

وعندما حان الوقت للقيام بعملية « المشعل » قلت : اننى ارغب في العودة الى موضوع الجبهة الثانية في عام ١٩٤٢ ، وهو الموضوع الذى قدمت من أجله ، فأنا لا أعتقد أن فرنسا هي المكان الوحيد الذى يصلح لمثل هذه العملية ، فهناك أماكن أخرى وقد اتخذنا نحن والأمريكيون قرارنا - المتعلق بخطة أخرى - حولنى الرئيس الأمريكى أن أفضى اليك بصورة سرية ، ولذا سأفضى بها اليك الآن مؤكدا أهمية السرية وضرورتها .. وهنا جلس ستالين مقطب الحاجبين وقال : انه يأمل ألا ينشر شيء عن هذه الخطة فى الصحف البريطانية .

واخذت أشرح لستالين بالتفصيل عملية « المشعل » ، وفى خلال حديثى هذا رأيت ستالين وقد بدت على وجهه علامات الاهتمام ، وكان أول سؤال وجهه السؤال التالى : ما الذى سيحدث فى أسبانيا و « فرنسا - فيشى » ؟ . وبعد قليل كان تعقيبى : أن العملية سليمة من الناحية العسكرية ، بيد أن هناك بعض الشكوك السياسية حول تأثيرها على فرنسا ، ثم سأل - بصورة خاصة - عن موعد تنفيذ العملية فقلت : انه لن يتأخر عن الثلاثين من أكتوبر ، وأن كان الرئيس ونحن جميعا ، نحاول تقديم الموعد الى السابع من أكتوبر وبدا أن ما قلته قد بعث فى نفوس الروس الثلاثة ، بعض الارتياح .

وبدأت أوضح المزايا العسكرية التى يكفلها تحرير البحر المتوسط حيث يمكن فتح جبهة اضافية فيه واستطردت أقول : انه يجب أن نتصر فى مصر فى شهر سبتمبر ، وفى شمالى أفريقية فى أكتوبر ، وأن تكبح جماح العدو ، ونحصر قواته فى شمال فرنسا ، وإذا استطعنا أن نختم العام باحتلال شمال أفريقية كله ، فإنه سيكون فى طاقتنا أن نهدد قلب أوروبا - « هتلر » ، على أن هذه العملية ستكون متمشية مع « عملية عام ١٩٤٣ » ، وهذا ما اتفقنا عليه نحن والأمريكيون ! .

ومن أجل توضيح هذه النقاط التى عالجتها ، رسمت صورة تمساح وشرحت لستالين - مستعينا بالصورة - تصميمنا على مهاجمة بطن التمساح الناعم فى الوقت الذى نهاجم فيه أنفه الصلب ، وكان اهتمام ستالين قد بلغ ذروته فى ذلك الوقت فقال : « ليكلل الله هذا المشروع بالنجاح » ...!

وقد اكدت له رغبتنا فى تخليص الروس من هذا العبء ولو أردنا ذلك فى شمال فرنسا ، فسنصاب بنكسة ، وإذا قمنا به فى أفريقية الشمالية ، فإن لدينا فرصة كبيرة للنصر ، وسيكون فى طاقتنا بعد ذلك

أن تساعد أوروبا ، وإذا هيمنا على شمالى افريقية ؛ فسيجد هتلر نفسه مرغما على سحب قواته الجوية والا فسنحطم حلقاءه وفي مقدمتهم إيطاليا ، وندخل بلادها ، وسيكون لهذه الوثبة أثر هام فى تركيا وجنوب أوروبا بأكمله ، وأخشى ما أخشاه ، أن نجبر على تعجل الأمور ، وإذا هيمنا على شمال افريقيا فى هذا العام فسوف يكون فى إمكاننا أن نقوم بهجوم ساحق على هتلر فى العام القادم ، لقد كان هذا الموضوع نقطة تحول فى مباحثاتنا .

وقد بدأ ستالين حينئذ يعرض بعض العقبات السياسية وقال : ان الاستيلاء على مناطق عملية المشعل يساء فهمه فى فرنسا وسأل عما سنصنعه بديجول ؟ فأجبتة : اننا فى هذه الفترة لا نريد أن يتدخل ديغول ، ومن المتوقع أن يطلق « فرنسيوافيشى » النار على الديجوليين دون الأمريكين وعضد « هاريمان » قولى هذا فى حماسة نظرا للتقارير التى يستند اليها الرئيس والتى ترد اليه من عملاء امريكا فى كل مناطق عملية « المشعل » بالإضافة إلى آراء الاميرال « ايهى » .

وقد اتضح لى ان « ستالين » لاحظ فجأة فى هذه اللحظة مزايا عملية « المشعل » الاستراتيجية وذكر أربعة أسباب رئيسية تدعو الى القيام بها ، اولها : انها ستؤدى الى اصابة مؤخرة رومل ، وثانيها : انها ستزعج اسبانيا وثالثها : انها ستؤدى الى قيام قتال بين الألمان والفرنسيين فى فرنسا ورابعها : انها ستعرض إيطاليا لسهام الحرب

وقد ترك هذا البيان الرائع الذى اوضح ادراك الدكتاتور الروسى السريع الكامل ، لمشكلة كانت حتى وقت قصير جديدة بالنسبة اليه - اثرا بالغا فى نفسى ، ولا مرية فى أن قلة قليلة من الأحياء كان فى طاقتها أن تدرك - فى وقت قصير - الأسباب التى كنا جميعا نصطرع معها شهورا طويلة ، فلقد أدركها كلها فى لحظة واحدة .

وهناك سبب خامس ذكرته وهو : اختصار الطريق البحرى عبر البحر المتوسط وقد كان ما يقلق ستالين أن يعرف ، هل يمكننا أن نجتاز مضائق جبل طارق ، فأكدت له أن كل شيء سيسير على مايرام وأبلغته ، ما أحدثته فى مصر من تغييرات ، كما أخبرته بتصميمنا على خوض معركة حاسمة هناك فى أواخر شهر اغسطس أو سبتمبر ، واتضح أخيرا أن عملية « المشعل » قد نالت اعجاب الجميع وأن كان مولوتوف قد تساءل عما اذا لم يكن فى وسعنا تنفيذها فى شهر سبتمبر أولا ؟

ومضيت أقول : « لقد انحدرت فرنسا الى الحضيض .. ونريد أن نعيدها الى الحياة من جديد وقد علمت فرنسا ما حدث فى مدغشقر وسوريا ، ولا مرية فى أن وصول الأمريكين سيؤدى الى وقوف الشعب الفرنسى كله الى جانبنا ، وسيدرك فرانكو الخوف وقد يطلب الألمان من الفرنسيين أن يعطوهم الاسطول الفرنسى وطولون فورا ، ومثل هذا المطلب جديرة باثارة عداوات جديدة أخرى بين « فيشى » و « هتلر » .

وهنا أخذت أتكلم عن امكان وضع بعض السلاح الجوى البريطانى - الأمريكى فى الجناح الجنوبى من الجيوش الروسية حتى يساهم فى

الدفاع عن بحر قزوين وجبال القوقاز ، وفي القتال بصورة عامة في هذه الجبهة ، بيد أنني لم أستمر في سرد التفاصيل ، اذ كان علينا بالطبع ان نكسب معركة مصر أولا ، ولم تكن قد توافرت لدى أفكار الرئيس عن مدى مساهمة الأمريكيين في هذه الخطة ، وسألت ستالين : هل يوافق أولا على هذه الفكرة حتى نبدأ في اعداد التفاصيل المتعلقة بها ؟ وقد ردت « ان الروس سيكونون شاكرين جدا لهذه المساعدة وأضاف : ان تفاصيل الاماكن تحتاج الى درس أوفى ، وقد كنت مهتما أبلغ الاهتمام بهذا المشروع لأنه سيهيئ الفرصة لحدوث اشتباكات عنيفة بين الانجليز والأمريكيين من ناحية ، والالمان من ناحية أخرى ، مما يؤدي الى الظفر بالسيادة الجوية في ظروف أكثر جدوى من البحث فوق « خليج كاليه » عن المتاعب !

وقد اجتمعنا في هذا الوقت حول صورة مجسمة للأرض ووضحت لستالين ما يترتب على تطهير البحر المتوسط من العدو من مزايا كبيرة وقلت له : أنني سأكون تحت تصرفه ان اراد ان يراني مرة أخرى فرد : لقد جرت عادة الروس على ان يذكر الضيف ما يريد وأكد أنه على استعداد لاستقبالى في كل وقت ، وها هو ذا قد علم الآن أسوأ ما كان ينتظر ؛ ولكننا انصرفنا في جو يسوده حسن النية .

وقد استغرق الاجتماع حتى هذا الوقت أربع ساعات ومضت نصف ساعة أخرى بطيئة ونحن في الطريق الى « دار الدولة رقم ٧ » ولما كنت منهاكا ، فقد أمليت برقيتى الى وزارة الحرب والى الرئيس روزفلت بعد منتصف الليل ، وتوجهت الى فراشى بعد ذلك وقد شعرت ان الجليد قد ذاب ، وان اتصالا روحيا قد تم ، ثم داعب النوم جفونى ورحت في سبات عميق .

موسكو

علاقات توثقت ..

في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي استيقظت في جناحي المترف الذي تبدو من جنباته مظاهر الرفاهية ، وكان يوم الخميس في الثالث عشر من شهر أغسطس - هو يوم « بلتهام » بالنسبة لي - وكنت قد وضعت ترتيبا لزيارة مولوتوف في الكرملين عند الظهر ، لأسرد له تفاصيل أوسع وأوفى عن طبيعة مختلف العمليات الحربية التي نفكر فيها ، وقد أشرت إليه الى مدى ما كان سيلحق بالقضية المشتركة من أضرار لو تخلينا عن مشروع « المطرقة » وما يثيره من شكوك سترغمنا على الدخول في مناقشات علنية حول مثل هذا الموضوع وأوضحت بأسهاب ما تنطوي عليه عملية « المشعل » من هدف سياسي ، وكان يستمع الى بصورة ودية دون أن يشترك في الحديث ، واقترحت عليه أن « التقى بستالين مرة أخرى في العاشرة من مساء ذلك اليوم ، وفي ساعة متأخرة أخبرت بأن الموعد سيكون في الحادية عشرة ، وطلب الى أن أحضر « هاريمان » معي لأن الحديث سيدور حول الموضوعات التي بحثناها بالأمس فرددت بالإيجاب وقلت : اننى سأحضر معي أيضا : « كادوجان وبروك وويفل وتيدر » الذين وصلوا بسلام من طهران في طائرة روسية ، وقد كان من الممكن أن يتعرضوا مع طائراتهم « الليبراتور » لنيران خطيرة .

وقبل أن أغادر مكتب هذا الديبلوماسي - الذي يتسم بالركة والحزم - نظرت اليه وقلت : لا شك في أن ستالين سيرتكب أفدح الأخطاء اذا ظل يعاملنا بمثل هذه الغلظة بعد أن قطعنا هذه المسافات الطويلة في سبيل لقائه ، ولأول مرة لم ينحن مولوتوف وقال : « ان ستالين رجل في غاية الحكمة وعليك أن تتيقن أنه مهما ناقش فانه يفهم كل شيء ، وعلى أية حال سأخبرك بكل ما تقول » .

وقد رجعت في الظرف المناسب للغداء في « دار الدولة رقم ٧ » وقد كان الطقس لطيفا يشبه تماما جو إنجلترا الذي نعشقه ، وقراءى لي أن في طاقتنا أن نستكشف المنطقة « والدار » منزل ريفي جميل فسيح حديث البناء يقع بين مروج واسعة وحدائق كبيرة من شجر الشربين وتشتل الغابة على معرات جميلة ، وقد كان ممثعا حقا أن يستلقى الانسان في جو أغسطس الجميل على الحشائش أو وريقات الصنوبر المتساقطة ، وفي الحديقة عدد من الصناير ومن البرك الكبيرة التي تشمل أنواعا مختلفة من الأسماك الملونة ، والأسماك الأليفة التي تقبل على تناول الطعام من يدك وقد سورت المنطقة كلها بسور يرتفع خمسة عشر قدما ، ويحرسه من الجانبين عدد كثير من الجنود

ورجال الشرطة ، وعلى مدى مائة ياردة من البيت ، يقوم مخبأ للوقاية من الغارات الجوية ، وقد نقلنا اليه في أول فرصة ، وقد شيد على أحدث طراز تتوفر فيه الراحة والرفاهية ، تحملك المصاعد لتنزل بك ثمانين أو تسعين قدما تحت الأرض ، وهناك ثمان أو تسع غرف كبيرة فسيحة مشيدة داخل قفص سميكة من الاسمنت المسلح ويقوم بين الغرف أبواب ثقيلة متحركة ، أما الانوار داخل الملجأ فسطحة والاثاث حديث الطراز ، زاهى الالوان تحس حين تأوى اليه بالراحة تسرى في أجزاء جسمك وتجعلك تسيطر على أعصابك ، وقد استهووتنى الاسماك الملونة أكثر مما استهوانى المخبأ .

وفي الساعة الحادية عشرة مساء اسرعنا جميعا الى الكرملين ، وهناك استقبلنا ستالين ومولوتوف وحدهما ومعهما المترجم الخاص ، وقد أخذت حينئذ أناقشه مناقشة معلة وقلت له : أن عليه أن يدرك أننا قد صممنا على اتباع خطة مرسومة ، وانه لا فائدة من اللوم . . . وامتد النقاش أكثر من ساعتين تحدث خلالها بأمور غير مناسبة من أننا نخشى كثيرا محاربة الالمان واننا لو حاربناهم مثل محاربة الروس لهم لدلنا التجربة على أن هذا الخوف لا داعى اليه ، ومن أننا نقضنا عهدنا بشأن عملية « المطرقة » ، واننا لم نستطع امداد روسيا بما وعدناها به من مؤن ، ولم نرسل اليها غير الفضلات بعد أن أخذنا ما نحن في حاجة اليه ، وكان من الواضح أن هذه الشكاوى موجهة الى أمريكا مثل ما هى موجهة الى بريطانيا .

وقد رفضت في حزم كل اتهاماته غير انى لم استعمل الفاظا جارحة ، ومع أنه لم يتعود معارضة الآخرين له مثل ما عارضته أكثر من مرة ، فانه لم يغضب أبدا ولم يثر ، وكرر نظريته : « ان بإمكان البريطانيين والامريكيين أن ينزلوا ست فرق أو ثمانى فرق في شبه جزيرة شربورج ما دام زمام السيطرة الجوية في أيديهم . . . وقال : انه يحس بأن الجيش البريطانى لو حارب الالمان مثل ما حاربهم الجيش الروسى ، ما شعر بالرعب منهم ، وقد أثبت السلاح الجوى البريطانى وبرهن الروس على أن فى الامكان قهر الالمان وأن فى إمكان المشاه البريطانيين أن يثبتوا بالدليل نفسه اذا أتيح لهم أن يحاربوا الالمان ما أثبتته الروس .

وقاطعته قائلا : اننى اتساهل فيما أبديته من ملاحظات اعترافا منى ببسالة الجيش الروسى ، ولكن اقتراح النزول فى شربورج يتقاضى عن وجود قناة المانش ، وأخيرا قال ستالين : اننا لا يمكننا أن نستمر فى النقاش ، وأن عليه أن يقبل قرارنا ، وفجأة وجه اليها الدعوة لتناول العشاء فى الساعة الثامنة من مساء اليوم التالى .

وقبلت الدعوة وقلت : اننى سأسافر بالطائرة فجر اليوم التالى أى فى الخامس عشر من شهر أغسطس ، وبدأ لى أن « جو » قد أفزعه هذا وسألنى : ألا يمكننى أن أبقى مدة أطول ؟ يمكن مادام فائدة فى بقائى ، وأضفت : اننى سأبقى يوما آخر على أية حال ، وهنا قلت : اننى لا احس فى موقفه بروح الزمالة ، وقد قطعت هذه المسافة

الطويلة لأقيم علاقات عملية طيبة ، وقد بذلنا ما أمكننا من جهد لمساعدة روسيا ، وسنواصل ذلك حتما ، وكنا قد تركنا وحدنا عاما كاملا في مواجهة ألمانيا وإيطاليا . أما الآن - وقد تحالفت الدول العظمى الثلاث - فقد غدا النصر مؤكدا ما لم ننقسم أو يمسنا ضعف ، وقد سيطرت على الحماسة - الى حد ما - وانا أذكر هذا الرد ، وقبل ان ينتهي المترجم من نقل ما تحدثت به الى الروسية ، قال ستالين : انه قد أعجب بلهجة خطابي ، ومضى الحديث منذ هذه اللحظة في جو اقل توترا ..

وراح يتكلم باطناب عن مدفعي هاون روسيين للخنادق يطلقان الصواريخ ، واكد انهما يتركان آثارا تدميرية واضحة واقترح ان يطلع خبراءنا عليهما اذا رغبوا في الانتظار وقال : انه سيمدنا بكل المعلومات المتعلقة بهما ، وانه ينتظر ان يكافأ نظير ذلك ، وقال : لم لا نبرم اتفاقا لتبادل المعلومات المتعلقة بالاختراعات ؟ فقلت : اننا على استعداد لان نعطيهم كل شيء دون مساومة باستثناء تلك الاختراعات - التي اذا حملتها الطائرات فوق خطوط العدو ثم اسقطت وحصل عليها العدو - كان ضرب ألمانيا اشد صعوبة ، فوافق على هذا ، كما وافق على ان يجتمع خبراءهم العسكريون مع خبراءنا ، واتفق على ان يتم الاجتماع في الثالثه بعد الظهر ، وقلت انهم سيفتقرون الى ربع ساعات على الاقل لبحث كل ما يتعلق بعمليات « الطراد والمطرقة » والمشعل « من تفاصيل فنية ، وقد لاحظت احيانا ان عملية « المشعل » صحيحة عسكريا ، وان الناحية السياسية منها تقتضي لمعالجتها بعض الكياسة ، وقد كان بين الحين والآخر يعود الى عملية « المطرقة » متبرما من الغائها ، وحينما قال : اننا لم نف بوعدها ، اجبته : « اننى آبى هذا القول .. لقد وفينا بكل تعهد التزمنا به ، وأومات الى المذكرة التي سلمتها الى مولوتوف ، وهنا أبدى ستالين اعتذاره قائلا : انه يفصح عن آرائه بصدق وأمانة وانه يعتقد انه ليس ثمة ثقة بيننا ، وأن كان يوجد بيننا شيء من التباين في الراى .

وأخيرا سألته عن القوقاز ، وهل قرر الدفاع عن تلك السلسلة الجبلية وكم عدد الفرق التي سيستخدمها ؟ وهنا أرسل يطلب أنموذجا للجبال ، وقد أبان صراحه - وفي علم وادراك - حصانة هذا الحاجز الطبيعي قائلا : ان خمسا وعشرين فرقة كافية للدفاع عنه ، وهى متوافرة هناك ، وأوما الى الممرات الجبلية المتعددة وقال : انه سيدافع عنها ، وحين سألته : هل هذه الممرات محصنة ؟ اجاب : « طبعاً - بكل تأكيد » وقال ان العدو لم يصل بعد الى الخط الروسى الامامى للدفاع عنها وهو يقع الى الشمال من السلسلة الجبلية وقال ان على هذه الخطوط ان تقاوم شهرين ، ثم بعد ذلك ، تسقط الثلوج ويصبح عبور الجبال مستحيلا ، وأعرب عن ثقته المطلقة بقدرتها على المقاومة ، ثم تكلم عن قوة اسطول البحر الاسود الذى احتشد في « باطوم » .

وكان الحديث سهلا في كل هذه الموضوعات وحينما ، سال « هاريمان » عن مشروعات نقل الطائرات الامريكية عبر « سيبيريا » وهى مشروعات لم يقبلها الروس الا اخيرا بعد الحجاج الامريكىين

وضغطهم - صرح ستالين : « بأن كسب الحروب لا يكون بالمشروعات ، وقد آذرتني « هاريمان » في كل ما قلت طيلة الاجتماع ، ولم يتزحزح أحدنا قيد أنمله عن موقفنا المشترك ، كما لم ينطق بأية عبارة جارحة وقد أدى ستالين التحية ثم مد يده الى وهو يغادر القاعة ، فسلمت عليه بحرارة . وفي الرابع عشر من أغسطس أرسلت الى وزارة الحرب البرقية التالية :

« لقد سألنا أنفسنا مستوضحين هذا التحول عن الاساس الطيب الذي وصلنا اليه في الليلة السابقة ، واعتقد أن من الممكن أن مجلس وزرائه لم يتقبل الانباء التي حملتها بالروح الطيبة التي تقبلها هو بها ، وقد يكون لهؤلاء المفوضين سلطة أكبر مما نفترض ، وخبرة أقل ، ومن الممكن أيضا أن يكون قد أراد تسجيل أقواله لاهداف مستقبلية ولخدمة هذه الاهداف ، أو يكون قد أطلق هذه الاندفاعات لمصلحته الشخصية ، ويقول « كاروجان » : انه بعد أن قابل مستر آيدن في عيد الميلاد وقف موقفا متصليا مماثلا .

أما « هاريمان » فيقول : ان هذا الاسلوب قد اتخذ أيضا في بداية بعثة « بيغبروك » .

واننى لوائق أن ستالين في قرارة نفسه ، مقتنع بأننا على حق ، وان ست فرق في « عملية المطرقة » لن تنفعه في هذا العام ، وانى لوائق من أن سداد تفكيره وسرعة بته في القضايا العسكرية يجعلانه يعضد تعصيذا قويا « عملية المشعل » ولا اعتقد أنه لا يمكنه أن يحاول إصلاح موقفه ، وعلى هذا الامل فاني صامد ، على أية حال . . اننى واثق من أن الطريقة التي استخدمها هي احسن الطرق ، ولم يداخلني الشك مطلقا في أى يوم من الأيام من انهم ربما لا يمشون في القتال ، واننى لوائق كذلك من أن ستالين مؤمن ايمانا تاما بأنه سينتصر . . »

وفي تلك الليلة اقيمت مأدبة رسمية بالكرملين حضرها معنا ما يقرب من أربعين شخصا بينهم عدد من القادة العسكريين وأعضاء مكتب الحزب السياسى ، وبعض كبار الموظفين ، وقام ستالين ومولوتوف بدور المضيف بطريقة ودية للغاية ، ومثل هذه المآدب تطول عادة ، ويشرب فيها انتخاب كثيرة منذ البداية مع خطب قصيرة ، وقد سمعت قصصا سخيفة عن تحول مآدب العشاء السوفيتية الى حفلات شراب ، ولا مزية في أن هذه القصص غير صحيحة ، فالماريشال وزملاؤه ، كانوا يشربون أنخابهم من أقداح صغيرة ولا يتناولون سوى رشفة صغيرة أما انا فقد نشأت نشأة طيبة !

وقد تحدث الى ستالين عن طريق مترجمه « بافلوف » بأسلوب يفيض بالحيوية ، وقال لى : قبل عدة سنوات زارنا المستر « جورج برناردشو » والليدى « استور » ، وقد رأت « استور » أن ندعو المستر لويد جورج لزيارة موسكو ، فكان ردى عليها : ولماذا ندعوه ؟ لقد تزعم حركة للتدخل ضد الاتحاد السوفيتى ، فقالت « الليدى » : . . .

- كلا . . هذا ليس بصحيح ، لقد كان تشرشل هو الذى ضلله ،

فقلت : على أية حال ، كان « لويد جورج » رئيس الحكومة ، ينتمى الى اليسار فهو مسئول ونحن نؤثر عدوا صريحا على صديق مدع ، فقلت « الليدى استور » . . . على أية حال لقد انتهى تشرشل فقلت لها : اننى لست واثقا من هذا فاذا حدثت أزمة كبيرة ، فسيلتفت الشعب البريطانى الى حصان الحرب العجوز . . . وهنا قاطعته قائلا : ان ماقلته يتضمن كثيرا من الحقيقة ، فلقد كنت كثير النشاط فى موضوع التدخل ، ولا أريدك تعتقد العكس ، فابتسم ابتسامة ودية ، وهنا قلت : وهل غفرت لى ؟ فأجاب المترجم : يقول الرئيس ستالين : ان كل هذه الامور من شئون الماضى وهو أمر يتعلق بالله .

وفى حديث لاحق بينى وبين ستالين قلت له :

لقد أبلغنى اللورد بيفر بروك أنتى وجهت اليه سؤالا خلال بعثته لموسكو فى اكتوبر من عام ١٩٤١ ، قلت فيه : ماذا كان يقصد تشرشل فى البرلمان حين قال : انه وجه الى تحذيرات عن الغزو الالمانى المنتظر ؟ وقد كنت بالطبع أشير الى البرقية التى أرسلتها اليك فى ابريل عام ١٩٤١ وهنا أخرجت البرقية التى كان السير ستافورد كريبيس قد تأخر فى تسليمها ، وحينما قرأت البرقية وترجمت له ، هز ستالين كتفيه وقال : انى أذكرها ولم أكن بحاجة الى من يحذرني ، فقلت : لقد كنت أعلم ان الحرب واقعة لامحالة الا أنه قد تراءى لى أن فى امكانى أن أكسب ستة شهور أخرى أو نحوها لاتأهب . . . وقد كفت - حرصا منى على القضية المشتركة - عن سؤاله عما كان سيحدث لو أصابنا نحن الانهيار فى حين كان هو يقدم الى هتلر مثل هذه المواد الثمينة والوقت والعون . وأرسلت الى المستر أتلى والرئيس روزفلت هذا الوصف الرسمى التالى للمأدبة حينما تمكنت من ذلك :

انتهت المأدبة فى جو ودى حافل بالمجاملات الروسية المألوفة وقد القى ويفل خطابا رائعا باللغة الروسية حيث اقترحت أن نشرب نخب الموت واللعنة للنازيين ، وعلى الرغم من جلوسى الى يمين ستالين ، لم تسنح لى الفرصة للتكلم معه فى موضوعات جدية وقد التقطت صورة لى مع ستالين وصورة ثانية لى مع هاريمان .

وقد القى ستالين خطابا طويلا اقترح فيه أن نشرب نخب المخابرات وقد أشار خلال خطابه اشارة غريبة الى معركة الدردنيل فى عام ١٩١٥ اذ قال : ان البريطانيين قد كسبوا المعركة فى الوقت الذى كاد الالمان والاتراك فيه أن يتفهموا ، ولكن الحلفاء لم يعلموا بانتصارهم لان مخابراتهم لم تكن على دراية تامة ، وكان الهدف من هذه الصورة التى رسمها - على الرغم من عدم دقتها - أن تكون بمنزلة اطراء لى .

٢ - نهضت من المأدبة فى الساعة الواحدة والنصف صباحا لاننى خفت أن ادعى الى فيلم سينمائى طويل وأنا مجهد وحينما ودعت ستالين قال لى : ان الخلافات القائمة بيننا لاتتجاوز أن تكون خلافات فى الوسيلة وقلت أننا سنحاول أن نقضى على هذه الخلافات فعلا لا قولا وبعد مصافحة ودية تركت المكان وعبرت الغرفة المزدحة بالناس ، ولكنه أسرع يودعنى

مسافة طويلة عبر الأروقة حتى الباب الخارجى حيث تصافحنا مرة أخرى

٣ - من المحتمل أن أكون قد رسمت في رسالتى اليكم عن اجتماع ليلة الخميس صورة متشائمة للغاية ولكننى أحس بأن علينا الآن أن نتساهل الى أبعد حد تجاه ماأحسوا به من خيبة أمل مؤلمة وواقعية عندما علموا أننا لايمكننا فى الوقت الحاضر أن نفعل شيئاً لمساعدتهم فى كفاحهم الكبير ولكنهم تجرعوا فى النهاية هذا الدواء المر . . . وعلينا الآن أن نفعل كل شئ للمبادرة بعملية «المشغل» والحق الهزيمة برومل .

وقد ساءتنى أشياء كثيرة ذكرت خلال اجتماعاتنا ، ولكننى تساهلت تجاه مايعانيه أولئك الزعماء الروس من جهد وهم يرون جبهتهم الواسعة تتقد وتنزف منها الدماء على امتداد ألفى ميل فى حين يقف الالمان على بعد خمسين ميلا فقط من موسكو ، ويزحفون تجاه القوقاز ، ولكن المحادثات العسكرية الفنية لم تسر سيرا مرضيا ، فقد وجه «جنرالاتنا» أنواعا مختلفة من الاسئلة ، ولم يكن زملاؤهم الروس مفوضين فى الرد عليها ، وكان كل مايريده الروس هو : فتح جبهة ثانية فورا . . . وأخيرا وقف «بروك» موقفا متصلبا وانتهى المؤتمر العسكرى فجأة .

وقد تقرر أن نرحل فجر السادس عشر من أغسطس وفى الساعة السابعة من الليلة السابقة للسفر توجهت لوداع ستالين ، وجرى بيننا حديث هام مجد وقد سألته بصورة خاصة : هل فى وسعه أن يحافظ على ممرات القوقاز الجبلية وأن يمنع الالمان من الوصول الى بحر قزوين والاستيلاء على حقول النفط فى باماكو ، وكل مايهدف اليه هذا الاحتلال وأن يمنعهم من الزحف جنوبا عبر تركيا أو ايران ؟ فبسط خريطة أمامى وقال - فى ثقة تامة - سوف نوقف تقدمهم . . . انهم لن يجتازوا الجبال ، ثم قال : هناك شائعات بأن الاتراك سيهاجموننا فى تركستان ، واذاقاموا بهذا الهجوم فسأستطيع أن أعالج أمرهم أيضا ، وبادرتة بقولى : انه لاخطر هناك من مثل هذا الهجوم ، أن الاتراك يريدون أن يظلوا بمنأى عن الحرب وهم بالطبع لن يتورطوا فى خصام مع انجلترا .

ولم يكده ينتهى حديثنا - الذى استغرق ساعة - حتى نهضت لاودعه وفجأة بدا الارتباك على ستالين وقال لى بلهجة أكثر ودا مما سبق : انك سترحل عند الفجر ، فلم لا نمضى الآن الى بيتى ونتناول الشراب معا ؟ فقلت : اننى من حيث المبدأ أوافق على هذا ، وسرعان ماتقدم أمامى عبر ممرات وغرف كثيرة حتى خرجنا الى طريق وادع داخل الكرملين ، وبعد مائتى ياردة وصلنا الى المسكن الذى يقيم فيه ، ثم أطلعنى على الغرف الأربع التى يعيش فيها ، وكانت متوسطة الحجم بسيطة ، فضلا عن أنها فى وضع طيب ، وهى تؤلف من غرفة نوم وغرفة مكتب وغرفة طعام وغرفة حمام ، وسرعان مايدت خادم متقدمة فى السن ، وفتاة جميلة حمراء الشعر قبلت والدها باحترام ، ونظر الى - وقدأوما باحدى عينيه - وكأنه يريد أن يقول : أترى أن لنا نحن البلاشفة أيضا حياتنا العائلية وبدأت ابنة ستالين تجهز المائدة ثم أقبلت الخادم تحمل عددا من الاطباق وكان ستالين فى خلال ذلك يفتح عددا من الزجاجات التى صفت فى شكل مغر ثم قال : لم لانستدعى مولوتوف ؟ انه قلق على البيان الرسمى الذى

سيصدر عنا ، فلم لانقر البيان - ولولوتوف ميزة هي قدرته على الشراب -
وحيث فهمت أننا سنتناول طعام العشاء في بيته ، وكنت قد تأهبت
لتناول العشاء في المكان الذي أنزل فيه مع الجنرال «اندرز» القائد البولندي
الذي ينتظرنى ، ولكننى طلبت من مترجمى الجديد الممتاز : «الرائد بيرس»
أن ينبئ الجنرال بأننى لن أعود قبل منتصف الليل ، ووصل مولوتوف
وجلسنا مع المترجمين ، حيث كنا خمسة وكان الرائد بيرس قد قضى فى
موسكو عشرين عاما ، وأصبحت له علاقات طيبة بالماريشال حيث تحدث
اليه حديثا خاصا لم أتمكن من الاشتراك فيه .

وجلسنا على المائدة من الساعة الثامنة والنصف حتى الثانية
والنصف صباحا وكان العشاء لم يجهز بعد ، بيد أن الطعام بدأ يصل
بالتدريج ، وقد كنا نتناول طعامنا على طريقة اختيار الطعام من كل الانواع
- على الطريقة الروسية - ونشرب من ألوان الخمور الممتازة ، وقد بدأ
مولوتوف فى وضع طيب يفيض عذوبة ورقة ، وكان ستالين يمزح معه
بكلمات قاسية وعبارات جافة عن قافلة قطبية أبيدت عن آخرها فى شهر
يونيو .

وقال المترجم «بافلوف» فى تردد : يقول المستر ستالين : أليس عند
الاسطول البريطانى أى احساس بالمجد والفخار ؟ أم انه لا يفهمها ؟ فأجبته
يجب أن تفهم أن مافعلناه كان صحيحا ، فأنا أعرف الكثير عن الاسطول
والحرب البحرية .

وهنا قال ستالين : انك تقصد أننى أعرف شيئا عن البحر فقلت :
أن روسيا حيوان برى ، أما بريطانيا فحيوان بحرى وسكت ستالين
ثم عاود مرجه ، ونقلت الحديث الى مولوتوف وقلت : هل يعرف
الماريشال ان وزير خارجيته قد قرر - أثناء زيارته الاخيرة لواشنطن - القيام
بزيارة نيويورك وحده دون حاشية أو رفاق ، وأن سبب تأخره لم يكن
خللا فى الطائرة ، بل لانه كان يتنسم عبير الهواء كما يحلو له أن يفعل
فى نيويورك .

وعلى الرغم من أن مجال الحديث كان يمكن أن يتسع لاي أمر على
سبيل المزاح أثناء العشاء فى روسيا ، فقد بدأ مولوتوف فزعا بسبب
ملاحظتى فى حين أشرق وجه ستالين مرحا وقال :

انه لم يتوجه الى نيويورك بل الى شيكاغو حيث يعيش قطاع الطرق
من أمثاله .

ودار الحديث رخاء بعد أن استعدنا العلاقات الطيبة وتكلمت عن
موضوع نزول القوات البريطانية فى النرويج بمساعدة الروس وأوضحت
كيف يمكننا أن نفتح طريق القوافل على مصراعيه بالاستيلاء على رأس
الشمال فى الشتاء والقضاء على الالمان هناك ، وقد كانت هذه أحب فكرة
الى ، وبدأ لى أنها قد استهوت ستالين أيضا ، وبعد أن تحدثنا عن الوسائل
والسبل ، اتفقنا على وجوب القيام بهذه العملية اذا استطعنا ذلك .

وحتى منتصف الليل الاخير ، لم يكن «كادوجان» قد جاءنا بمسودة

البيان الرسمي وسألته : هل تحملت هذه الجهود الشخصية في الحرب
مثلما تحملت تنفيذ سياسة المزارع الجماعية ؟

وقد أثار هذا السؤال كوامن الحيوية المتدفقة لدى الماريشال فوراً .
فقال : بالطبع لا ، لقد كانت سياسة المزارع الجماعية كفاحاً رهيباً
قلت : هذا ما اعتقدته . . . لقد ظننت أنك لم تر الأمر ميسوراً لأن
المشكلة لم تكن مشكلة بضعة آلاف من الارستقراطيين أو كبار الملاك ، بل
مشكلة ملايين الرجال الصغار .

وقال - وهو يمد يديه - : عشرة ملايين ، لقد كان شيئاً رهيباً فلقد
استغرق العمل أربع سنوات ، ولكن هذه العملية كانت مهمة جداً بالنسبة
لروسيا ، إذا كنا نريد أن نتفادى المجاعات من وقت لآخر ، لقد كنا في
حاجة ملحة إلى استعمال المحارث الآلية في فلاحه الأرض ، ولكننا إذا
أعطينا الزارعين المحارث الآلية ، فإنها لا تلبث أن تلحق بها التلف في
خلال بضعة أشهر : فالمزارع الجماعية التابعة للإصلاح ، هي التي يمكنها
وحدوها ممارسة العمل بالمحارث الآلية ، وقد كابدنا كثيراً من المتاعب
في سبيل إيضاح ذلك للفلاحين ، حيث كان النقاش معهم مستحيلاً ذلك
أنك بعد أن توضح للفلاح كل ما تريد إيضاحه يقول لك : ان عليه ان يمضي
إلى بيته لاستشارة زوجته مع راعي الماشية أيضاً وقد كان هذا الإصلاح
حديثاً بالنسبة إلى .

وبعد أن يتحدث إليهما يجيبهما بأنه لا يريد المزارع الجماعية وأنه
يفضل العمل بدون هذه المحارث الآلية .
- فهل هذه هي ما تطلقون عليها لكولاكس ؟

فقال بعد تردد قصير : (نعم لقد كان العمل فيها مرهقاً ، وإن كان
ضرورياً على أية حال . . .)
وسألته : ماذا حدث ؟

فأجاب : حسناً ، لقد وافق الكثيرون منهم على الانضمام إلينا
ولقد منحنا بعضهم أراضي ليزرعوها في مقاطعة « تومسك » أو
« أركوتسك » أو في أقصى الشمال ، ولكن أكثرهم لم يحظوا بأية
شعبية ، وقد محقهم عمالهم تماماً .

وتوقفنا عن الحديث مدة طويلة ثم مضي يقول : « ونحن لم نعمل
على مضاعفة الانتاج الزراعي بنسبة كبيرة فقط ، بل بدلنا جهدينا
في سبيل مضاعفة محصول القمح وانتاجه بصورة أحسن ، وهذا نحن
أولاء ننتج القمح الروسي الموحد من أقصى البلاد إلى أقصاها ، في حين
كان الزارعون في الماضي ينتجون أنواعاً مختلفة تتفاوت في جودتها ، وإذا
خالف المزارعون هذه القاعدة ، أخذناهم بالسدة ، وهذا يعني زيادة
أخرى كبيرة في المحصول .

وينبغي هنا أن أشير إلى أنني أكتب هذه الذكريات كما تتوارد
إلى خاطري ، وكل ما أتصوره من انطباع الآن هو أن هناك ملايين من
الرجال والنساء قد أخرجوا من أراضيهم إلى الأبد أو أبعدوا . وسوف

ياتى حتما جيل جديد لايعلم شيئا عن شقاوتهم ، لكنه يعلم أن طعامه قد ازداد ، فيبارك اسم ستالين ويترنم بحمده ويظريه اطراء عطرا . ولم أعد على مسامعه قول « برك » المأثور « اذا لم أستطع أن أقسوم بالاصلاح - دون ظلم أو اجحاف - عدلت عن الاصلاح - « ففى الوقت الذى تشتعل فيه الحرب العالمية حولنا جميعا ، يكون من الحبث حقا ان يتكلم الانسان عن الأخلاق ويجهر بحديثه » .

وقدم كادوجان فى الساعة الواحدة صباحا تقريبا يحمل مسودة البيان الرسمى ، وبدأنا على الفور وضعه فى صيفته الرسمية النهائية . ومما قدم الى على المائدة خنزير صغير طهى بطريقة رائعة ، ولم يكن ستالين قد أكل شيئا حتى تلك اللحظة ، ولما حانت الساعة الواحدة والنصف صباحا - وهو الموعد المقرر لتناوله طعام العشاء - دعا «كادوجان» لياكل معه ولكن الصديق اعتذر ، فقام مضيفنا بالضحية وحده ، وبعد أن فرغ من ذلك توجه الى الغرفة المجاورة فجأة ، حيث تلقى التقارير عن كل جبهات القتال ، وكانت ترد اليه دائما بعدالثنائية صباحا ، وقد مر أكثر من ثلث ساعة قبل أن يعود ، وخلال ذلك اتفقنا على البيان الرسمى وأخيرا قلت : اننى يجب أن أمضى ، وكانت الساعة الثانية والنصف صباحا وكان الطريق الى البيت يستغرق نصف ساعة، ونصف ساعة أخرى فى العودة وقد انتابنى - على غير عادة - صداد شديد . وكان على أناجتمع بالجنرال «أندرز» ، وقد رجوت مولوتوف الا يحضر لوداعى عند الفجر حيث كان مجهدا كما يبدو ، ولكنه رمقنى بنظرة تنطوى على المعاتبة ، وكأنه يريد أن يقول : وهل تعتقد حقا اننى سأتركك عن الحضور !

وفى الساعة الخامسة والنصف صباحا ارتفعت بنا الطائرة فى الجو وقد نعمت فيها بنوم مريح لم استيقظ منه الا حين وصلنا الى بحر قزوين ، وبدأنا نصعد « جبال البروز » ، ولم أتوجه الى دار المفوضية فى طهران ، بل فضلت أن أمضى الى الظلال الباردة الهادئة فى مقرها الصيفى فوق المدينة ، وقد لقيت مجموعة من البرقيات تنتظرنى ، وكنت قد فكرت فى عقد مؤتمر فى اليوم التالى ببغداد مع كل رجالنا المسئولين فى ايران والعراق ، ولكننى تيقنت اننى لا يمكنى أن اطبق حر بغداد فى شهر أغسطس ، وقررت تحويل اتجاهى الى القاهرة، وتناولت طعام العشاء مع رجال السفارة تلك الليلة فى غابة الدار الرائعة ، وقد أقيت كل متاعبى خلفى واستغرقت فى نوم مريح حتى الصباح !.

الجهد والحيرة

في التاسع عشر من اغسطس قمت أنا واليكسندر بزيارة لجهة الصحراء وانطلقنا من القاهرة ومررنا بالأهرامات، وقطعنا مائة وثلاثين ميلا تقريبا عبر الصحراء الى البحر في « أبو صوير » وقد قال لي اليكسندر : ان الجميع كانوا يهتفون لي ، ومع اقتراب المساء كنا ندنو من مقر قيادة مونتجومري في « برج العرب » وفي هذا المكان نفسه رسمت أشعة الضوء صورة رائعة للقافلة المشهورة على الكتيبان الرملية، وقدم لي الجنرال سيارته التي قسمها الى مكتب وغرفة نوم ، وبعد هذه الرحلة الطويلة ، ذهبنا كلنا نغتسل ، وقد قال مونتجومري « - ونحن نجفف اجسادنا من الماء - ان كل الجيوش تستحم الآن في هذا الوقت على امتداد الساحل » ، وأشار بيده الى الغرب ، وعلى مدى الف ياردة منها ، كان مايقرب من ألف رجل من رجالنا يتربصون على الشاطئ وعلى الرغم من اننى كنت اعرف الرد ، فقد سألت : لماذا لم تتحمل وزارة الحربية نفقة تزويد الجنود سراويل بيضاء للاستحمام ؟ .. انه يجب عليها أن توفر ذلك ، حقا ان كل الجنود كانوا سمر الاجساد داعبت الشمس ما ظهر من ابدانهم ولم تحجبه سراويلهم القصيرة .

وكثيرا ما تغيرت الأوضاع : فحينما قدمنا الى « أم درمان » قبل اربعة واربعين عاما كانت الفكرة الشائعة : ان على الانسان ان يبقى جلده حرارة شمس افريقية مهما يكن الثمن ، وكانت الأوامر في هذا الشأن حاسمة للغاية ، وقد كنا نلصق حشايا خاصة في ظهر سترتنا الكاكية اللون ، وكان من المخالفات التي تسجل جنحة في المحاكمات العسكرية ان يخرج الجندي أو الضابط دون قبعة القش أو الفلين في اوقات الفراغ ، وكانوا ينصحوننا بأن نلبس ملابس داخلية سميكه تمشيا مع ما اعتاده العرب واستنبطوه من تجاربهم خلال آلاف السنين، ولكن ها هم أولاء الجنود البيض الآن في منتصف القرن العشرين ، يتوجهون الى أعمالهم اليومية دون قبعات ، عراة تقريبا الا من قطعة صغيرة من القماش تستر جزءا من ابدانهم ، ويسدو أن هذا المنظر لا يمسهم في شيء ، وعلى الرغم من أن عملية التحول من اللون الابيض الى البرونزى قد استغرقت عدة أسابيع وتمرينا تدريجيا فان حوادث ضربات الشمس والحرارة قليلة جدا وانى لأعجب تماما بم يفسر الأطباء هذه الظواهر ...؟

وبعد ان ارتدينا ملابسنا استعدادا لتناول العشاء ، اجتمعنا في «عربة» خرائط مونتجومري وقدم لنا الجنرال وصفا دقيقا للوضع موضحا أنه في خلال أيام انتصر على المشكلة ووقف على دقائقها ، وقد

توقع موعد هجوم رومل المقبل بدقة ، وأبان خططه التي وضعها لمقابلة هذا الهجوم ، وقد أثبتت الأيام صحة توقعه ، وسلامة استنتاجه ، ثم شرح لنا خططه لتولى زمام المبادرة والهجوم بنفسه ، ولكنه يفتقر الى ستة أسابيع على أية حال ليصبح الجيش الثامن على أتم استعداد ، وقد قرر إعادة تأليف الفرق على أسس وحدات تكتيكية متكاملة ، وعلينا أن ننتظر حتى تكون الفرق الجديدة ، وقد اتخذت مواقعها في الصحراء وحتى تكون « دبابات شيرمان » قد وصلت الى الميدان ، وحينئذ ستكون هناك ثلاثة فيالق يتولى قيادة كل منها ضابط محنك يشق فيه هو واليكساندر ، وسيستخدم المدفعية بشكل لم تستخدم به من قبل في الصحراء وتحدث عن نهاية سبتمبر كموعده للهجوم ، وقد بعث بهذا الموعده احساسا بخيبة الامل الا ان كل شيء كان متوقعا على رومل ، فقد دلت المعلومات التي تلقيناها ، على ان هجومه قد أصبح مرتقبا في كل لحظة ، وكانت المعلومات قد وصلت الى بالفعل مشيرة الى انه سيحاول القيام بحركة تطويق واسعة حول جناحنا الصحراوي للوصول الى القاهرة ، وأنه يجب أن تقوم معركة مناورة لمهاجمة مواصلاته .

وفي هذا الوقت فكرت طويلا ، في هزيمة نابليون في عام ١٨١٤ ، وتوقعه لضرب مواصلات الحلفاء ، الذين كانوا قد زحفوا رأسا الى باريس المكشوفة تقريبا ، وقد تراءى لى أن من الضرورات الملحة الدفاع عن القاهرة ، وان يشترك في هذا الدفاع كل جندي قادر من الجنود الذين لا يحتاج اليهم الجيش الثامن ، وبهذه الطريقة وحدها يمكن لجيش الميدان أن يحصل على حرية المناورة الكاملة بحيث يصبح في امكانه أن يجازف بالسماح لجناحه أن يتعرض للتطويق قبل أن يبدأ الهجوم ، وقد سرنى كثيرا اتفاننا جميعا على هذا الرأي ، وعلى الرغم من اننى كنت تواقا الى أن نبدأ هجومنا في أقرب فرصة ممكنة ، فاننى قد رحبت باحتمال قيام رومل بالهجوم علينا قبل أن نبدأ نحن هجومنا ، ولكن ، هل لدينا الوقت الكافى لتنظيم الدفاع عن القاهرة ؟ : فالدلائل كلها تشير الى أن القائد الجريء الذى يواجهنا على بعد اثنى عشر ميلا فقط - سيسدد ضربته الهائلة قبل نهاية شهر اغسطس ، وقال مونتجومرى : انه قد يحاول في يوم غير معين المغامرة لتحقيق تفوقه المستمر في الجبهة ، واذا تأخر في هجومه أسبوعين أو ثلاثة فسيكون ذلك حتما في صالحنا !

وفي العشرين من اغسطس خرجنا لنشاهد الميدان المرتقب والقوات الباسلة التي يتوقع صمودها ، وقد توجهت معه الى النقطة الرابعة الهامة التي تقع الى الجنوب الشرقى من جرفه الرويسات ، وشاهدت في تلك الأرض الصحراوية الوعرة - التي تتميز بالتواءاتها - القسم الأكبر من سلاح المدرعات ، وهو ما بين مستتر ومنتشر بأساليب التمويه العسكرية ، على الرغم من أنه قد جمع من ناحية تكتيكية ، واجتمعت هنا بالقائد الشاب روبرتس الذى كان يتولى حينئذ قيادة كل قواتنا المدرعة في هذا الموقع وكانت كل دباباتنا الممتازة تحت قيادته ، وقد أبان لى مونتجومرى توزيع مدفعيتنا المتعددة الأنواع والأشكال ، وقد كان كل شق في الصحراء يخفى خلفه بطاريات رهيبة مغطاة بوسائل

التعمية ، وقبل أن ندفع دبابتنا الى الميدان سينطلق ثلاثمائة أو اربعمائة مدفع على الدبابات الألمانية المهاجمة .

وعلى الرغم من منع تجمعات الجنود بسبب مناورات العدو الاستكشافية المتواصلة ، فقد رايت في ذلك اليوم عددا كبيرا من الجنود ، وقد بادروني بالتحية والتهنئات والأشعارات ، وقد قمت بتفتيش كتيبتى الرابعة « الهوسار » أو أكبر عدد أمكن حشده من رجالها على كئيب من مقبرة الميدان ، حيث دفن الكثيرون من رفاقهم قبل أيام ، وكانت كل هذه المناظر مؤثرة للغاية ، وقد نما معها شعور بقوة الجيش المتدفقة ، وكان كل انسان لا يشك في أن تغيرا كبيرا قد حدث منذ تولى مونتهجومرى القيادة ، وكان في امكانى أن المس هذا الشعور بالارتياح والسرور الذى يغمر الجميع .

وقد كان من المقرر أن نتناول الغداء مع بيرنارد فريبرج ، وقد استعادت ذاكرتى زيارة مماثلة كنت قد قمت بها له في الفلاندرز في مركز الميدان في وادى سكارب قبل ربع قرن تقريبا حين كان لا يزال يتولى قيادة لواء واحد ، وقد عرض على حينئذ في سرور أن أمر معه على مواقعه الأمامية ، ولكن لما كان لى سابق معرفة به وبخطط الجبهة ، اعتذرت عن المضى معه ، أما الآن فقد تغير الوضع تماما ، اذ كنت أشتعل شوقا لرؤية أحد مراكز المراقبة الأمامية الرائعة ، التى يقوم عليها هؤلاء الجنود النيوزيلنديون ، والتى تبعد خمسة أميال تقريبا الى الأمام ، وكان موقف اليكسندر يتضمن عدم معارضة الحملة ، والرغبة في الاشتراك فيها . ولكن بيرنارد فريبرج أبى باصرار أن يتحمل المسؤولية . ومثل هذه القضايا لا تصدر الأوامر فيها الا من السلطات العليا .

وفي ظهر أحد أيام شهر أغسطس ، توجهنا في الصحراء الى خيمته الخائقة التى تستخدم كمطعم ، هناك تناولنا غداء أحسن كثيرا مما تناولته معه في سكارب ، وقد كان أول صنف في الوجبة حساء غالبا من المحار النيوزيلندى المحفوظ ، لم أستسغ طعمه - وان تظاهرت بابتلاعه - وسرعان ما انضم الينا مونتهجومرى الذى كان قد تركنا قبل مدة ، وخرج فريبرج لتحيته ولأبلاغه أن مقعده على المائدة محفوظ ، وأنا ننتظره على مائدة الغداء ، ولكن « مونتي » - وهو الاسم الذى أطلق عليه - كان قد وضع لنفسه قاعدة : هى ألا يقبل دعوة أى أحد من مرعوسيه ، وقد استمر نابليون يتبع هذه القاعدة حرصا على النظام العسكرى ، وكان من شعاراته المعروفة أن الانسان ينبغى أن يكون قاسيا حتى مع الكبار ، ولكنه في الوقت نفسه سيتناول حتما دجاجة مشوية ، وقد تقدم اليه في عربته ، أما « مارلبرو » ، فقد كان يدخل قطعا ويشرب أطيب النبيذ مع ضباطه ويتناول الغداء معهم ، وهذا ما صنعه « كرومويل » حتما ، فقد تتباين الأساليب ، ولكن النتائج تكون طيبة في كل الاحتمالات تقريبا .

وقد قضينا مع الجيش ظهيرة ذلك اليوم كله ، وحينما رجعنا الى القافلة حيث أمواج الشاطئ الجميل كانت الساعة قد تجاوزت السابعة ، وقد ارتفعت روحى المعنوية الى حد تناسيت فيه كل متاعب

اليوم ، وظللت اتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل وقبل أن يابى « مونتجومرى » الى فراشه في الساعة العاشرة حسب عادته ، طلب الى أن اكتب له شيئاً في دفتر يومياته الشخصي ، وقد كتبت له في هذه المرة وفي مرات لاحقة طيلة الحرب ، وهذا ما كتبت في هذه المرة :

« آمل أن تكون الذكرى السنوية « لبلنهايم » التي تشير الى بداية القيادة الجديدة - بداية خير لقائد الجيش الثامن ورجاله ، وأن تؤدي بهم الى الشهرة وذيوع الصيت والحظ التي يستحقونها » .

وفي الثاني والعشرين من اغسطس زرت كهوف « طرة » قرب القاهرة ، حيث كانت تجرى عمليات اصلاحية واسعة النطاق ، ومن هذه الكهوف ، قطعت الاحجار التي بنيت منها الاهرامات قبل آلاف السنين ، وقد بدت الآن رائعة الشكل كما بدا لي ان العمل يسير سيرا نشيطا دقيقا في المنطقة ، وان جماهير غفيرة من العمال الفنيين تعمل ليل نهار في عمليات الاصلاح الضرورية ، ولكن كانت لدى ارقامى وحقائقى ، وكنت باستمرار غير راض عن سير العمل . تضيق المجال الذي يسير فيه ، ولعل العيب الوحيد هو أن الفراعنة لم يشيدوا أهرامات أكثر عددا واضخم حجما ، وكان على أن أتحمّل مسئوليات أخرى ، فقد قضيت بقية النهار اتنقل بانطائرة من مكان الى آخر أفتش المؤسسات وأخطب في الجنود وقد رأيت في المطارات بين ألفين وثلاثة آلاف طيار حشّنوا فيه لاتحدث اليهم ، وقد زرت أيضا كل الالوية واحدا اثر الاخير ، كما زرت فرقة الجبايين التي كانت قد نزلت الى البر في ذلك اليوم ، وعدنا الى السفارة في ساعة متأخرة من المساء .

وفي الأيام الأخيرة من الزيارة تركزت كل افكارى على المعركة المتوقعة : فقد يبدأ رومل هجومه في أية لحظة بقوة هائلة مدمرة ، من السلاح الساحق ومن المحتمل أن يصل الى الاهرامات دون أن يواجه أى دفاع حقيقى - عدا قناة واحدة - ثم يصل الى نهر النيل الذى يجرى عند نهاية المرج « الذى تقوم فيه دار السفارة ثم بدرت من طفل « الليدى لامبسون » ابتسامة عذبة تفتحت لها أسارير وجهه الصغير من عربته الواقفة تحت ظلال اشجار النخيل ، وتطلعت عبر النهر الى الآفاق المستوية القائمة وراءه ، وبدأ كل شيء سهلا وادعا ، لكننى اقترحت على الام أن تمضى بطفلها الى بلد آخر غير القاهرة حيث أن جوها غير مناسب للأطفال ، اذ هو شديد الحرارة شديد الرطوبة ، وقلت لها : « لم لا تبعثين بالطفل الى لبنان ليستنشق هواء العليل ؟ » ولكنها لم تستمع الى نصيحتى ، وليس في إمكان انسان أن يقول انها لم تحكم على سلامة الوضع العسكرى حكما صائبا !

وقد اتخذت بالاتفاق مع الجنرال اليكسندر ورئيس اركان الامبراطورية البريطانية سلسلة من الاجراءات المتطرفة للدفاع عن القاهرة والخطوط المائية المتجهة شمالا واقمنا استحكامات للبنادق ومراكز للمدافع الرشاشة وقد قمنا بئث الالغام في الجسور واقمنا

الأسلاك الشائكة على مداخلها واطلقنا مياه السدود على الجبهة العريضة الواسعة وأعطينا كل الموظفين البريطانيين في القاهرة بنادق وقد كانوا يفوقون في تعدادهم الألوف من ضباط الأركان والكتبة الذين يرتدون الملابس العسكرية ، وأصدرنا إليهم الأوامر بأن يتخذوا مراكزهم حين يحدث أى طارئ عند خط النهر المحصن ولم تكن الفرقة الجبلية الحادية والخمسون حتى الآن تعد خليفة بالصحراء ، فعهدنا إلى هؤلاء الجنود الممتازين ، بالدفاع عن جبهة النيل الجديدة ، وكان الموقع قويا للغاية بسبب ندرة المعابر والجسور التي تعبر منطقة الأقنية أو المنطقة التي يفمرها الفيضان في الدلتا وبدأ لنا أن من الممكن إيقاف هجوم مدرع على هذه الطرق الجسرية ، وكان الدفاع عن القاهرة من اختصاص الجنرال البريطاني الذي يتولى قيادة الجيش المصري الذي اصطفت كل فرقة أيضا للاشتراك في الدفاع وتراعى لي أن من الأفضل على أية حال أن يعهد بالمسئولية - إذا حدث أى طارئ - للجنرال « ميتلاند ويلسون جيمو » الذي كان قد عين لقيادة العراق - وإيران ، والذي كانت قيادته لا تزال - في هذه الأسابيع الحرجة - في مرحلة التشكيل في القاهرة ، وأصدرت إليه توجيهها طالبا إليه أن يطلع على كل تفاصيل خطة الدفاع وأن يتحمل المسئولية في اللحظة التي يبلغه فيها الجنرال اليكسندر أن القاهرة أصبحت في خطر !

وكان على أن أرجع إلى الوطن مساء يوم المعركة، لأمارس تصريف أمور تتناول آفاقا أوسع - وأن كانت لا تقل قطعاً عن المعركة المتوقعة - وكنت قد حصلت على موافقة وزارة الحرب على التوجيه الذي قررت إصداره إلى الجنرال اليكسندر ، فقد غدا السلطة العليا التي أتعامل معها في الشرق الأوسط ، وكان مونتهجومري وجيشه الثامن ، يعملان تحت قيادته ، وكذلك كان « ميتلاند ويلسون » وكان قائد الدفاع عن القاهرة ، حين تدعوه الضرورة إليه ، وكان « اليكس » - كما كنت أدعوه منذ أمد طويل - قد انتقل بقيادته إلى الصحراء قرب الأهرامات وكان بوداعته ومرحه وتفهمه لكل شيء يوحى بالثقة المطلقة المتزنة لكل انسان .

وفي الساعة السابعة والدقيقة الخامسة من مساء الثالث والعشرين من أغسطس غادرت مطار الصحراء وقد نمت نوم من استراح ضميئه - لنهجه طريق العدل - إلى ما بعد بزوغ الشمس في الصباح التالي، وحينما نهضت من سريرى إلى غرفة قيادة الطائرة « الفدائي » كنا نندنو من جبل طارق وقد بدأ لنا الهبوط أمرا خطرا ، فقد كان ضباب الصباح يحجب كل شيء ولم يكن في إمكان المرء أن يكشف الرؤية أمامه أكثر من مسافة مائة ياردة وقد كنا نحلق على ارتفاع يزيد على ثلاثين قدما فوق البحر ، وسألت « فاندرو » : هل يسير كل شيء على مايرام ؟ وأنصحت له عن صادق أملى في ألا يصدم بصخرة جبل طارق ولم يكن جوابه مطمئنا بصورة خاصة ، ولكنه كان واثقا من الخطة التي اتبعها بشأن عدم الطيران على ارتفاع عال ، وهو ما كنت أفضله ومكثنا على هذه الحال أربع دقائق أو خمسا ، وفجأة دخلنا في جو طيب تبدو فيه أمامنا قمة جبل طارق العظمى « مطلة على البرزخ » وعلى قطعة الأرض

المحايدة التى تمتد الى القلعة باسبانيا وبالجبل المسمى « ملكة العرش الاسباني » ولقد أمكن « فاندركلوت » أن يكون دقيقا للغاية بعد طيران ثلاث ساعات أو أربع ، عبر الضباب ، وبعد عدة مئات من اليلاردات مرونا على الصخور دون أن نرغم على تحويل اتجاهنا وهبطنا هبوطا سليما دقيقا ، ومع ذلك فما برحت احسب انه كان من الافضل ان نرتفع عاليا ودرنا فوق المطار ساعة أو ساعتين ، فقد كان معنا مايكفينا من الوقود ، ولم يكن هناك ما يدعو لان نتعجل ، ولكن قائد الطائرة تصرف تصرفا رائعا ، وقضينا الصباح مع الحاكم ، وبعد الظهر طرنا الى الوطن بعد ان قمنا بجولة واسعة عبر خليج «بسكاي» عندما أرخى الليل سدوله على الكون .

وحيثما بدأت بعثتى الى القاهرة وموسكو ، لم يكن قد تم بعد اختيار من يتولى قيادة عملية المشعل ، وكنت قد اقترحت فى الحادى والثلاثين من يوليو انه اذا اختير الجنرال ماريشال لتولى القيادة العليا لعملية عبور المانش فى عام ١٩٤٣ ، فانه يجب ان يعين ايزنهاور نائبا له ، وأن يسبقه الى لندن ليعد لعملية «المشعل» التى يجب ان تسند قيادتها اليه ، وأن يكون الجنرال اليكسندر نائبا له وقد اتجه الى تنفيذ هذا الاقتراح ، وقبل ان اغادر القاهرة الى موسكو أرسل الرئيس روزفلت الى بموافقة على اقتراحى ، ومع ذلك فقد بقيت أمامنا أمور كثيرة تنتظر الموافقة عليها قبل أن نصل فى خططنا الى مراحلها الأخيرة . وفى اليوم التالى لوصولى الى لندن قدم الى الجنرالان ايزنهاور وكلاارك لتناول الغداء معى، وبحثاوضاع العملية. وقد كانت العلاقات بينى وبين هذين القائدين الأمريكيين فى هذا الوقت اوثق ما تكون . وكنت منذ وصولهما الى لندن فى شهر يونيو التقي بهما يوم الثلاثاء من كل اسبوع حول مائدة الغداء فى داوننج ستريت رقم ١٠ . وقد نجحت هذه الاجتماعات نجاحا باهرا وكنت وحدى معهما فى الغالب ، وكنا نبحث كل قضايانا وكأننا من بلد واحد، وكثيرا ما عقدنا سلسلة من المحادثات غير الرسمية فى حجرة المائدة ، وكانت تبدأ فى العاشرة مساء وتظل الى ساعة متأخرة من الليل . وكثيرا ما قدم الحبيران الأمريكيان لقضاء ليلة أو عطلة نهاية الاسبوع فى تشيكرز. وكنا نتحدث فى هذه المناسبات فى كل الشئون العامة . وانى لوائق بأن هذه الاتصالات الوثقى ، ضرورية لإدارة دفعة الحرب ولم يكن بوسعى أن أسيطر على زمام الموقف كله دونها .

وفى الثانى والعشرين من سبتمبر ، عقدنا اجتماعا لرؤساء أركان الحرب برياستى وقد شهدته ايزنهاور ، واتخذنا فيه قرارا نهائيا ، وحددنا موعد البدء بعملية « المشعل » فى الثامن من شهر نوفمبر .

وفى خلال ذلك قام رومل بمحاولة جديدة ثبت فيما بعد ، أنها المحاولة الأخيرة للوصول الى القاهرة ، وحتى انتهاء هذه المحاولة ظلت افكارى عالقة بالصحراء وتجربة القوة الدائرة فى ربوعها ، وقد كنت اثق تمام الثقة فى قادتنا الجدد كما كنت متيقنا أن تفوقنا فى العدة والعدد ، هو الآن اكثر منه فى أى وقت مضى ، ولكن المفاجآت المزعجة

التي حدثت في العامين الماضيين ، كانت تجعل من العسير استبعاد القلق حتى النهاية .

ولما كنت قد زرت أخيرا الأرض التي سيدور فيها القتال، وكانت صورة الصحراء بصخورها المتعرجة ، وبطاريات المدفعية ودباباتنا وقواتنا المختبئة فيها تأهبا لوثة مضادة لا تزال تخطر بفكري ، فأتى كنت أرقب المعركة الضاربة بأفكارى تمام المراقبة ولا مرية فى أن أية نكسة جديدة لن تحمل فى حد ذاتها كارثة فقط ، بل ستؤدى أيضا الى القضاء على سمعة بريطانيا نهائيا ، فضلا عما يكون لها من تأثير واضح على المحادثات التي نجريها حينئذ مع حلفائنا ، أما اذا صد رومل من الجبهة الثانية فان الثقة النامية والاحساس المتزايد - بأن الميزان تكاد كفته ترجح الى جانبنا - سيساعدان على الوصول بمختلف القضايا الاخرى الى مرحلة الاتفاق .

وقد وعد الجنرال اليكسندر أن يخبرنى ببداية المعركة بأن يبعث الى بكلمة « زيب » وهى اسم يطلق على الملابس التي كنت ارتديها وفى الثامن والعشرين من أغسطس أرسلت اليه أسأله : « ما رأيك فى احتمال قيام « زيب » حينما يكون القمر بدرا فى هذا الشهر ؟ » أن المخابرات العسكرية لا تعتقد ان الهجوم الالماني قد أصبح وشيكا . . . أطيب تمنياتى . واتي الى رده يقول : أن « زيب » تساوى كل يوم قيمتها من المال ، وتقوى احتمالات عدم قيامها حتى الثانى من سبتمبر . عندما تصبح غير متوقعة ، وفى الثلاثين من سبتمبر تلقيت برقية فى كلمة واحدة هى : « زيب » فأبرقت الى روزفلت وستالين أقول : « لقد بدأ رومل هجومه الذى كنا نتأهب له . . وقد تجرى معركة مهمة الآن » .

وكانت خطة رومل - كما توقعها مونتجومرى بالضبط - هى أن يجتاز بسلاح المدرعات نطاق الألغام الذى يضعف دفاعه فى الطرف الجنوبي من الجبهة البريطانية ، وأن يتجه بعد ذلك شمالا ليطوق مواقعنا فى الجناح والمؤخرة ، وكانت المسألة الحساسة الحرجة بالنسبة لنجاح هذه المناورة تقوم على احتلال روابى العلم - حلقا ، ولهذا فقد وزع مونتجومرى قواته ، بحيث يضمن - أولا - عدم سقوط الروابى فى قبضة العدو .

وفى ليلة الثلاثين من أغسطس اخترقت الفرقتان المدرعتان الالمانيتان ، حقول الألغام وفى الصباح قصدتا «منخفض الرجيل» وأخذت فرقتنا المدرعة السابعة تتراجع ببطء بصفة مستمرة أمامها الى أن اتخذت مواقعها فى الجناح الشرقى وقد حاولت فرقتان ايطاليتان مدرعتان وفرقة آلية أخرى اختراق حقول الألغام شمال الفرقتين الالمانيتين ولكنهما لم تحرزا نجاحا يذكر ، فقد كانت الحقول أعمق مما تتوقعه ، وسرعان ما وجدت نفسها تحت وطأة نيران مدفعية شديدة من الفرقة النيوزيلندية، لكن الفرقة الالمانية التسعين الخفيفة ، كللت جهودها لاختراق حقول الألغام بالجناح حتى انها شكلت جناحين مدرعين اندفعا صوب الشمال ، وقد شن اللمان فى الوقت نفسه فى الطرف الثانى من الجبهة هجمات محكمة على الفرقة الهندية الخامسة والفرقة الأسترالية التاسعة ، فى حين أنه قد أوقف تقدمها بعد قتال عنيف ، وقد كان على المدرعات الالمانية -

الايطالية - بعد اجتياز « منخفض الرجيل » أن تزحف جهة الشمال صوب روابي العلم - حلقا « أو الشمال الشرقي جهة الحمام » ، وكان مونتيجومري يرجو الا تتجه الى الحمام ، فقد أثر ان يخوض المعركة في الارض التي اختارها وهي « الروابي » وقد أمكننا أن نوصل الى رومل خريطة زائفة توضح سهولة الانطلاق الى الروابي وصعوبة الاتجاه الى الحمام ، وقد أقر الجنرال « فون توما » الذي أسر بعد شهرين بأن هذه الخريطة الخادعة قد نجحت في تحقيق أهدافها ، وهكذا اتخذت المعركة الآن الشكل الذي أراده مونتيجومري ...

وفي الحادى والثلاثين استطاعت قواتنا أن تصد زحفا نحو الشمال وفي الليل هدأت مدرعات العدو هدوءا نسبيا بالرغم من أن المدفعية كانت تواصل ضربها بنيرانها فضلا عن قصف الطائرات لها وفي الصباح التالى تقدمت الى الخط البريطانى حيث كانت الفرقة العاشرة المدرعة في انتظار لقائها ، وكان الرمل في المنطقة اكثف مما كان متوقعا ، والمقاومة أعنف مما ارتقبوه ، وبعد الظهر استؤنف الهجوم ، ولكنه فشل وقد وجد رومل نفسه في مأزق ، فقد أنهك الاعياء حلفاءه الايطاليين ، ولم يكن يأمل في تعزيز وحداته المدرعة الامامية ، وكانت الاشتباكات العنيفة قد استنفدت ما لديه من وقود ، ولا شك في انه سسمع أيضا باغراق ثلاث ناقلات أخرى للزيت في البحر المتوسط وهكذا تحولت مدرعاته في الثانى من سبتمبر الى موقف الدفاع ، وأخذت تنتظر الهجوم الذى سيشن عليها .

ولم يقبل مونتيجومري الدعوة ، في حين لم يجد له مفرا من التراجع ، وفي الثالث من سبتمبر بدأت الحركة في الوقت الذى اندفعت فيه الفرقة البريطانية السابعة لمضايقته من الجناح ملحقه بالعدو افدح الخسائر في سياراته غير المدرعة وفي تلك الليلة بدأ الهجوم البريطانى المضاد على فرقته الخفيفة التسعين وفرقة تريسنتا الآلية ، وقد قدر مونتيجومري انه اذا أمكنه تدمير هاتين الفرقتين فانه بذلك يكون قد سد الثغرة التى فتحتها العدو في حقول الالغام قبل أن تنسحب منها المدرعات الالمانية الى الوراء ، وقد قامت الفرقة النيوزيلندية ، بهجمات قوية صمد لها العدو ، وتمكن الفيلق الالمانى من النجاة ، وتوقف مونتيجومري الآن عن مواصلة المطاردة ، وقرر تسليم زمام المبادرة حينما تسنح الفرصة .

ولم تكن قد اوضحت كذلك حتى الآن ، وقد اقتنع بصد آخر هجوم قام به رومل نحو مصر ملحقا به خسائر فادحة ، وقد تمكن الجيش الثامن وسلاح الصحراء الجوى من تسديد ضربة قاصمة للعدو ، دون أن تلحق بهما خسائر فادحة ، أو تحدث له أزمة حادة في خطوط مواصلته وقد أوضحت لنا الوثائق - التى صادرتها فيما بعد - أن رومل عندما وجد نفسه في مأزق حرج أخذ يلج في طلب العون والمساعدة ، وعلمنا أيضا انه كان في هذه الحالة قائدا منهكا لا يكف عن الشكوى وبعد شهرين اوضحت نتائج معركة « العلم - حلقا » ..

وبالرغم من سير كل وسائل الاسـتعدادات للعملياتين العظيمتين بسرعة في طرفى البحر المتوسط فان فترة الانتظار كانت تنطوى على

القلق الكثير وكانت الحلقة الداخلية التي تعلم كل شيء تحس احساسا جارفا بالقلق مما قد يحدث ، أما الذين لا يعلمون فقد أفرعهم ذلك الهدوء الذى ساد الامور ، وضايقهم أننا لا نؤدى عملا ما .

والآن ، وقد مرت ثمانية وعشرون شهرا فى تصريف شئون البلاد - من الناحية القيادية - منينا خلالها بسلسلة متواصلة من الهزائم العسكرية المنكرة ، وقد تحملنا هزيمة فرنسا وانهيأرها ، والهجوم الجوى على بريطانيا ونجونا من الغزو وما برحنا نحتفظ بمصر ، كما أننا أحياء نقف موقف التحدى . . هذا هو كل ما فى الأمر ومن جهة أخرى فقد منينا بسلسلة متلاحقة من الكوارث فهناك خيبة الأمل التى تجرنا مرارتها فى «داكار» . . وهناك أيضا خسارة كل ما كسبناه من الايطاليين فى الصحراء ومأساة اليونان وضياع جزيرة كريت ، ونكسات أخرى وأخرى مع اليابان ، وضياع «هونج كونج» واحتلال «الهند الهولندية» وكارثة سنغافورة ، وغزو اليابان لبورما وهزيمة أوكلنك فى الصحراء واستسلام طبرق والفشل فى «دييب» . . كلها حلقات فى سلسلة منينا بالفشل فيها ، ورؤنا بها ، فضلا عن أنها لا مثيل لها فى التاريخ . على أن الحقيقة القائلة بأننا ما زلنا وحيدين وإن أعظم دولتين فى العالم قد أصبحتا حليفين لنا تحاربان معنا محاربة يائسة . . هذه الحقيقة أضفت علينا بعض الثقة بالنصر النهائى ، ولكن هذه الثقة صهرت النقد والحرية وأطلقتها من عقالهما وخاصة بعد تبدد الاخطار الساحقة . أو ليس من الغريب أن تتعرض طبيعة ادارة الحرب ونظامها الى مثل هذا التحدى وهما فى عهدتى ؟ . .

ومن أبرز الامور ، أننى فى هذه المرحلة من الجمود الغريب لم أبعد عن السلطة ولم تتعرض لى ازاء هذا رغبات لتغيير أساليبي ، ولم أكن قطعا أرتضى هذه الامور ولو غادرت الميدان فى هذا الوقت لناأت بكاهلى اعباء الكوارث ولنسببت قطوف الظفر التى كان سيتم جنيها الى تركى المسرح ، فقد كادت الحرب وأوضاعها فى هذا الوقت تتحول بصفة عامة ، فمنذ بدأ يحالفنا النجاح المطرد - الذى لا يعكر صفوه بين الفينة والأخرى الا بعض النكسات البسيطة ورغم أن النضال سيكون طويلا ، شاقا ، وسيقتضى أصدق الجهد وأعظمه منا جميعا ، فقد وصلنا الى قمة المضيق وبدأ سبيلنا الى النصر يصبح أكيدا على أننى لم أحرم حقى فى الاشتراك فى هذه المرحلة الحديثة من الحرب ، بفضل وحدة وزارة الحرب وقوتها ، وبفضل ما أولانى زملائي السياسيون والعسكريون من ثقة ونتيجة لولاء البرلمان الراسخ وحسن نية الشعب التى لم يعترها الوهن وهذا كله يوضح مدى ما يحظى به الإنسان فى الامور من حظ طيب ، وأنه يجب عليه ألا يكثرث بأمر ما اللهم الا بأداء واجبه بأقصى ما يستطيع من عزم .

وفى خلال ذلك وجدت بعض التسلية عندما عكفت على دراسة ما قمت بنراسته من اقتراحات وزارة الخارجية بالتشاور مع وزارة الخارجية الامريكية حول مستقبل الحكومة العالمية بعد الحرب ، وقد قام وزير الخارجية فى شهر اكتوبر بتوزيع وثيقة هامة على أعضاء وزارة الحرب حول هذا الموضوع وقد أسماها «مشروع الدول الاربع» ،

ونصت هذه الوثيقة على أن يتولى الادارة العليا العالمية مجلس مكون من بريطانيا العظمى وأمريكا وروسيا والصين ، ويسرنى أنى وجدت فى نفسى القوة لأضمن هذه المذكرة - التى بعثت بها الى وزير الخارجية فى الحادى والعشرين من اكتوبر عام ١٩٤٢ - آرائى فى هذا الموضوع حيث قلت :

سأحاول بالرغم من ضغط الاحداث ، أن أكتب الرد ، ويبدو أن اختيار هذه الدول الأربع الكبرى أمر سهل جدا . . لكن ليس فى طاقتنا على أية حال أن نحدد حقيقة روسيا التى علينا أن نواجهها وليس فى طاقتنا أن نحدد الطلبات التى ستتقدم بها وقد يصبح هذا أمرا ممكنا بعد وقت قصير ، أما بالنسبة الى الصين ، فانه لا يمكننى أن أعبد « شونكينج » ممثلة لدولة عالمية عظمى ، ومن المؤكد أن أمريكا ستصوت فى جانب أية محاولة لتصفية الامبراطورية البريطانية فيما وراء البحار .

« ويجب أن أقر بأن أفكارى تتركز بصفة رئيسية فى أوروبا وبعث أمجادها باعتبارها القارة الام لكل الشعوب والحضارات الحديثة ، ولاشك فى أنه اذا هيمنت البربرية الروسية على حضارات الدول الاوربية الغربية واستقلالها ، فستكون تلك كارثة تجل عن الوصف . ولما كان من العسير على المرء أن يحدد الموقف الآن فان الاسرة الاوربية قد تمضى فى العمل متحدة فى ظل مجلس أوربى وطنى لاتطلع الى « ولايات متحدة أوربية » تخفف فيها القيود بين مختلف الدول ، وتحطم القيود المفروضة على التنقل والسفر كما أمل أن أرى اليوم الذى يدرس فيه الاقتصاد الاوربى ككل لا فى أجزاء معينة كما أرجو أن أرى مجلسا يشمل عشر وحدات مثلا ، كأن يشمل الدول العظمى السابقة مع عدد من الاتحادات التعاونية « كونيديراسيونات » كاتحاد اسكنديناويا والدانوب والبلقان وما ماثلها وأن يكون لهذا المجلس « قوة بوليس دولية » تتولى مهمة الحفاظ على « بروسيا » منزوعة السلاح ، وعلينا بالطبع أن نتعاون مع أمريكا فى معظم الاساليب المختلفة ، بيد أن أوروبا هى أهم ما يشغل بالنا ، ونحن بالطبع نتوقع أن يحول الروس والصينيون بيننا وبين العمل عندما يواجه

- السويديون والنرويجيون والدانيمركيون والهولنديون والبلجيكيون والفرنسيون والاسبان والبولنديون والتشيكيون والأتراك - مشكلات شائكة ملحة ويفتقرون الى مساعدتنا ، حتى تسمع أصواتهم ونداءاتهم . ومن اليسير أن يتوسع المرء فى دراسة هذه النظريات ، على أنه من سوء الحظ أن الحرب تستصرخنا كى نوجه اليها اقصى طاقات اهتمامنا » .

وهكذا دنونا من النهاية العسكرية التى يتوقف على نتائجها كل شىء . .

معركة العلمين

استمرت التدريبات والاعداد التخطيطى دون توقف فى الاسابيع التى تلت التغييرات التى حدثت فى القيادة بكل من القاهرة والجبهة ، وقد عزز الجيش الثامن بشكل لم يشهد التاريخ مثله من قبل ، ووصلت الفرقتان الحادية والخمسون والرابعة والاربعون قادمتين من الوطن ومتأهبتين لحرب الصحراء ، وزادت قوتنا فى سلاح المدرعات الى سبعة

ألوية تشمل أكثر من ألف دبابة ، كان أكثر من نصفها من طراز «جرانت» و «شيرمان» الأمريكيتين ، وتضاعف تفوقنا في العسدد في حين غدونا متكافئين في الكيف ، وقد حشدت للمرة الأولى في الصحراء الغربية قوة مدفعية ضخمة مدربة أحسن تدريب لتعزيز الهجوم المتوقع بين لحظة وأخرى . - وأصبح السدح الجوى في الشرق الاوسى تابعا لمفاهيم القيادة البرية العليا واحتياجاتها العسكرية ، دون أن تورغم على اتخاذ اجراءات سابقة لأوانها - وتقرضها علينا ضرورات الظروف الحرجة بسبب وجود المارشال الجوى العظيم على رأسه ، فقد كانت العلاقات بين القيادة الجوية « والجنرالات » الجدد أوثق ما تكون ، وغدا السلاح الجوى الصحراوى بين الذى يتولى قيادته مارشال الجو « كوننجهام » - قوة تربو على الخمسة والخمسين طائرة ، وكان ثمة مع الطائرات العاملة من مالطة مجموعتان تضم ما يقرب من ستمائة وخمسين طائرة مهمتها تحطيم موانئ العدو وطرق تموينه عبر البحر المتوسط والصحراء ، وأذا أضفنا الى المجموع مائة طائرة أمريكية من المقاتلات والقاذفات المتوسطة يتضح ان مجموع الطائرات العاملة غدا ألفا ومائتى طائرة .

وقد أنبأنا اليكسندر « فى مختلف البرقيات ، أن الرابع والعشرين من اكتوبر هو اليوم المختار لعملية الخطوة السريعة - » وهو الاسم الذى أطلقناه على الهجوم وقال الجنرال فى إحدى برقياتة : « ولما لم يكن هناك جناح مكشوف ، فإن المعركة ستدور بحيث نفتح ثغرة فى جبهة العدو سينفذ الفيلق العاشر - الذى يضم أكثر دباباتنا ويكون رأس رمح هجومنا - من هذه الثغرة ، ثم يتقدم فى وضح النهار ، ولن يستكمل هذا الفيلق تسليحه وعتاده قبل الاول من اكتوبر ، وسيقتقر بعد ذلك الى أن يتدرب مدة شهر تقريبا على الدور الذى سيقوم به ، واستطرد الجنرال يقول : وارى من المحتم أن يشعن الهجوم الرئيسى فى منتصف الشهر العربى حين يكون القمر بدار وسيكون هذا الهجوم رئيسيا ضخما للغاية مما قد يستغرق بعض الوقت ، وخاصة فتح ثغرة مناسبة فى خطوط العدو تنفذ منها قواتنا المدرعة فى أكثر ساعات النهار حتى يصبح الهجوم حاسما تماما ، ومرت الاسابيع .. ودنا الموعد ، وكان السلاح الجوى قد بدأ معركته مهاجما قوات العدو ومطاراته ومواصلاته وقد كان فى غاراته التى يشنها يولى القوات المعادية اهتماما خاصا ، وقد أغرقنا فى شهر سبتمبر ثلاثين فى المائة من سفن المحور التى تحمل المؤن الى افريقية الشمالية ، وقد حققنا هدفنا هذا عن طريق الغارات الجوية ، وقد ارتفع هذا الرقم فى شهر اكتوبر الى ٤٠٪ أما خسارة ناقلات الزيت ، فقد بلغت ٦٦٪ وحطمنا فى أشهر الخريف الاربعة ما يربو على مائتى ألف طن من حمولة بواخر المحور ، وكانت هذه الضربات بالنسبة لجيش رومل ، قاصمة بل مميتة ، وأخيرا وردت الكلمة المرتقبة فقد أ برق الينا الجنرال اليكسندر يقول « زيب » .

وفى الثالث والعشرين من اكتوبر انطلق ألف مدفع « ليلة البدر » حيث كان البدر تماما ، وقد ركزت هذه المدافع قذائفها على مدافع العدو

مدة عشرين دقيقة ثم اتجهت الى مواقع مشاته تقصفها قصفاً ٠٠ وتحت ستار هذه النيران الرهيبة الهائلة التي كان يعززها قذف شديد من الجو، تقدم الفيلق الثلاثون بقيادة الجنرال « ليز » والفيلق الثالث عشر بقيادة الجنرال « هوروكس » وقد تقدمت وراءهما فرقتان مدرعتان من الفيلق العاشر بقيادة الجنرال « لومسون » لاحتراز النصر ، وقد تمكنت الوحدات المتقدمة من أن تحوز انتصارات ساحقة تحت ستار النيران الحامية وأن تشق لنفسها طرقاً داخلية في صفوف العدو حينما أخذت خيوط الفجر الفضية تنتشر في الافق ، وتدحر جيوش الظلام وقد قام المهندسون بتطهير الألغام خلف القوات الامامية ولكننا لم نستطع أن نخترق حقول الألغام اختراقاً كاملاً على عمقها ، ولم يكن هناك أمل مبكر في أن تستطيع مدرعاتنا اختراق جبهة العدو ، وقد شقت الفرقة الافريقية الجنوبية طريقها في الجنوب الى الامام لحماية الجناح الجنوبي المتقدم على حين شنت القوة الهندية الرابعة هجمات من هضاب الرويسات واستطاعت الفرقة المدرعة السابعة والفرقة الرابعة والاربعون من الفيلق الثالث عشر أن تخترقا جبهة العدو الدفاعية المقابلة لهما وقد أرغم هذا الزحف العدو على أن يحتفظ بفرقتين مدرعتين ثلاثة أيام خلف هذا الجزء من الجبهة على حين كانت المعركة الرئيسية تتطور في الشمال .

وبالرغم من ذلك لم نتمكن حتى الآن من فتح ثغرة في صفوف العدو المتوغل في حقول الألغام والخطوط الدفاعية ، وفي الساعات الاولى المبكرة من صباح الخامس والعشرين من شهر أغسطس عقد مونتهجرى مؤتمراً حضره كبار قادته العسكريين وفيه أصدر أمره الى سلاحه المدرع بمواصلة ضغطه قبيل الفجر وفقاً لتعليماته الاصلية .

وبعد قتال عنيف في أثناء النهار تم الاستيلاء على اراض جديدة ولكن الحصن الطبيعي الذي يعرف برابية « الكلي » ، أضحي محصور الصراع العنيف مع الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشرة ، ولم يضاعف مونتهجرى ضغطه الى مدى أبعد من جبهة الفيلق الثالث عشر حتى يحتفظ بالفرقة المدرعة السابعة سليمة حتى نهاية المعركة .

وفي هذا الوقت حدثت اضطرابات خطيرة في قيادة العدو فقد نقل رومل الى المستشفى في ألمانيا في آخر شهر سبتمبر ، وخلفه في القيادة العامة الجنرال « شتوم » لكن الأخير أصيب بعد أربع وعشرين ساعة من بداية المعركة - بنسوبة قلبية مفاجئة توفي على أثرها ، وغادر رومل مستشفى بناء على طلب هتلر وعاد الى قيادته في الخامس والعشرين من هذا الشهر .

وقد ظل القتال دائراً طيلة السادس والعشرين من اكتوبر على امتداد الثغرة العميقة التي تم فتحها في خط العدو وخاصة في جوار « رابية الكلي » وانطلقت قوة العدو الجوية من عقالها - وهي التي كانت هادئة في اليومين الماضيين وأخذت تتحدى بشكل حاسم تفوقنا الجوي ، وجرت عدة معارك جوية كانت تنتهي دائماً بانتصارنا ، وقد أفلحت جهود الفيلق الثالث عشر في تأخير حركة سلاح المدرعات الالمانى ، وان لم تقلح في

منعه من الانتقال الى ما أصبح يؤلف الآن . . القطاع الفاصل في الجبهة ،
ولكن سلاحنا الجوي ، صب على هذه الحركة وابلا من قذائفه .

وفي هذه اللحظة انطلقت الفرقة الاسترالية التاسعة بقيادة الجنرال
«مورسهيدي» شمالا من هذه الثغرة في اتجاه البحر ، وسارع مونتيجمري
الى استغلال هذا النجاح الواضح ، فأمر القوات النيوزيلندية المتقدمة
نحو الغرب بالتوقف ، وأصدر أوامره الى الاستراليين بمواصلة التقدم
صوب الشمال ، وقد هدد هذا التقدم مؤخرة قسم من فرقة المشاة الألمانية
في الجناح الشمالي ، وفي الوقت نفسه أحس بأن قوة هجومه الرئيسي
قد بدأت تضغط وسط حقول الألغام ومواقع المدفعية القوية المضادة
للدبابات ، ولهذا ، أعاد حشد قواته وقام بهجوم جديد نابض بالحياة
والقوة .

وقد دار قتال فعال طيلة السابع والثامن والعشرين للاستيلاء على
«رابيه الكلي» تجاه هجمات الفرقتين المدرعتين الألمانييتين : الخامسة عشرة
والحادية والعشرين اللتين قدمتا من القطاع الجنوبي ، وقد أرسل الجنرال
اليكسندر يصور القتال بالعبارات التالية :

في السابع والعشرين من أكتوبر بدأ هجوم مدرع مضاد كبير ، وقد
كان على النمط القديم ، وقد هاجمنا الألمان خمس مرات بما كان لديهم من
دبابات ألمانية وإيطالية ، ولكنهم لم يحرزوا أي كسب بل منوا بخسائر
بالغة لا توازي ما منينا به من خسائر ، اذ كنا نحارب ونحن في موقف
الدفاع ، غير أنها كانت خسائر طفيفة ، وفي الثامن والعشرين قام العدو
بهجوم آخر بعد مناورات استطلاع طويلة بالغة الدقة - يبدو أنها
استغرقت كل ساعات النهار الباكر - لمعرفة المواقع الضعيفة وتحديد
مواقع مدافعنا المضادة للدبابات وقد بدأ هذا الهجوم بعد الظهر - بصورة
مركزة - على حين كانت وراءهم الشمس تنحدر الى مغربها ولم تحرز
مناورات الاستكشاف في هذه المرة نجاحا مثلما أحرزته فيما سلف من
الأيام لأن دباباتنا ومدافعنا المضادة للدبابات كان يمكنها أن تشتبك مع
العدو على أبعد مدى ، وحينما حاول تركيز قواته للقيام بالهجوم النهائي ،
تدخل السلاح الجوي الملكي ثانية على نطاق واسع وبشكل مدمر ، وقد
ألقت قاذفاتنا في خلال ساعتين ونصف الساعة ما يقرب من ثمانين طنا
من القنابل على منطقة حشوده التي كانت تمتد مساحتها أميالاً طويلاً
وميلين عرضاً وقد حالف الفشل هجوم العدو قبل أن يستكمل تشكيله ،
وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي حاول العدو فيها أن يتسلم قيادة
المبادرة .

وفي الفترة التي تمتد بين السادس والثامن والعشرين من أكتوبر،
قذفت طائراتنا بقنابلها ثلاث ناقلات نفط للعدو كان لها أهمية حيوية
فأغرقتها . وبذلك جنينا ثمرة طيبة لعملياتنا الجوية التي كانت جزءاً
لا يتجزأ من المعركة البرية .

وفي هذا الوقت أعد مونتيجمري خطته ومواقعه للهجوم الحاسم ،
الذي أسميناه «الهجوم الأكبر» ، وقد أقصى عن الجبهة الفرقة النيوزيلندية

والفرقة البريطانية المدرعة وقد كانت الأخيرة في حاجة ملحة الى التنظيم بعد بلائها الرائع في صد سلاح المدرعات الالماني في روابي «الكلي» وقد حشدت الفرقتان البريطانيتان المدرعتان السابعة والحادية والخمسون بالإضافة الى لواء من الفرقة الرابعة والاربعين وادمجت في قوة احتياطية واحدة ، وقد تقرر : أن يكون النيوزيلنديون في مقدمة الهجوم ومعهم لواء المشاة البريطانيان : (١٥١) و (١٥٢) ، ولواء المدرعات البريطاني التاسع .

وقد كان التقدم الاستراتيجي الرائع نحو الأمام وهو الذي تحقق بعد قتال تميز بالضراوة والشدة والعنف - هو الذي حول سير المعركة كلها الى جانبنا منذ بدأت . وفي الساعة الواحدة من صباح الثاني من نوفمبر بدأت عملية « الهجوم الأكبر » وقد تمكنت الألوية البريطانية الملحقة بالفرقة النيوزيلندية في ظل ستار قوى من المدفعية من أن تنفذ الى المنطقة المحصنة ، وقد مضى اللواء المدرع التاسع في زحفه ولكنه أمكنه أن يحتفظ بالرواق مفتوحا ، ثم تحركت الفرقة البريطانية في المعركة فقد هاجم كل ما تبقى لدى العدو من الدبابات على جانبي المرتفع ، ولكنه أمكنه صدّها . وهنا حانت « مرحلة القرار الأخير » ولكن تقارير طائراتنا الاستكشافية قد أثبتت أنه في الثالث والعشرين من نوفمبر - وعلى الرغم من أن العدو بدأ يتقهقر صمدت قوات مؤخرته المستخدمة في التغطية على « طريق الرحمن » في وجه الزحف الرئيسي لسلاح مدرعاتنا ، كالسد المنيع الذي يحول دون تقدمها ، وقد وصل أمر هتلر يحذر من التقهقر ، لكن النتيجة أفلتت من أيدي الالمان ، وكان علينا أن نفتح ثغرة ثانية في الجبهة ، وقد شن « اللواء الهندي الخامس » في الساعات المبكرة من صباح الرابع من نوفمبر ، هجوما خاطفا بالسيارات على بعد خمسة أميال جنوب تل العقاقير وقد أحرز هذا الهجوم نجاحا ملموسا منقطع النظير . . وهكذا كسبنا المعركة وأصبح الطريق مفتوحا أمام سلاح مدرعاتنا المطارد للعدو عبر الصحراء الغربية . .

وقد بدأ رومل انسحابه الكامل السريع ، ولكن وسائل النقل لم تكن متوافرة لديه حتى يخمل كل ما لديه من قوات ، كما أن الوقود كان ينقصه ، وعلى الرغم من أن الالمان كانوا قد قاتلوا ببسالة ، فانهم كانوا يفاضلون بين أنفسهم وبين خلفائهم الايطاليين في السيارات ، وترك الألوف من ست فرق ايطالية هائلة في الصحراء دون غذاء أو ماء ، ولم يعد لديهم من الأمل نسوي أن تقوم قواتنا بجمعهم للزج بهم في معسكرات الأسر . . وبعد ، فقد امتلأت أرض المعركة بحشد كبير من الدبابات المحطمة والمدافع والسيارات ، وتقول مذكرات الالمان انه لم يبق مما لدى الفرقة الالمانية من مجموع ٢٤٠ دبابة صالحة للاستعمال عند بداية المعركة - الا ثمان وثلاثون دبابة في الخامس من نوفمبر ، وكان السلاح الجوي الالماني ، قد تخلى عن محاولة الحصول على التفوق الجوي في مجال الموازنة وأصبح في وسع سلاحنا الآن أن يعمل في حرية وانطلاق ، لا يمنعه عائق ، مهاجما العدو بما يملك من موارد ، وهو يتقهقر في قواته الغفيرة من الرجال والسيارات في اتجاه الغرب ، وقد أثني رومل ثناء عاطرا على الدور البارز الذي لعبه السلاح الجوي الملكي في المعركة ،

وهكذا هزم جيش رومل هزيمة منكرة ، وغدا الجنرال «فون توما» مع تسعة جنرالات من الايطاليين أسرى في أيدينا .

وقد روادنا الأمل في تحويل الكارثة التي نزلت بالعدو الى « عملية إبادة » ، واتجه الهجوم النيوزيلندى الى الغسوتة ، ولكن حينما قدم النيوزيلنديون الى هناك فى الخامس من نوفمبر كان العدو قد انسحب منها ، وقد راودنا هذا الأمل فى طريق تقهقر العدو فى مرسى مطروح التي كانت هدفا لهجوم الفرقتين البريطانيتين المدرعتين الأولى والسابعة . وعندما أسدل ليل السادس من نوفمبر سدوله على الكون ، كانت الفرقتان تقتربان من هدفهما على حين كان العدو لا يزال يحاول - جاهدا - الهرب من الفخ الذى يكاد يحصره ويبيده . . وفجأة هطل المطر، وتضاءلت كميات الوقود لدى قواتنا الامامية فتوقفت عمليات مطاردتنا طيلة السابع من نوفمبر ، وقد حال هذا التوقف - الذى استمر أربعاً وعشرين ساعة - دون اتمام حركة الالتفاف لكن أربع فرق ألمانية وثمانى فرق ايطالية لم تستطع أن تصبح تشكيلات مقاتلة ، وأسر ما يقرب من ثلاثين ألف جندي كما استولت قواتنا على كميات كبرى من المعونات الحربية من مختلف الانواع ، وقد سجل رومل رأيه فى الدور الذى أدته مدفعيتنا فى هزيمته فقال : « وقد أظهرت المدفعية البريطانية مرة أخرى تفوقها الرائع المشهور ، ولعل أبرز ما فيها هو ، قدرتها على الحركة وسرعتها على التكيف وفقا لمقتضيات الهجوم » .

والخلاف بين معركة العلمين وبين المعارك الاخرى فى الصحراء واضح ، فالجبهة محدودة قوية التحصين فضلا عن أنها تضم قوات كبيرة، ولم يكن هناك جناح يمكن الالتفاف حوله ، وكان على الفريق الاقوى الذى يود الهجوم أن يخترق الجبهة ، وتكاد « معركة العلمين » تذكرنا بمعارك الحرب العالمية الأولى فى الجبهة الغربية وقد تكررت فى مصر المظاهر التى سبق أن رأيناها ، من أجل تجربة واختبار القوى التى شهدناها فى « معركة كمبرية » فى آخر عام ١٩١٧ وفى المعارك الكثيرة التى دارت فى عام ١٩١٨ . وأهم هذه المظاهر ، تمتع المهاجمين بطرق مواصلات قصيرة ، واستخدم المدفعية فى أكبر تركيز ممكن والقصف الاجوف وتوغل الدبابات فى هجوم الى الأمام .

وكان الجنرال مونتجومرى ورئيسه الجنرال اليكسندر قد أجادا اجادة تامة هذا اللون من الحروب بفضل التجربة والدراسة وكان مونتجومرى نفسه مدفعيا عظيما كما كان يؤمن - كما قال برناردشو عن نابليون : « ان المدافع تقتل الرجال » وسنراه دائما يحاول جمع ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مدفع ثم يشرکہا فى عمل تحت قيادة واحدة مركزة ، بدلا من اشتباكات البطاريات - وهى العمليات التى لا مفر منها والتى ترافق تقدم سلاح المدرعات فى المجالات الصحراوية - وبطبيعة الأمر ، كان كل شىء فى المعركة أضيق وأقل بكثير من معارك فرنسا « والفلاندرز » ، وقد فقدنا أكثر من ثلاثة عشر ألفا وخمسمائة رجل فى العلمين فى اثنى عشر يوما ، وقد فقدنا فى اليوم الأول من المعركة ستين ألفا ، وقد تضاعفت القوة النازية الدفاعية - من الناحية الثانية - عما كانت عليه فى الحرب

الماضية ، وفي هذه الايام كان المفروض أن تكون القوات المحتشدة للهجوم ضعفى القوات المدافعة أو ثلاثة أضعافها لا من حيث عدد المدافع فحسب ، بل من حيث عدد الرجال كذلك لتستطيع اختراق الجبهة المحصنة وتحطيمها برغم المدافعين عنها ، ولم يكن لدينا مثل هذا التفوق فى العلمين ، وكانت جبهة العدو تتألف ، فضلا على سلسلة الخطوط المتعاقبة من المواقع الحصينة ، من مواقع المدافع الرشاشة العميقة للغاية بكاملها وهى تشكل جهازا دفاعيا كاملا وأمام هذه المنطقة كلها يمتد درع هائل من حقول الألغام ، لم يسبق فى تاريخ الحروب له مثل فى قوته وكثافته، ولهذا الأسباب كلها ، فإن معركة العلمين ستحتل دائما صفحة مجيدة فى التاريخ العسكرى البريطانى .

وهناك سبب آخر لخلود هذه المعركة ، هو أنها تشير فى الواقع إلى انقلاب فى «محور الخط» ، وقد يقال : - وهو قول صحيح - اننا لم نحقق أى ظفر قبل العلمين ، ولكننا بعد العلمين لم نمن بأية هزيمة .

المشعل يوقد

لقد كان ما يضمرة الرئيس روزفلت للجنترال ديجول من حزازات ، وما يقوم به من اتصالات عن طريق الاميرال « ليهلى » مع حكومة فيشى ، وذكرياتنا عن تسرب أنباء تصميمنا على مهاجمة الاسطول فى « داکار » قبل عامين ، حافزا لنا على اتخاذ قرار بعدم الادلاء بشئ للفرنسيين عن عملية « المشعل » ولم يخطر ببالي مناقشة هذا التصميم ، ومع ذلك كنت ادرك تمام الادراك علاقاتنا نحن البريطانيين بديجول كما كنت أحس بما يحس به من اساءة بالغة من جراء تعمدا استثناءه من الاشتراك فى المشروع . وقد قررت أن يحاط علما بذلك قبل حدوثه ، كما قررت - كوسيلة للتخفيف من الاساءة التى ستلحق به وبحركته - أن أسند اليه الوصاية على مدغشقر وكانت كل الحقائق المائلة أمامنا فى شهور التأهب، وكل ما حشدنا من معلومات منذ ذلك الحين ، يسوغ الرأى القائل : ان الزج بديجول فى المشروع سيكون له صدق سيىء منبعث عن الفرنسيين فى افريقية الشمالية .

ان الضرورة الملحة لخلق شخصية فرنسية بارزة كانت جليلة واضحة ، وقد بدا للبريطانيين والامريكيين أنه ليس هناك من هو أصلى لهذه المهمة من الجنرال « جيرو » القائد الفرنسى صاحب الرتبة العالية ، الذى تناقلت الاساطير قصة هروبه المسرحى الغريب من السجن فى المانيا ، وكنت قد التقيت بجيرو فى متيز عام ١٩٣٧ . حينما زرت ماجينو، وكان يتولى قيادة أكبر قطاع فيه ، وقد حدثنى عن مغامراته فى الحرب العالمية الأولى كأسير حرب خلف الخطوط الألمانية ، ولما كنت أنا أسيرا هاربا فى حرب البوير ، كان هناك ما يجمعنا . وقد استعاد حينئذ كقائد جيش بعض مغامرات الصبا بطريقة أكثر إثارة ، وبدأ الأمريكيون محادثات سرية مع الجنرال ، وقد وضعت الخطة لنقله من « الرقييرا » الى جبل طارق فى اللحظة الحاسمة ، وقد تركزت آمال كثيرة على « دبوس الملك » وهو الاسم الذى أطلقناه عليه فى برقياتنا الرمزية ، وقد نقل « جيرو

ووالداه في سلام على الرغم من المخاطر البحرية التي تعرض لها .

وفي خلال ذلك كان أسطولنا الجبار يدنو رويدا رويدا من مسرح المعركة ، وكان على أكثر القوافل التي أبحرت من الموانئ البريطانية أن تمر بخليج بسكاي ، وأن تقطع كل طرق الغواصات ، وقد كنا نفتقر أشد الافتقار الى قوات حراسة ضخمة ، وكان علينا أن نخفي حشود بواخرنا الضخمة التي بدأت تحتشد منذ أوائل شهر أكتوبر في « كلايد » وغيرها من الموانئ الغربية ، وأن تقوم بأبحارها ، وقد نجحنا في ذلك نجاحا ساحقا ، وتراءى للألمان - وفقا لمعلومات دوائر مخابراتهم أن «داكار» هي هدفنا الجديد وقد احتشد في آخر الشهر ما يقرب من أربعين غواصة بين المانية وإيطالية جنوبى وشرقى جزر الآزور ، وقد هاجمت قافلة كبرى كانت في طريق العودة الى سيراليون ، وأغرقت ثلاث عشرة باخرة ، وكان في طاقتنا أن نتحمل مثل هذه الخسارة في مثل هذه الظروف ، وفي الثانى والعشرين من أكتوبر رحلت أولى قوافل « المشعل » ، وقبل السادس والعشرين من الشهر كانت كل باخرة نقل الجنود السريعة في طريقها ، في حين أبحرت القوات الأمريكية من أمريكا الى الدار البيضاء ، وهكذا اشتركت نحو ٦٥٠ باخرة في العملية كلها ، وقد عبرت خليج بسكاي أو «المحيط الاطلنطي» دون أن ترى للغواصات أو الطائرات الألمانية أى أثر .

وقد عبأنا لهذه العملية كل ما لدينا من قوات بحرية ، فتولت طراداتنا في الشمال مراقبة مضيق الدانمرك ومداخل بحر الشمال لمنع سفن العدو الحربية من أن تعترض سير الحملة ، وقامت طرادات أخرى - بحراسة الطريق الأمريكى قرب «جزر الآزور» ، كما قامت القاذفات الانجليزية والأمريكية ، بمهاجمة قواعد الغواصات على امتداد الساحل الفرنسى على الاطلنطي ، وفيما بين ليلتى الخامس والسادس من نوفمبر بدأت طلائع السفن تدخل البحر المتوسط دون أن يحس العدو بذلك ، كما أن العدو لم ير القافلة المتجهة الى « ميناء الجزائر » الا فى السابع من الشهر نفسه ، أى قبل أربع وعشرين ساعة فقط من موعد وصولها الى هدفها ، فهاجمت إحدى بواخرها !

وفي الخامس من نوفمبر طار أيزنهاور في رحلة خطيرة حتى وصل الى جبل طارق وكنت قد أسندت القلعة الى قيادته كي يتخذ منها مقره المؤقت باعتباره القائد العام لهذا المشروع الضخم الأول - وهو الذى تقوم به قوات بريطانية - أمريكية - وقد حشدت القوات الجوية الضخمة الضرورية لمثل ذلك فى القيادة للقيام بعملية « المشعل » ، وقد ازدحم البرزخ بالطائرات ووقف فيه من أسراب الطائرات أربعة عشر على أسم الأهبة لساعة الصفر ، وكان هذا النشاط يتم بالطبع على مرأى ومسمع من المراقبين الألمان ، وكنا نأمل أن يخطر ببال الألمان أن الهدف من هذه القوات الجوية هو تعزيز مالطة ، وقد بذلنا قصارى جهدنا لحملهم على هذا الاعتقاد ، ويبدو أنهم قد اعتقدوا ذلك .

وقد تكلم أيزنهاور في مذكراته بوضوح عن التجربة التي تشير القلق وهي التي مر بها فيما بين ليلتى السابع والثامن من نوفمبر ، وفي

خلال الأيام القليلة التالية - حيث كان الجنرال يبدى من دلائل الروعة
ما يجلب عن الوصف من احتمال مثل هذه الجهود ، وقد كانت ضخامة
العملية التي تقوم بها ، وعدم الاطمئنان الى الطقس العام الذي يقضى على
كل شيء ، فضلا على ما يرد اليها من الأنباء الصغيرة ، والتعقيدات الكبرى
عن موقف فرنسا ، والخطر المائل الذي يطل برأسه من أسبانيا .. كلها
أمور - اذا أضيفت الى القتال تبدو شاقة جدا على قائد يتحمل مسئوليات
ضخمة مباشرة .

وهنا ظهر الجنرال جيرو في الميدان ، وقد هيمنت على فكره انه
سيعين قائدا أعلى في افريقية الشمالية ، وان كل الجيوش البريطانية
والامريكية - التي لم تكن تعرف عنه شيئا سابقا مستوضع تحت قيادته ،
وكثيرا ما كان يحض على القيام بالانزال في فرنسا بدلا من افريقية ، أو
بالإضافة اليها ، وكثيرا ما كان يبدو له أن هذه الصورة لها نصيب من
الواقع وقد امتدت المناقشات بينه وبين الجنرال أيزنهاور أكثر من ثمان
وأربعين ساعة قبل أن يقتنع هذا الفرنسي الشجاع بمنطق الاحداث ..
وكنا قد عقدنا آمالا باسمة على « دبوس الملك » .. لكن يبدو أنه أكبر
من أن يخدع بما يتمتع به من نفوذ في مواجهة الحكام الفرنسيين ،
والجنرالات وجماعات الضباط الفرنسيين في شمال افريقية .

وفي هذا الوقت حدث تعقيد غريب . بيد أنه أتى مواليا في هذه
اللحظة خاصة فقد عاد الاميرال «دارلان» بعد أن قضى جولة تفتيشية في
شمال افريقية الى فرنسا لأن ابنه أصيب بشلل الأطفال ونقل الى
المستشفى في مدينة الجزائر ، واستدعت خطورة حالته أن يعود الاميرال
طارئا الى الجزائر في الخامس من نوفمبر ، وهكذا قلم «دارلان» الى
الجزائر عشية نزول القوات الانجليزية - الامريكية - وكان هذا مجرد
مصادفة غريبة ورهيبة في الوقت نفسه ، وكان المستر «روبرت مورفي»
الممثل الأمريكي السياسي في افريقية الشمالية يأمل أن يتمكن دارلان من
مغادرة البلاد قبل بداية الهجوم على سواحلها .. على أن هذا الذي
شغله مرض ولده ، قد تأخر يوما آخر أقام فيه في دار أحد الموظفين
الفرنسيين وهو «الاميرال فينارد» .

وفي الاسابيع الاخيرة تركزت آمالنا على الجنرال «جوان» ، القائد
العسكري الفرنسي في الجزائر ، وكانت علاقته بالمستر مورفي جيدة
وثيقة - وان كان المبعوث الأمريكي لم يخبره بالموعد الحقيقي للغزو وبعد
منتصف ليلة السابع من نوفمبر أخبره مورفي أن الساعة الحاسمة قد
أزفت .. وبرغم علاقات الجنرال «جوان» الوثيقة بنا وإخلاصه المتفاني
للمشروع كانت هذه الأنباء مفاجئة له ، وكانت آماله قد تركزت في توليه
القيادة الكاملة في الجزائر باعتباره الشخصية العسكرية الكبرى في
البلاد ولكن وجود الاميرال «دارلان» في المنطقة حينئذ يعرض سلطته
للتحدى ، وكان يعلم أن تحت امرته عددا لا يتجاوز المئات من الشبان
الفرنسيين المتحمسين ، وان الاشراف على الإدارتين : السياسية
والعسكرية ، قد انتقل زمامه من يديه الى يدي الوزير الاميرال «دارلان»
ولا مرية في أن القوات العسكرية والهيئات الادارية لن تدعن له الآن ،

وسأل «مورفي» : لماذا لم يخبروه فيما مضى بساعة الصفر ، وكانت الدواعي واضحة جدا ولم تبدل الحقيقة شيئا من سلطاته وصلاحياته. فدارلان موجود في المنطقة وهو المهيمن على كل ولاء لفرنسا - «فيشي» وقد قرر مورفي وجوان أن يطلبوا الى دارلان تليفونيا أن يحضر اليهما فورا ، وفي الساعة الثانية صباحا أوقف دارلان من نومه استجابة لمكالمة تليفونية عاجلة من الجنرال جوان ، وحينما أحيط الاميرال بنبا الضربة التي ستسدد بعد لحظات ، احمر وجهه وقال : « لقد كنت أعلم منذ زمن سحيق ، أن البريطانيين سخفاء ، ولكنني كنت أعتقد باستمرار أن الأمريكيين يفوقونهم ذكاء ، وهأنذا بدأت أعتقد أنكم تقتربون من الأخطاء مثل ما يقتربون » .

وكان «دارلان» وهو الذي ذاع عداؤه لبريطانيا منذ زمن بعيد قد ارتبط بالمحور ارتباطا وثيقا ، على حين أنه وافق في مايو عام ١٩٤١ ، على منح تسهيلات في «داكار» الى جانب السماح بمرور الامدادات الى جيوش رومل عبر تونس ، لكن الجنرال «ويجان» الذي كان قائدا عاما في شمال افريقية ، أوقف هذه العملية قبل ذلك لانها تحتوي على الحيانة وقد نجح في اقناع «بيتان» برفض هذا الطلب الالماني ، ولما كان هتلر حينئذ مشغولا في الاعداد للحملة الروسية المنتظرة فانه لم يضغط على «بيتان» في هذه القضية ، على الرغم من أننا لم نسمع شيئا جديدا عن خطط المحور لاستخدام «داكار» ضدنا ، وقد فتحت الموانئ التونسية فيما بعد لسفن المحور ، وقامت بدور كبير بارز في تأمين العتاد والمؤن لجيوش رومل في صيف عام ١٩٤٢ ، وقد تغيرت الأوضاع الآن ، وتبدل معها موقف دارلان ، لكنه ظل مرتبطا ببيتان مظهرا ومخبرا ، بالرغم مما يراوده من افكار لمساعدة الاحتلال الانجليزي - الأمريكي لشمال افريقية ، وكان يعلم أنه اذا انضم الى الحلفاء ، فسوف يتحمل مسئولية قيام المانيا بغزو مناطق فرنسا غير المحتلة ، بيد أن كل ما يمكن عمله والحالة هذه هو أن يطلب الى بيتان برقيا تخويله صلاحية العمل ، ولم يكن امامه سوى هذا الطريق ، نظرا للحالة الرهيبة التي ورطته فيها سلسلة من الاحداث المتتابعة ، وهي التي تنكب فيها جانب الضمير .

وهناك في بعض الاماكن شرقي الجزائر وغربيها ، بدأت عمليات انزال القوات البريطانية والأمريكية من الاسطول الأمريكي البريطاني بعد الساعة الواحدة من صباح الثامن من نوفمبر بقليل تحت اشراف الرير أميرال بورو . وقد وجهت قطع الانزال الى السواحل التي اختيرت لاتمام العملية بعناية كافية للغاية . وفي الغرب نجحت طلائع اللواء البريطاني الحادي عشر نجاحا كاملا . أما في الشرق فقد انحرفت بعض قطع الانزال التي تحمل الأمريكيين عن مواقعها المحدودة عدة أميال بسبب التيارات المنطلقة . وقد أدى هذا الى حدوث بعض الاضطراب والتأخر . وقد حققنا - لحسن الحظ - عنصر المفاجأة ، ولذا كانت المقاومة على الشاطئ - تكاد تكون مفقودة تقريبا . وسرعان ما تحققت الهيمنة التامة ، وقد رأت إحدى طائرات سلاح الاسطول اشارة ودية من الارض ، فهبطت في مطار «بليدة» ، واستطاعت بالتعاون مع القائد الفرنسي المحلي أن تحافظ على المطار حتى وصلت قوات الحلفاء قادمة من الشواطئ .

وفي ميناء الجزائر نفسها جرى قتال عنيف حينما حاولت المدمرتان «البريطانيتان» بروك ، ومالكو ، اقتحام مدخل الميناء ، وأنزلتا قوات أمريكية - على الحاجز المائي ، لتسيطر على الميناء ، وقد استولت على بطارياته الساحلية ، وحالت دون اغراق السفن الفرنسية أو تخريبها ، وكانت نتيجة هذا العمل تصدى المدمرتين لنيران البطاريات الفرنسية الساحلية وانتهى الأمر الى كارثة رهيبية ، فسرعان ما شلت حركة «مالكولم» ودخلت «بروك» الميناء بعد المحاولة الرابعة ، وأنزلت الجنود الذين تحملهم ، ولكنها سرعان ما غرقت عندما حاولت الانسحاب وأصيبت بأضرار بالغة . أما الجنود الذين نزلوا الى البر فقد وقعوا في الشرك ، وأجبروا على الاستسلام .

وفي الساعة الخامسة مساء أرسل دارلان برقية الى رئيسه قال فيها : «لقد دخلت القوات الأمريكية المدينة على الرغم من عرقلة عملياتنا لها . وقد خولت الجنرال جوان القائد العام التفاوض لتسليم مدينة الجزائر فقط وفي الساعة مساء تم استسلام مدينة الجزائر ، ومنذ هذه اللحظة أصبح الاميرال دارلان تحت سيطرة الأمريكيين . وقد استأنف الجنرال جوان قيادته تحت اشراف الحلفاء .

وفي وهران كانت المقاومة أشد . فقد اصطدمت مع قوات الطوارئ الأمريكية - الوحدات الفرنسية النظامية التي حاربت البريطانيين في سورية قبل ، يؤازرها في ذلك رجال القيادة البحرية الذين ما فتئوا يحملون ذكريات مؤلمة عن هجومنا على الاسطول الفرنسي في عام ١٩٤٠ . وقد توزع في جو عاصف فوج من جنود المظلات الأمريكيين ، كان قد غادر إنجلترا لتسلم المطارات في أسبانيا ، واستطاعت هذه الطلائع أن تشق طريقها ، الا أنها هبطت على مدى عدة أميال من هدفها بسبب خطأ في عمليات ملاحتها الجوية .

وفي ميناء وهران - حاولت سفينتان حربيتان بريطانيتان صغيرتان أن تنزلا عددا من الجنود الأمريكيين هادفتين من وراء ذلك - كما هو في الجزائر - الى الحيلولة دون تخريب الفرنسيين مؤسسات الميناء وتحطيم السفن وتحويل القاعدة الى قاعدة بحرية للحلفاء في أقرب وقت ممكن . وقد قابلت سفينتان بريطانيتان من سفن الشاطئ بقيادة القبطان «بيترز» وكنا قد حصلنا عليهما من الأمريكيين بمقتضى قانون الاعارة والتأجير - قابلتا نيرانا حامية من مدى قريب فحطمتا ، وبتحطيمها قتل معظم من كان على متنها من رجال . أما القبطان بيترز فقد نجا بأعجوبة ، وتشاء الأقدار أن يلقي حتفه بعد بضعة أيام في كارثة طائرة في أثناء عودته عليها من إنجلترا . وقد منح بعد موته وسام «صليب فيكتوريا» و «الخدمة الممتازة الأمريكي» .

ومع أشعة الفجر البيضاء الرائعة ، نشطت المدمرات الفرنسية والغواصات في خليج وهران ، ولكنها لم تلبث أن أغرقت أو دمرت . وقد آزرت الوحدات البريطانية البارجة «رودني» بضرب البطاريات الفرنسية الساحلية ، وظل القتال حتى صباح العاشر من شهر نوفمبر -

حينما شن الامريكيون هجومهم النهائي على المدينة ، ولم يحسن وقت الظهيرة حتى استسلم الفرنسيون .

وقبيل فجر الثامن من نوفمبر وصلت قوة العمليات الغربية الى الساحل المراكشي ، وكان الهجوم الرئيسي ، الى جانب هجمات جناحي الشمال والجنوب من الميناء على مقربة من الدار البيضاء . وكان الجو جميلا ، وان كان معتما . وكانت الأمواج على الشاطئ أقل هياجا مما كان متوقعا ، ولكنها لم تلبث أن اضطربت بعد ذلك ، وبعد أن أقامت قواتنا لها مركزا ثابتا على الشاطئ ، وقد دار قتال رهيب في البحر

ففي ميدان الدار البيضاء اشتبكت البارجة « جان بورت » التي امكنها ، بالرغم من أن بناءها لم يتم بعد - أن تستعمل مدافعها الاربعة عيار ١٥ بوصة « في معركة مع البارجة الامريكية ماشويست ، على حين أقلعت المدمرات الفرنسية ، يؤازرها الطراد بريموجيه ، لمقاومة حركة النزول وقد التقت هذه الوحدات وجها لوجه بالأسطول الأمريكي كله ، وحطمت سبع سفن فرنسية وثلاث غواصات ، وفقد الفرنسيون عددا من الرجال زاد على الألف ، وأشعلت النيران في البارجة جان بورت ، وجنحت الى الشاطئ وفي صباح الحادي عشر من نوفمبر استسلم « نوجيس » المقيم الفرنسي العام عندما تلقى أمرا من دارلان ، وبعث الى فيشي ببرقية يقول فيها « لقد فقدت كل ما كان لدى من سفن القتال والطائرات بعد ثلاثة أيام من القتال العنيف المحتدم » .

وكان « مبيرين » قبطان الطراد بريموجيه يتمنى أن يظفر الحلفاء بالنصر ، ولكنه مع ذلك صرع على جسر طراديه وهو منهمك في تنفيذ أوامره . ولا مرية في أن من حقنا أن نشكر الأقدار لأنها لم توقفنا مثل هذه المواقف الحرجة من الولاء المتعارض وأخذت أنباء متناثرة من هنا وهناك ترد الى مقر قيادة الجنرال ايزنهاور في جبل طارق ، حيث أخذ يواجه الآن وضعاً سياسياً خطيراً ، فقد كان متفقاً مع الجنرال جيرو على أن يسند اليه قيادة بعض القوات الفرنسية التي قد تنضم الى قضية الحلفاء ، وفجأة ظهر على المسرح السياسي رجل يستطيع أن يقرر بالفعل انضمام هذه القوات الى الحلفاء فعلا ، وبصورة نظامية أولا ذلكم هو الأميرال « دارلان » ولم يكن الأمل في ولاء هذه القوات « لجيرو » قد اختبر بعد ! وان كانت الدلائل غير مشجعة على الإطلاق ، ولهذا طار الجنرال جيرو في صباح التاسع من نوفمبر الى الجزائر ، وطار بعده بقليل الجنرال « كلارك » : النائب الشخصي للجنرال ايزنهاور . وكان في استقبال كبار القادة العسكريين الفرنسيين في الجزائر ، فتوارى فتور .

وكانت فرق المقاومة التي نظمها العملاء البريطانيون والامريكيون قد انهارت واختفت ، ولم يصل كلارك في اجتماعه الأول بدارلان الى أي اتفاق ، وكان من الواضح ، أن أي مسئول لن يقبل جيرو قائدا فرنسيا أعلى ، وفي اليوم التالي اجتمع « كلارك » مرة أخرى بالأميرال دارلان ، وقد تحدث الى ايزنهاور بالمسرة بأن الاتفاق مع « دارلان » هو الحسل الوحيد ، وأن الظروف لا تسمح بمناقشات برقية مع لندن وواشنطن ،

ولم يكن « جيرو » حاضرا هذا الحديث ، أما دارلان فقد تردد لأنه يرتقب تعليمات « فيشي » ، وقد أعطاه كلارك مهلة نصف ساعة لاتخاذ قراره النهائي ، ووافق الأميرال بعد لآى على اصدار أمره بوقف إطلاق النار ، بصورة عامة فى كل أنحاء افريقية الشمالية وتولى الماريشال السلطة التامة للامبراطورية الفرنسية بافريقية الشمالية وأصدر أوامره الى كل الموظفين بالبقاء فى مناصبهم .

وأصدر « دارلان » أيضا أمره الى الأميرال « استيفا » المقيم الفرنسى العام فى تونس بأن ينضم الى الحلفاء ، وكان هذا تابعا مخلصا لفيشى ، وقد تقصى تطور الأحداث فى فزع وقلق ، ولما كان أقرب الى العدو من دارلان أو « فوجيس » ، حيث أن الأعداء يرابطون فى « صقلية » وعلى حدودها الشرقية ، فقد كان وضعه أسوأ من وضعهما ، وكان كبار مساعديه لا يقلون عنه قلقا واضطرابا ، وتردد فى اتخاذ القرار ، وفى التاسع من نوفمبر استولت وحدات من السلاح الجوى الألمانى على مطار العوينة « الهام » ، وفى اليوم نفسه وصلت قوات ألمانية وإيطالية الى البلاد ووجد « استيفا » نفسه فى وضع يائس بين قوات المحور القادمة من الشرق من طرابلس وقوات الحلفاء التى تستحث الخطأ من الغرب . فقرر أن يظل على ولائه « لفيشى » ، أما الجنرال الفرنسى « باريه » - الذى وجد نفسه فى البداية فى موقف مضطرب - فقد قرر أخيرا أن يتحرك مع القسم الأكبر من الحامية الفرنسية غربا ، وأن يضع نفسه تحت تصرف الجنرال « جيرو » ، وفى بنزرت استسلم للمحور ثلاثة زوارق طوربيد وتسع غواصات فرنسية .

وفى الاسكندرية - حيث جرد الأسطول الفرنسى من أسلحته منذ عام ١٩٤٠ - لم تصل المحادثات التى جرت مع الأميرال « جوديفرى » الى اية نتيجة ، اذ ظل على ولائه لفيشى ، وأبى أن يعترف بسلطة دارلان وكان من رأيه أن الحلفاء اذا لم يستولوا على تونس ، فلن يمكنهم ادعاء تحرير فرنسا ، وهكذا ظلت سفنه معطلة الى أن تمكنا أخيرا - وبعد وقت طويل من الاستيلاء على تونس ، وفى دكاك أذعن الحساكم الفيشى الجنرال « بواسون » لأوامر « دارلان » بوقف المقاومة فى الثالث والعشرين من نوفمبر لكن وحدات الأسطول الفرنسى هناك ، أبت أن تنضم الى الحلفاء ، ولم تنضم البارجة « ريشيليو » والطرادات الثلاثة الى الحلفاء الا بعد أن تم الاستيلاء على الشمال الافريقى كله .

لقد كانت أحداث النزول البريطانى - الأمريكى فى افريقية الشمالية ذات نتيجة عاجلة فى فرنسا . فالألمان منذ ديسمبر عام ١٩٤٠ قد أعدوا خطة تفصيلية كاملة لاحتلال ما تبقى من فرنسا ، وقد نفذت هذه الخطة الآن ، وكان هتلر يهدف أولا الى السيطرة على الوحدات الرئيسية للأسطول الفرنسى الموجودة فى طولون ، وكان الجنرال ايزنهاور تواقا كذلك الى أن يستولى على هذه الغنيمة العظمى فى الوقت الذى كان يتفاوض فيه مع دارلان ، وكان هذا يبعث بالرسائل الى فيشى

لقد كان الألمان يتقدمون بسرعة فائقة نحو ساحل البحر المتوسط ، ويحتلون ما تبقى من فرنسا ، وقد يسر هذا التطور مهمة دارلان وأصبح

فى امكانه أن يقول - مع ثقة كل الموظفين والعسكريين فيما يقول :- ان المارشال بيتان لم يطلق سراحه بعد .

وقد هزت الحركة الألمانية دارلان هزة عنيفة ، فقد غدا مصير الأسطول الفرنسى مرة ثانية - كما حدث فى عام ١٩٤٠ - فى كفة القدر وكان الاميرال هو الرجل الوحيد الذى يمكنه أن ينقذه ، فبادر الى العمل بشكل حاسم ، وأبرق بعد ظهر الحادى عشر من نوفمبر الى فرنسا يقول : ان على أسطول طولون أن يخرج الى عرض البحر ، اذا كان مهددا بالوقوع مريعا فى قبضة الالمان .

وقد أرعد الاميرال « أوفان » وزير بحرية فيشى أن ينضم الى دارلان ، ولكنه لم يكن فى وسعه أن يقوم بأى عمل فى وجه « لافال » وازاء موقف القادة الفرنسيين فى طولون ، وكان الاميرال - « دى لا بورد » القائد العام لاسطول فرنسا فى البحر المتوسط متطرفا فى عداوته للبريطانيين ، وعندما سمع بنزول الحلفاء فى شمالى افريقية أراد أن يخرج الى جانب البحر ثم ينقض على قوافل الحلفاء وقد رفض تلبية طلب دارلان قدومه الى افريقية وقد وصل الالمان الى قطاع القاعدة البحرية الفرنسية فى الوقت الذى توصل فيه الى اتفاق لاقامة قاعدة حرة حول الميناء يتولى الجنود الفرنسيون حراستها وقد جرت محاولات لتحسين الميناء وتعزيز حاميته ، ولكن الالمان طلبوا فى الثامن عشر من نوفمبر ، انسحاب كل الفرنسيين من المنطقة وفى اليوم التالى استقال الاميرال دوفان ،

وقد قرر الالمان القيام بعمل حاسم ضد الاسطول ، وقد قاموا به فى السابع والعشرين من نوفمبر ، ولكن بسالة عدد من الضباط من بينهم الاميرال « لا بورد » نفسه مكنت من القيام بعملية تخريب جماعية للأسطول تمهيدا لاغراقه ، وبالفعل غرقت بارجة « وطارادان » وبارجتان وسبعة طرادات وتسع وعشرون مدمرة وزورق طوربيد وست عشرة غواصة - بالإضافة الى مجموعة أخرى من سفن حربية تعدادها ثلاث وسبعون .

وبعد شهر تقريبا لقي الاميرال دارلان مصرعه حيث كان يقود سيارته الى مكتبه فى القصر الصيفى بعد ظهر الرابع والعشرين من ديسمبر وفى مدخل المكتب أطلق شاب يناهز العشرين من عمره ويدعى « بونيه دى لا شابيل » النار على الاميرال ، فأصابه اصابة قاتلة أدت الى وفاته بعد ساعة تقريبا وهو على منضدة العمليات فى مستشفى قريب ، وكان القاتل الشاب - مقتنعا منذ وقت طويل - متأثرا بحالة عقلية خاصة بأنه منقذ فرنسا من الزعامة الشريرة ، وقد حوكم أمام محكمة عسكرية بأمر من « جيرو » ، وكم كانت دهشته حينما وجد حكم الاعدام ينفذ فيه رميا بالرصاص بضد فجر السادس والعشرين من ديسمبر بقليل .

وهناك عدد أقل من الرجال دفع ثمننا أبهظ مما دفعه دارلان نظرا لأخطائه فى التقدير فضلا على احتياجه الى الحلق ، فلقد كان شخصية محترفة قوية ، كرس حياته كلها لبعث الاسطول الفرنسى وقد نهض به الى مركز لم يصل اليه منذ أيام الملوك الفرنسيين ، ولم يحظ بولاء الضباط البحريين فحسب ، بل انه ظفر بولاء كل العاملين فى سلك البحرية ، وكان عليه - طبقا لوعوده المتكررة - أن يأمر كل أساطيل فرنسا فى عام ١٩٤٠

أن تتجه نحو فرنسا أو الولايات المتحدة أو الموانئ الأفريقية أو أى مكان آخر خارج نطاق السيطرة الألمانية ، ولم تكن هناك معاهدة ما تلزمه بذلك سوى ما قطعه على نفسه من تأكيدات بمحض اختياره وكان هذا قراره وتصميمه إلى أن ولاه المارشال « بيتان » وزارة البحرية في ذلك اليوم البشع : يوم العشرين من يونيو عام ١٩٤٠ . ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بعد ذلك بدوافع ذات طابع إداري ، فكرس ولاءه لحكومة المارشال « بيتان » وتخلي عن أن يكون بحارا وأصبح سياسيا وترك المجال الذي يعرفه جيدا إلى مجال آخر لا يسترشد فيه إلا بما يكره من عداوة لبريطانيا ترجع إلى أيام معركة الطرف الأغر « التي قتل فيها أحد أجداده » .

وقد برهن - وهو في مركزه الجديد - على أنه رجل جامد ، لا يزن ما يفعل بالقيم الأخلاقية - كما ينبغي - وكان الطموح هو الذي دفعه إلى ارتكاب أخطائه ، وكان أفقه كأميرال لا يمتد إلى أبعد من الأسطول ، كما أن آفاقه الضيقة كوزير ، كانت تتراكم إلى منافع الشخصية والمحلية فحسب ، وظل يمثل طيلة عام ونصف العام قوة عظمى في فرنسا المحطمة المنهكة القوى ، وفي الوقت الذي هبطنا فيه على أرض أفريقية الشمالية ، كان - ولاشك - الوارث الذي لا ينازع للمارشال العجوز ، وها هو ذا يتعرض فجأة لسيل منهم من الأحداث المذهلة .

وقد تحدث عما مر به من صعب ، فقد أخذت ترنو إليه كل المناطق الفرنسية في شمالي أفريقية وغربيها ، وقد خوله غزو هتلر لفرنسا فيشي « السلطة المطلقة » كما منحه الحق في اتخاذ قرار جديد حاسم ، وقد حقق للحلفاء الانجليز والأمريكيين الآن كل ما يطلبونه أعنى سمعة فرنسا ومكانتها العالمية وصوتها الذي يصغى إليه ضباط فرنسا وموظفوها في هذا المسرح الواسع الذي غرق الآن في الحرب وقد سدد ضربته الأخيرة فكانت موجهة إلى مصالحنا . . . وليس من حق أولئك الذين جنوا فائدة كبرى من انضمامه إلى صفوفنا ، أن يسيثوا اليوم إلى ذكراه . ويمكن للقاضي المنصف أن يقول : إن واجبه كان يحتم عليه أن يرفض محادثات الحلفاء الذين أساء إليهم في الماضي وأن يتحداهم ليصنعوا ما يريدون به ، ويسرنا كثيرا أنه اتخذ طريقا مضادا ، وقد دفع حياته ثمن هذا ، بيد أنه كان قد استنفد أكبر قسط من هذه الحياة ، ولم يبق له منها الكثير ، وقد اتضح آن ذاك أنه كان مخطئا حيث أنه لم يأمر الأسطول الفرنسي بالابحار إلى الموانئ الحليفة أو المحايدة في يونيو عام ١٩٤٠ ، على أنه كان على صواب حقا في قراره الرهيب الثاني ، ولعل أكثر ما آله وحز في نفسه أنه فشل في اجتذاب أسطول طولون ، وقد أعلن دائما أن هذا الأسطول يجب ألا يقع في أيدي الألمان ، لكنه أوفى بهذا التعهد أمام التاريخ . . . فلروحه الرحمة ، ولنحمد الله على أن الأقدار لم تشأ أن نواجه ما واجهه من امتحان عصيب تحطم تحت وطأته . .

زيارتى الثانية لواشنطن وطبرق

كان الجنرال أوكنلك - بالرغم من احساسه بقصوره عن القبض على ذمام المبادرة في الصحراء - يترقب في ثقة واطمئنان هجوم العدو ، وكان قائد الجيش الثامن الجنرال « ريتشى » قد جهز تحت اشراف رئيسه مراكز دفاعية قوية تمتد من الغزاة الى بئر هاشم على مدى أربعين ميلا جنوبا وتتكون من نقط منيعة تسمى « أبراجا » وتدافع عنها ألوية وقوات أكبر منها ، وأمامها خط طويل من الألغام وقف خلفه سلاحنا المدرع والفيلق الثلاثون على أهبة الاستعداد وقد قامت الاسلحة المدرعة في بداية معارك الصحراء كلها ما عدا معركة العلمين بحركة التفاف سريعة للجنحة الصحراوية . وفي ليلة ٢٦ - ٢٧ من مايو بدأ رومل هجومه فى ضوء القمر وتقدم بكل ما لديه من سلاح مدرع ، راجيا أن يشتبك مع سلاحنا المدرع ويحطمه ، ويستولى على طبرق فى اليوم الثمانى من الهجوم ولكنه لم يستطع أن يحقق هذا الهدف ، وفى العاشر من يونيه أرسل اليها الجنرال أوكنلك بعد قتال باسل مرير - تقديره خسائر الطرفين وقد أقررت أرقام الدبابات والمدافع والطائرات واعتبرتها دقيقة ولكن أذهلنى البيان التالى : « وتبلغ خسائرنا من الرجال ما يقرب من عشرة آلاف بينهم ثمانية آلاف من المؤكدة أنهم من الاسرى . أما خسائرنا من الفرقة الهندية الخاصة فلم تحدد بعد وهذا الفرق الكبير بين عدد القتلى والجرحى من جهة وبين عدد الاسرى من جهة أخرى يلقى شتعا على ما حدث مما لا يسر ويوضح أن مقر القيادة العامة فى القاهرة كان لا يستطيع تقدير أهمية الحادث فى بعض الجهات ولكننى لم أومى الى شيء من هذا فى ردى .

وفى اليوم الثانى عشر والثالث عشر من يونيو جرت معركة عنيفة للهيمنة على ساسلة الصخور الممتدة بين العدم وجسر الفرسان . وكانت هذه المعركة أقوى معركة للدبابات سيطر العدو بعد انتهائها على الميدان . وقد انكمشت قوتنا وضؤلت الى حد كبير وأرغمنا بعد مقاومة عنيفة على ترك جسر الفرسان الذى كان يعد مركز المواصلات فى هذه المنطقة ، وفى الرابع عشر ظهر أن المعركة قد اتجهت اتجاها مضادا لنا تماما ، وأرسل الى المستر ميسى وزير الدولة فى الشرق الأوسط برقية تحتوى على رسائل للقوات المسلحة وردت فيها الفقرة التالية : « وأما بالنسبة الى أوكنلك فله ثقتى المطلقة لقيادته وإدارته دفعة المعركة بما لديه من قوات كثيرة . وكنت آمل أن يتمكن من الجمع بين منصبتين فى وقت واحد ، فيكون هنا فى مركز نسيج العنكبوت ويكون هناك فى الجبهة يدير معركة الجيش الثامن بنفسه . وقد تراءى لى فى لحظات من الايام الاخيرة أنه قد يكون من الافضل أن يتوجه الى الجبهة ويدير دفعة المعركة ، ويدع رئيس أركان حربه يتولى القيادة العامة هنا مؤقتا ولكنه لم يرتض هذا ، ولم

أشأ أن أضغط عليه ، لأن المعركة معركته وله الحق فى كل ما يتخذ من قرارات تتعلق بالقيادات التابعة له .

وقد أتت ملاحظة المستر كيس على ما وراء تولى أوكنلك نفسه القيادة فى معركة الصحراء من فوائد ، مغرزة لاحساساتى التى أفصحت عنها للجنرال قبل شهر تقريبا . وقد اتضح لى أن القائد العام يتعرض لضغط واضطراب شديدين بسبب ما يحمله من مسئوليات كثيرة وكان فى مجال عمله يرنو الى المعركة الفاصلة على أنها جزء من مسئولياته لا غير . وكان هناك خطر زاحف من الشمال أحسن تجاهه بأنه يتحتم عليه أن يمنحه أهمية كبيرة فى حين لم نعطه نحن هذه الأهمية من اننا نحتمل فى الوطن مراكز تفضل مركزه فى تقرير الامور .

وقد اتخذ اجراء وسطا فكلف الجنرال ريتشى الذى توقف أخيرا عن القيام بأعماله كنائب لرئيس أركان حرب به بالقتال فى المعركة الحاسمة ولكنه فى الوقت نفسه وضعه تحت الاشراف الدقيق المباشر مواصلا ارسال التوجيهات اليه ، ويبدو أنه لم يقتنع الا بعد حدوث الكارثة وبعد الحاح من وزير الدولة بأن يقوم بما كان ينبغى ان يقوم به منذ البداية ، وهو أن يدير بنفسه دفعة المعركة مباشرة . وهنا تلقى تبعة فشله وبعض اللوم فيها على وعلى رفاقى لما عهدنا به الى القيادة العامة فى الشرق الأوسط قبل عام تقريبا من مسئوليات واسعة . وبالرغم من ذلك فقد حاولنا تخليصه من هذه الأعباء الجمة عن طريق المشورة الدقيقة والنصيحة الصادقة التى رفضها . وانى أجزم بأنه لو تولى القيادة منذ البداية ، وكان هذا فى وسعه وداخل نطاق اختصاصه وخلف نائبا عنه فى القاهرة يصرف الأمور فى غيابه ويراقب الوضع فى الشمال ، ويهتم بمختلف المسارح الأخرى لكسب المعركة قطعا ، فقد استطاع بالرغم من تأخره فى تولى القيادة أن ينقذ ما يمكن انقاذه منها .

وسيدرك القارئ الآن الى أى مدى أثرت فى نفسى هذه الانطباعات حتى اننى أبنت للجنرال اليكساندر فى توجيهى له فى المباشر من أغسطس واجبه الاساسى ابانة لا تقبل المناقشة ، فالمرء يحيا ليتعلم .

وسرعان ما بدت أمامنا صورة طبرق ، ولم نكن نرتاب فى أنها مستقاوم كما قاومت قبل عام مهما يكلفها ذلك من ثمن . والآن وبعد شهر مضى على التأخر الذى لا داعى له ، أصدر الجنرال أوكنلك أمره بتحريك القوة النيوزيلندية للاشتراك فى معركة طبرق ولكن الفرصة قد فاتت ، ولم ترضنا الأوامر التى أصدرها الى الجنرال ريتشى ، والتى لم تطلب إليه بصورة قاطعة الدفاع عن القلعة وتأكيدا لهذه الناحية أرسلت البرقية التالية :

« لقد أبهجنا ما أكدته لنا من أنك لاتنوى التخلي عن طبرق . وقد فهمت وزارة الحرب من برقيتك ، أنك تقصد أن الجنرال ريتشى سيتولى قوات كافية للدفاع عن طبرق اذا استدعى الأمر . »

وقضى الرد على ما كان يداخلنا من ريب ، وبعثت التجربة التى مورنا بها فى العام السابق الطمأنينة فى نفوسنا - والى جانب هذا بدأ

مركزنا كما أوما إليه الجنرال أوكنلك أفضل مما كان عليه في عام ١٩٤١ فعندنا جيش منتشر في جبهة منيعة ، وعلى كتب من طبرق ويعتمد في تموينه على خط حديدي عريض تمت اقامته حديثا . ولم تكن الآن في وضع مجنح تعتمد عليه مواصلاتنا بصورة رئيسية على البحر ولكن كنا علم هدى قواعد الحرب الصحيحة ، نستند في مؤخرتنا الى زوايا مستقيمة من الوسط تمتد من جبهتنا الى قاعدتنا الرئيسية ، وعلى هدى هذه الظروف ، وعلى الرغم من التألم لما وقع ، احسست من استعراض كل قوات الفريقين ومن ادراك المشقة الكبيرة التي يكابدها رومل في تموينه بأن الوضع سيتحسن واحسست مع اقتراب الفرقة النيوزيلندية من الجبهة ، ومع ما ينتظر وصوله من امدادات عن طريق البحر بأن مواصلة القتال المرير بكل مالدي الفريقين من قوات سيكون في مصلحتنا أخيرا ولهذا لم ألغ ما أعددت من خطط للقيام بزيارة واشنطن مرة أخرى ، حيث تنتظرنا هناك أعمال بالغة الأهمية تتعلق باستراتيجية الحرب الشاملة . وقد أيدنى ، في ذلك كل رفاقي .

وكنت اهدف من وراء رحلتى الى الوصول الى قرار نهائى حول موضوع العمليات الحربية لعام ١٩٤٢ - ١٩٤٣ . وكانت السلطات الأمريكية على وجه العموم ، والمستر ستيمسون والجنرال مارشال بوجه خاص شديدي الرغبة في وضع خطة عاجلة تمكن أمريكا من أن تصطدم مع الالمان صداما عنيفا في البر والجو في عام ١٩٤٢ . وكان هناك خطر اذا لم نستطع تحقيق ذلك ، في أن يعيد أركان الحرب الأمريكيون النظر بصورة جدية وجذرية في المبدأ الاستراتيجى الذى يقول « ألمانيا أولا » وكانت هناك قضية أخرى تثقل بالى وفكرى ، وهى قضية « السبائك الامبوية » وهو الاسم الرمزي الذى أطلقناه على ما أصبح يسمى فيما بعد بالقنبلة الذرية . وقد وصل بحثنا العلمى وما يصاحبه من تجارب الم ، نقطة تتطلب اتفاقا واضحا محدودا مع أمريكا وليس في الوسع الوصول الى مثل هذا الاتفاق الا عن طريق محادثات مباشرة بينى وبين الرئيس . ولا ريب فى أن سماح وزارة الحرب لى بمغادرة البلاد وخاصة لندن مع رئيس أركان حرب الامبراطورية والجنرال آيسماى فى الوقت الذى بلغت فيه معركة الصحراء أشدها يشير الى ما كنا نعلقه من أهمية علم ، ضرورة تسوية هذه القضايا الاستراتيجية الهامة والخطيرة بالنسبة الينا .

ولما كانت الأوضاع حرجة وخطيرة في هذه الايام العصبية قررت السفر بطريق الجو لا بطريق البحر . وهذا يعنى أن نظل في عزلة عن كل مصيادر الأنباء مايقرب من أربع وعشرين ساعة ، ولكنى اتخذت اجراءات ايجابية لارسال الرسائل الواردة من القاهرة الى فورا ، ولحل كل مايرد من تقارير رمزية ونقلها الى دون أى تأخير ضار في اتخاذ ما يلزم من قرارات .

وعلى الرغم من معرفتى بما مررنا من مخاطر أثناء رجوعنا من برمودا في يناير الماضى ، فقد كانت ثقتى بالقائد الاول روجرز وبسفينته الطائرة « بوينج » كبيرة ، ودفعنى هذا الى أن أطلب اليه أن يقوم هو بنقلى الى أمريكا وقبيل منتصف ليلة السابىع عشر من يونيه تركنا ستانير ، وكان القمر بدرا والجو بديعا . ومكثت ما يقرب من ساعتين

فى مقعد مساعد القائد أتمتع بمشاهدة البحر المشرق ، وأأمل مشكلاتى وأتخيل المعركة القلقة الدائرة ، وتمتعت بنوم هادئ حتى الصباح حينما كنا فوق جاندر وكان فى امكاننا أن نهبط فى مطارها لتزود بالوقود ، ولكن القائد لم يرحبنا لذلك فواصلنا السفر بعد أن حينما المطار التحية المعروفة .

ولما كنا نظير مع الشمس فقد ظهر لنا النهار طويلا . جدا حتى اننا تناولنا الغداء مرتين بين المرة والأخرى ست ساعات . وأما العشاء فقد تخيلنا أننا سنتناوله فآخرا بعد وصولنا .

وفى نهاية الرحلة طرنا ساعتين فوق الأرض وكانت الساعة السابعة مساء بتوقيت أمريكا حينما دنونا من واشنطن وبينما كنا نهبط فوق نهر بوتوماك ، شاهدت قمة تمثال جورج واشنطن التى ترتفع ما يقرب من خمسمائة وخمسين قدما على المستوى الذى ترتفع فيه طائرتنا وقلت للقائد كيلى روجرز سيكون من سوء الحظ أن تنتهى قصتنا بالاصطدام بهذا التمثال دون غيره فأكد لى أنه سيحرص ألا يصطدم به وهكذا هبطنا بيسر وسهولة على نهر البوتوماك بعد رحلة جوية استغرقت سبعا وعشرين ساعة من الطيران . وقد احتفى بنا اللورد هاليفاكس والجنرال مارشال وعدد من كبار الضباط الأمريكيين .

ولما كان الوقت قد تأخر وتعذر على مواصلة السفر فى تلك الليلة ذهبت الى السفارة وتناولنا العشاء هناك فى الهواء الطلق وقرات آخر البرقيات فلم أجد بها شيئا مهما . ولا شك فى أن السفارة البريطانية التى تقوم على أرض مرتفعة تعد من اشد الأماكن فى العاصمة برودة وتضاهى الى حد بعيد من هذه الجهة البيت الأبيض .

وفى صباح اليوم التالى التاسع عشر طرت الى هايد بارك . وكان الرئيس روزفلت ينتظرني فى المطار المحلى ، وشاهد هبوطنا الشاق وقد احتفى بى كل الاحتفاء ، ثم قاد بنفسه السيارة التى ركبت معه فيها الى المرتفعات الشامخة المشرفة على نهر الهوسون - والتى توجد فوقها هايد بارك ، حيث مسكنه العائلى ، وطاف بى الرئيس كل جهات المزرعة لاشاهد مناظرها الجذابة ، وخلال هذا التطواف راودتني بعض الافكار . فالعاهة التى يشكو منها الرئيس روزفلت تمنعه من أن يستخدم قدميه فى اجهزة السيارة، ولهذا اتخذت استعدادات رائعة فى السيارة تسهل له القيام بكل شئ بيديه القويتين بشكل مدهش . وقد دعانى لاختبار عضلاته وقال أن أحد المصارعين المشهورين حسده عليها .

وكانت هذه العضلات القوية تدعو الى الطمأنينة ، ولكنى كنت أدعو الله ، عندما كانت السيارة تقف وتنزلق الى الخلف وتشرف على حافة الهاوية المنحدرة الى نهر الهوسون ، الا يحدث أى خلل فيما كان يعتمد عليه فى ادارة كل اجهزة السيارة بيديه بدلا من رجله وكنا نتحدث طول الوقت فى شئون العمل . بالرغم من اننى كنت حريصا كل الحرص على ألا أصرف انتباهه عن قيادة السيارة فقد أحرزنا تقدما فى مباحثاتنا أكثر مما يمكن أن نحوزه فى مؤتمراتنا الرسمية .

وقد سر الرئيس اننى احضرت معى رئيس أركان حرب القوات

الامبراطورية وكانت ذكريات الشباب تشرق على ما يهتم به من نواح فقد استضاف والد الرئيس والد الجنرال بروك في هايد بارك . ولذا كان شديد انشوق الى لقاء الولد الذي بلغ هذا المركز المرموق . وحينما تقابلا لأول مرة بعد يومين ، استقبله بود بالغ ، واستطاع الجنرال بروك بشخصيته وجاذبيته أن يخلق صلة بينهما ساعدت كثيرا على سير الأعمال .

وقد أحطت هارى هوبكنز خبرا بمختلف النقاط التي أرغب في الحصول على قرارات بشأنها ، ونقلها هو للرئيس . وهكذا غدت الأرض معبدة ، وأصبح الرئيس يلم عقله بكل ما يمكنه من بحث هذه الموضوعات ، وكان موضوع السبائك الانبوية من أشد هذه الموضوعات تعقيدا ، ومن أكثرها أهمية كما ثبت فيما بعد ، وكنت أحمل أوراقى معى ولكن البحث أرجىء لليوم التالى ، لأن الرئيس كان قد طلب إمداده بمعلومات أوفى من واشنطن . وفى غرفة صغيرة تبرز وحدها من الأرض ، وتكسوها ظلال للوقاية من وهج الشمس ، جرى الحديث بيننا بعد الغداء . وكان المستر روزفلت يجلس الى مكتب فى حجب الغرفة تقريبا . وكان هارى يقوم ويقعد فى المؤخرة وظهر لى أن صاحبه الأمريكين لم يهتما بالحرارة كثيرا .

وأنبات الرئيس فى عبارات عامة بما أحرزناه من سبق فى هذا الميدان وأن علماءنا أصبحوا الآن مقتنعين بإمكان الوصول الى نتائج قبل أن تضع الحرب الحالية أوزارها . وقال الرئيس أن جماعته ماضون فى عملهم كذلك .

ولكن ليس فى طاقة أى شخص أن يعرف ما ستمخض عنه هذه البحوث من شىء عملى قبل إجراء تجربة واسعة النطاق . وشعرنا معا بالألم لخطورة قعودنا عن عمل شىء . وكنا نعلم ما يبذله الألمان من جهود لاستخراج كميات من « المياه الثقيلة » وهو تعبير مشئوم ومرعب وغير عادى أخذ يتسلل الى أوراقنا السرية . فماذا يحدث لو استطاع العدو أن يسبقنا الى القنبلة الذرية ومهما شعر الآن بالتشكك فيما يؤكداه العلماء الذين يفرطون فى الجدال والنقاش فى تعابير ليست فى مستوى عقول الناس العاديين فليس فى طاقتنا أن نخاطر بالسماح للعدو بأن يسبقنا فى هذا الميدان الرهيب وحضضت الرئيس على ضرورة الجمع بين معلوماتنا ، والعمل على قدم المساواة والاشتراك فى النتائج أن وجدت .

وهنا بدا السؤال عن المكان الذى يجب أن ينشأ فيه مركز البحوث وكنا نعلم تمام العلم ما يجب أن نتحملة من تكاليف باهظة ، وما قد يشتمل عليه تحويل مواردنا وقوتنا العقلية من ميادين المجهود الحربى الأخرى من خطورة . وقد بدا من المستحيل انشاء هذه المصانع الكبيرة والمعجبة التى نفتقر اليها فى جزيرتنا ، حينما كانت بريطانيا تتعرض لوطاة الضرب من الجو ، والرحلات الاستكشافية المضادة . وكنا نرى أننا قطعنا شوطا بعيدا فى الميدان الذرى مثل حليفنا ، وكان هناك افتراض آخر وهو أن ننشئ المصانع فى كندا التى يمكنها أن تشترك فى الأخرى مشاركة فعلية فى هذا الميدان عن طريق كميات كبيرة من معدن

الأورانيوم التي جمعتها ، وكان من العسير جدا أن تتخذ قرارا بصرف مئات من ملايين الجنيهات الاسترلينية بالإضافة الى أشكال الطاقة الحربية المختلفة على مشروع لا يمكن أن يضمن نجاحه أى عالم من العلماء على ساحل الاطلنطى وبالرغم من ذلك فأننا كنا سنقوم وحدنا بالمغامرة - اذا لم يكن الأمريكيون متأهبين للقيام بها - فى كندا أو فى أى جزء من اجزاء امبراطوريتنا عندما تتردد الحكومة الكندية أو تتخوف ولكننى فرحت بالغ الفرح حين أنبأنى الرئيس روزفلت أنه يعتقد أن أمريكا يمكنها المضي فى المشروع . ولهذا قررنا الاشتراك ووضعنا أساسا للاتفاق . وسأتم هذه القصة فى فصل تال ولا ريب عندى الآن فى أن ما احرزه علماءنا فى بريطانيا من تقدم ، ومن ثقة فى النجاح النهائى وهما ما صرحت بهما للرئيس هما اللذان حملاه من الجهة الأخرى على اتخاذ هذا القرار .

وفى ساعة متأخرة من ليلة العشرين اقلنا قطار الرئاسة الى واشنطن ؛ وبلغناها فى الساعة الثامنة تقريبا من صباح اليوم التالى وصاحبنا قوات حراسة كبيرة الى البيت الأبيض ، ونزلت ضيفا مرة أخرى فى الغرفة الكبيرة المكيفة الهواء التى كنت قد أقمت واسترحت فيها ، والتى تنخفض درجة حرارتها عن درجة حرارة بقية غرف البيت الأخرى ثلاثين درجة على الأقل وطالعت الصحف وامضيت ساعة فى قراءة البرقيات ، ثم تناولت فطوري ، ومررت بهارى فى حجرفته عبر الممر ، ثم ذهبت للقاء الرئيس فى مكتبه وكان يصاحبنى الجنرال ايسماى وسرعان ما وردت برقية الى الرئيس وناولنى اياها دون أن ينطق بكلمة وكانت البرقية تقول :

استسلمت طبرق ، وأسر خمسة وعشرون الفا من حاميتها «
ولم أستطع أن أصدق الخبر لغرابته ، وطلبت الى ايسماى ان يتحرى صحته من لندن بالمسرة . وبعد دقائق رجع يحمل الرسالة التالية التى أرسلها من الاسكندرية قبل قليل الأميرال هاروود القائد العام الجديد لأسطول البحر المتوسط ، وهذا نص الرسالة :

« سقطت طبرق ، وتدهور الوضع تدهورا كبيرا بحيث أصبح هناك توقع لحدوث غارات جوية عنيفة على الاسكندرية فى القريب العاجل ، ولما كان البدر قد اقترب ، فقد قررت ارسال كل وحدات الاسطول الى جنوب قناة السويس لترقب الاحداث . أرجو أن تخرج الملكة اليزابيث من ارضفة التصليح فى آخر هذا الاسبوع .

وكانت هذه الضربة من أعنف ما تلقيناه من ضربات منذ قيام الحرب . ولم يكن تأثيرها على النتائج العسكرية المؤسفة وحدها بل تجاوزها الى التأثير على سمعة الجيوش البريطانية تأثيرا بالغا . ففى سنغافورة استسلم خمسة وثمانون ألف رجل لعدد أقل منهم من اليابانيين ، وها نحن أولاء نرى فى طبرق حامية مكونة من خمسة وعشرين ألف رجل (فى الواقع ثلاثة وثلاثون ألف رجل) من خيرة الجنود المدربين تستسلم لعدد أقل من نصف عددهم واذا كان هذا هو تمثال الروح المعنوية لدى جيش الصحراء ، فليس فى طاقتنا أن نتكهن بالنوازل التى ستحل بنا فى الشمال الشرقى لافريقية . ولم أرد أن

أخفى عن الرئيس صدمتي وكانت اللحظة شديدة المرارة . فلهزيمة شيء والعار المعيب شيء آخر . ولم يكن هناك عطف ونبل يفوقان عطف ونبل صديقي الأمريكي فلم تصدر منه كلمة لوم أو عبارة نابية وتساءل روزفلت : « ماذا يمكننا أن نصنع لمعاونتكم ؟ قلت فورا » « منحنونا أكبر عدد يمكنكم الاستغناء عنه من دبابات شيرمان ونقلوها في غاية السرعة الى الشرق الأوسط . »

وبعد وصول الجنرال مارشال استدعاه الرئيس وأبلغه ما أريده فأحابه مارشال : « سيادة الرئيس ، لقد بدأ إنتاج دبابات شيرمان منذ وقت قريب وقد أرسلنا بعض المئات الاولى من انتاجنا الى فرقتنا المدرعة التي كانت لاتزال تستعمل سـلـاحا فقد أهميته ومن الصناعة ياسيدي ان نأخذ من يد الجندي عنوة سلاحه الذي يحمله ، وبالرغم من ذلك فاننا سنعطى البريطانيين ما عندنا من هذه الأسلحة اذا كانوا في حاجة ماسة اليها ، ويمكننا امدادهم بمائة مدفع أتوماتيكي أخرى من عيار مائة وخمسة مليمترات . »

ولاتمام هذه القصة يتحتم أن أقول : ان سخاء الأمريكيين حملهم على ان يرسلوا الينا اكثر مما وعدوا به . فقد عبثوا لنا فورا ست بواخر من أسرع بواخرهم بثلاثمائة دبابة شيرمان ومعها آلات لم يجر تركيبها بعد ، ومائة مدفع أتوماتيكي وأرسلوها الى قناة السويس وقد قذفت غواصة ألمانية الباقرة التي تحمل آلات الدبابات كلها بطوربيد على كيب من ساحل برمودا فأغرقتها وأمر الرئيس ومارشال ، دون أن يدفعنا الى أن نطلب طلبا جديدا ، بتعبئة باخرة أخرى بهذه الآلات ، وفي الحال أرسلت لتترك القافلة ، وهكذا يجب أن يكون الصديق عند الإزمة والافلاء .

وفي الحادي والعشرين من يونيو كنت أتناول الفداء مع هاري ، وقد قال لي الصديق : « هناك ضابطان أمريكيان في الجيش ، يريد الرئيس أن يتعرف اليهما ، لان الرئيس ومارشال ، وكل من يشغل في وزارة الحربية ، يقدرونهما غاية التقدير » . وفي الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم استقبلت في حجرتي المكيفة الهواء كلا من الميجور جنرال ايزنهاور ، والميجور جنرال كلارك . وسرعان ما تأثرت فعلا بهذين الجنديين اللذين لم يكونا معروفين حينئذ . وكانا قد حضرا فور اجتماع الرئيس بهما للمرة الأولى . وقد تناول حديثنا عملية الفوز الرئيسى عبر القناة عام ١٩٤٣ ؛ وما أطلقنا عليه حينئذ « عملية الطراد » وهو الموضوع الذي ركزا فيه اهتمامهما ، واستغرق الحديث المتع بيننا ما يقرب من ساعة . واعتقدت أن هذين القائدين سيؤديان في هذه العملية دورا كبيرا . وهذا هو ما دفع الى ارسالهما للتعرف الى . وهكذا بدأت صداقتنا التي احتفظت بها حتى يومنا هذا بمزيد من الرضا بالرغم من انتكاسات الحرب وانتصاراتها ، وفي خلال ذلك كانت أصداء استسلام طبرق تتردد بين أرجاء العالم ونواحيه . وفي الثاني والعشرين تناولت الفداء أنا وهوبكنز مع الرئيس في حجرتي . وقدم المستر المرديفيز ، رئيس دائرة الاستعلامات الحربية ومعه مجموعة من صحف نيويورك تحمل عناوين مثيرة مثل : « الغضب يسود بريطانيا » و « سقوط طبرق قد يدفع الى تغيير الحكومة » و « توجيه اللوم الى

تشرشل « ، وغير ذلك من المناوين . وقد دعانى الجنرال مارشال لزيارة أحد المعسكرات الأمريكية فى جنوب كارولينا . وقد تقرر ان نبدأ نحن والمستر ستمسون رحلتنا بالقطار ليلة الثالث والعشرين من يونيو ، وهنا سألتى المستر ديفيز فى جد السؤال التالى : هل من الحكمة بالنسبة الى الوضع السياسى فى الوطن أن أنفذ البرنامج الذى اتخذت كل الترتيبات الدقيقة لتنفيذه ؟ وقال : أخشى أن يساء تفسير هذه الزيارة التى أقوم خلالها بتقصي أحوال الجنود الأمريكين فى وقت تجرى فيه قضايا نتائجها بالغة الخطورة فى افريقية ولندن . فأجبت أنه بأمضى فى البرنامج ، وجزمت له بأننى أرتاب فى أن تستشير مثل هذه الزيارة عشرين عضواً من أعضاء مجلس العموم للاقتراع على عدم الثقة بالحكومة . وهذا الرقم فى الواقع هو الرقم الذى وصل اليه الساخطون على الحكومة .

وهكذا قضيت رحلتى بالقطار الى جنوب كارولينا فى الليلة التالية وفى الصباح التالى بلغنا قلعة جاكسون . ولم يقف القطار فى محطة رسمية الا فى السهل الواسع . وكانت الحرارة مرتفعة جداً فى النهار . وغادرنا القطار الى ساحة العرض التى ذكرتني بسهول الهند فى فصل الصيف الشديد الحرارة ، وذهبنا الى خيمة مسقوفة حيث أبصرنا منها السلاح الأمريكى المدرع ، ووحدات المشاة وهى تمر أمامنا ، ثم رحنا ننظر الى تمرينات رجال المظلات ، وقد كان المشهد مؤثراً ، فلم أشهد فى حياتى قبل ما يقرب من ألف رجل يشبون فى الجو دفعة واحدة . وناولنى جهاز مسرة متنقل لأحملة ، وكانت هذه أول مرة أحملي فيها مثل هذا الجهاز . وبعد الظهر شاهدنا الفرق الأمريكية الضخمة ، تتدرب فى الميدان بالذخيرة الحية . وفى النهاية قلت لمرافقى الجنرال أيسمان : « ما رأيك فى كل ما شاهدت ؟ » فأجاب : ان دفع دفع مثل هؤلاء الجنود فى معركة مع الألمان يعتبر جريمة قتل « فقلت : « انك مخطئ . انهم خامة عظيمة صالحة وسيتدربون بسرعة » . وقد ظللت ألح على أصدقائى الأمريكين بأن اعداد الجندى مهمة تستغرق سنتين على الأقل . ولاشك فى أن الجنود الذين شاهدناهم فى كارولينا قد تدربوا عامين على الحرب .

وبعد ظهر الرابع والعشرين طرنا عائدين الى واشنطن ، وهناك تلقيت عدة تقارير ، وفى الليلة التالية غادرتها الى بليمور ، وهناك كانت سفينتى الطائرة تنتظرنى . وقد ودعنى الرئيس فى البيت الأبيض بكل ماعهدته فيه من دماثة ورقة ، ورافقنى هادى هوبكنز هارى وافريل هاريمان الى بليمور ليو دعانى هناك . وكان الطريق الضيق الموصل الى الماء تحرسه قوات كبيرة من رجال الشرطة الأمريكين . واتضح لى ان هناك اضطراباً ، وارتسمت على وجه الضابط أمارات الجد والاهتمام البائسين وقيل لى قبل أن نخلق فى الجو أن احد الحسفاء المدنيين قد اعتقل وهو يعيث بمسدس فى يده يتلثم قائلاً : انه سيجهز على ، على وجهه أمارات البغض والكراهة . وحينما بدأ احتجاجاً اتضح أن الرجل مجنون ومثل هؤلاء المجانين يخشى على الشخصيات الكبيرة منهم لأنهم لا يأبهون بالنجاة أو بالخلاص .

وفى صباح اليوم التالى هبطنا فى مطار بوتود للتزود بالوقود ،

ثم حللنا في الجو بعد أن تناولنا وجبة من الاصماك الطازجة . وبعد ذلك تناولت الوجبات في مواعيدها الممهودة ونمت نوما عميقا . وجلست في مقعد مساعد الطيار ، وبعد أن حللنا فوق شمال أيرلنده ، دنونا من كلايد عند الفجر ، وهبطنا بسلام وأمان . وكان القطار في انتظاري . وفيه بيك أحد أمناء سرى الخاصين ، ومعه بعض الملفات وصحف الابام الأربعة أو الخمسة الأخيرة . وبعد ساعة كنا في طريقنا صوب الجنوب . واتضح أننا خسرنا انتخابا فرعيا بأكثرية ساحقة في مالدون ولا ريب أن هذه الخسارة كانت إحدى نتائج طبرق .

واتضح لي أن الظرف سييء للغاية . وتوجهت الى فراشي ، وبدأت اطلع على الملفات بعض الوقت ، ثم نمت نوما عميقا مدة أربع ساعات أو خمس حتى بلغنا لندن ، وكان النوم جميلا للغاية . وهناك على رصيف المحطة وجدت أعضاء وزارة الحرب في انتظاري ، وسرعان ما كنت في غرفة مجلس الوزراء غارقا في العمل .

الاقتراح على الحكومة

لقد كان لثروة الصحافة وانتقاداتها التي صدرت من اقلام لاذعة تكتب ومن أصوات رفيعة تعلق ، بعض اصدااء متشابهة في نشاط عدة عشرات من أعضاء مجلس العموم ، وفي كآبة وعبوس ممثلى الأغلبية الكبيرة التي نتمتع بها . . . ولن تبقى الحكومة في الحكم في هذه المرحلة اذا كانت حزبية ، وستسقط نتيجة خذلانها في الاقتراح على الثقة أو بتأثير هذه الازمة العنيفة التي أثرت على الراى العام كله والتي ضاهت تلك التي اجبرت المستر «تشمبرلين» على الاستقالة في مايو عام ١٩٤٠ . بيد أن الحكومة القومية الائتلافية ، التي عززها ماجد عليها من تعديل في فبراير ، كانت متفوقة في قوتها ووحدتها . وقد أحاط بي كل وزرائها دون أن يداخلهم أى ريب أو انتقاض ، وقد اتضح لي أنني احتفظت بثقة كل المراقبين لسير الاحداث والمطعين على بواطنها والمشاركين في مسئولياتها ، ولم يمس أحدهم وهن أو ضعف ، ولم تنبعث همسة واحدة توحى بالريب أو بالوقية ، بل كنا كلنا حلقة متماسكة قوية لا تنفصم عراها نستطيع أن نقاوم أى هجوم سياسى يشن علينا من الخارج ، وأن نحافظ على وحدتنا تجاه القضية المشتركة برغم كل فشل وخيبة رجاء .

وقد مررنا بسلسلة طويلة من المحن والهزائم في الملايو وسنغافورة وبورما ومعركة أو كذلك الخاسرة في الصحراء ، وطبرق التي لم ندركها بعد ، والتي ربما لا ندركها أبدا ، وتقهقر جيش الصحراء السريع ، وفقد كل ماسبق لنا الاستيلاء عليه في ليبيا وبرقة، أربعمئة ميل من الانسحاب الى حدود مصر ، وقد قتل واسر من رجالنا أكثر من خمسين ألفا ، وفقدنا كميات كبيرة من المدافع والذخائر والمسيارات والمستودعات المتعددة الأنواع ، وما نحن أولاء قد رجعنا الى مرمى مطروح . . . وهنـو المكان الذى حللنا به قبل عامين مع فارق واحد هو : أن رومل وجنوده الألمان يتغلبون علينا الآن ، ويضغفون علينا مستخدمين سياراتنا التي سقطت في أيديهم وبترونا الذى استولوا عليه ، ويقذفوننا أحيانا بذخائرتنا . ولو كتب لهم ان يتقدموا مسافة أخرى ويظفروا بنصر واحد.

فحسب ، فان موسولينى ورومل سوف يدخلان القاهرة او مابقى من
انتقاضها ... فكل شيء ماقتىء معلقا فى كف القدر ، وكيف يستطيع
الانسان بعد ما منينا به من انتكاسات وازاء عوامل الغيب التى تقابلنا
أن نتكهن بالصورة التى سيتحول فيها الميزان ؟ ...

لقد استدعى الوضع البرلماني تحديدا جليا ، وكان من العسير
علينا أن نطلب من المجلس أن يقترح مرة أخرى على الثقة بحكومتنا ، بعد
ذلك الاقتراع الذى ظفرنا به قبيل سقوط سنغافورة ، لهذا كان من
مصلحتنا تقرير الاعضاء الناقمين فى الخامس والعشرين من يونيو فيما
بينهم ، توجيه قرار باللوم اليها ، يضمنونه جدول الاعمال ، ويطلبون
الاقتراع على هذا القرار ، وهذا هو نص القرار :

« يقرر المجلس برغم تقديره لما أظهرته قوات التاج المسلحة من
بسالة ومقاومة فى أوقات بالغة العنف والصعوبة - عدم الثقة بالجهاز
المركزي الذى يدير دفة الحرب »

وقد وقع مشروع القرار السير « جون ووردلو - ميلن » وهو احد
الاعضاء الذين لهم نفوذ فى حزب المحافظين ، ورئيس لجنة الشؤون
المالية التى تضم أعضاء يمثلون مختلف الأحزاب التى كنت أدرس بعناية
كبيرة تقاريرها عن تبذير بعض الإدارات ، وعدم كفايتها ، وكان للجنة
الكثير من مصادر المعلومات التى فى حوزتها ، كما كانت لها اتصالات
كثيرة بالحلقة الخارجية لجهازنا الحربى ، وحين أعلن ثناء أميرال
الاسطول « روجركيسى » على مشروع القرار وأن وزير الحرية السابق
لستر « هور ييشا » يعضده بأن لنا على الفور . أن هناك تحديا حقيقيا
للحكومة ، ولقد كان الهمس يدور خلف الكواليس ، كما كانت الصحف
تتكلم عن « أزمة سياسية منتظرة » قد تكون حاسمة ..

وقد أعلن على الفور أن الحكومة مستعدة لأن تمنح المجلس
الفرصة التامة لاجراء مناقشة وحددت الاول من يوليو موعدا لها .
وأحسست ان واجبى أن أعلن شيئا واحدا على الاقل ، فأبرقت الى
« اوكنلك » أقول : « أرى من اللازم حين أتحدث الى المجلس عند
مناقشة قرار لوم الحكومة فى الساعة الرابعة بعد ظهر الخميس - أن
أعلن أنك تسلمت القيادة من « ريتشى » بعد أن نحيت عنها فى الخامس
والعشرين من يونيو » .

وكانت أزمة المعركة فى مصر تتفاقم وتزداد سوءا يوما اثر آخر ،
حتى لقد انتشر الاعتقاد بأن القاهرة والاسكندرية سوف تسقطان عما
قريب أمام « سيف رومل القهار » وقد اعد موسولينى فعلا العدة ليطيح
الى مقر قيادة رومل وهو مصمم على أن يشترك فى الدخول الطافر الى
اى من هاتين المدينتين وظهر لى اننا سنبلغ القمة فى معركتى البرلمان
والصحراء فى وقت واحد ، وحينما ظهر لاندادنا أنهم سيواجهون حكومتنا
الائتلافية - وهى متحدة تبخر معظم حماسهم وعرض صاحب الاقتراع
سحبه ، اذا استدعى الوضع الحرج فى مصر عدم إثارة مناقشة عامة فى
الموضوع ، ولكننا قررنا الا نمكنهم من الفرار فى يسر وسهولة ، ولما كنا
نرى العالم كله يرقب فى الإصابيع الثلاثة الأخيرة فى قلق . أزيداد

التوتر في الموقفين السياسى والعسكرى : فقد راينا من السير علينا ان نمضى الى آخر الطريق .

لقد بدا السير « جون ووردلو - ميلن » المناقشة بخطاب قوى ، بسط فيه القضية الرئيسية فقال : يجب ألا يعقد الاقتراح هجوما على الضباط الذين يحاربون في الميدان ، وانما هو هجوم على « ادارة الحرب المركزية » هنا فى لندن وأرجو أن أبدى أن عوامل فشلنا قائمة هنا ، لا فى ليبيا ولا فى غيرها ، وكان الخطأ الأول الذى ارتكبناه فى هذه الحرب هو الجمع : بين منصبى : رئاسة الوزراء ووزراء الدفاع . وقد ركز على ما يحمله من يتولى هذين المنصبين فوق كاهله من أعباء ضخمة ثم قال : « يجب أن يكون لنا قائد قوى متفرغ يتقلد رئاسة لجنة رؤساء الحرب أريد رجلا قويا يمكنه أن يطلب الاسلحة التى يفتقر اليها لتحقيق النصر أريد رجلا يتحمل مسئولية الفروع الثلاثة لقوات التاج المسلحة وأن يضمن تحرير جنرالاته وأميرالاته وما ريشالات الجو فى تنفيذ أعمالهم على الوجه الذى يروونه ، ولا يسمح للآخرين بالتدخل فى شئونهم وفضلا على ذلك أريد رجلا يقبل على الاستقالة اذا لم يمكنه ان ينفذ ما يريد . . . وقد عانينا من الاضطرار الى قيام رئيس الوزراء بتمحيص ما يجرى هنا حقا فى الوطن . . . ومن الاحتياج الى ما يجب أن نحصل عليه من توجيه من وزير الدفاع أو من أى ضابط مهمما كان النقب الذى يمنحه بتولى مسئولية القوات المسلحة ، ولاشك فى أنه قد ظهر لكل مدنى أن سلسلة الكوارث التى منينا بها فى الأشهر القلائل الاخيرة بل فى السنتين الأخيرتين ، انما هى نتيجة للعيوب الأساسية فى الجهاز المركزى لادارة - دفة الحرب فى بلادنا » .

لقد خلف كل ما قاله السير « جون » أثره واصاب هدفه ، لكنه لم يلبث ان ارتكب جريرة كبيرة حينما قال : « أرجو ان تكون خطوة مرغوبا فيها ، موفقة اذا ما أقر جلالة الملك وصاحب السمو الملكى ان يتولى الدوق « جلوستر » القيادة العليا للجيش البريطانى على ألا تكون له صلاحيات ادارية ، وقد كان هذا الاقتراح مضرا أفدح الضرر بالقضية التى عرضها ، كما انه ادى الى الزج بالأسرة المالكة فى خضم مسئوليات قابلة للمناقشات والمتناقضات وكان تعيين قائد أعلى للحرب ، يمنح صلاحيات غير محدودة ، وربط هذه الصلاحيات بدوق ملكى ، يعد أمرا يوحى بشيء من الدكتاتورية ، وهكذا بدا بيانه الطويل المطنّب يفقد منذ ذلك الوقت تأثيره وقوته واخيرا وصل السير جون الى انقول بأنه « على المجلس أن يظهر افتقارنا الى شخص واحد يخصص وقته كله لقضية : « كسب الحرب » ، ويتقلد القيادة الكاملة لكل قوات التاج المسلحة » .

وحينما نظفر بهذا الرجل ، ينبغى على المجلس أن يمدّه بأسباب القوة ويدعمه ويسر له سبيل ممارسة واجباته الملقاة على عاتقه ، فى قوة واستقلال واضحين .

وقد اتنى السير روجركيس على الاقتراح فى حين تألم الاميرال .

من اقالته من مركزه كمدير للعمليات المشتركة ومن الحقيقة الواقعة
انني لم أستطع قبول مشورته والاصاخة الى رأيه دائما حينما كان
يشغل هذا المنصب ، بيد أن صداقته الشخصية الطويلة لي كانت نقطة
ضعف في موقفه هذا ، لذا فقد ركز انتقاداته وحملته على مستشاري
الخبراء وخاصة رؤساء اركان الحرب ، فقال : من المؤلم حقا ان يمني
رئيس الوزراء في حياته ثلاث مرات بالفشل كما حدث له : « جاليبولي »
« والنرويچ » والبحر المتوسط وأن يعجز عن تسديد ضربات استراتيجية
كان مقدرا لها أن تغير مجرى الحربين واتجاهاتهما : وذلك أن مستشاره
البحري الدستوري « أبى فى المرات الثلاث أن يتحمل معه المسؤولية
ويشأطره اياها - اذا كانت تحتوى على أية مجازفة .. ولم يمر هنا
التناقض العجيب بين رأى صاحب الاقتراح ورأى المثني عليه دون أن
يلاحظه الجميع وقد تدخل نائب من حزب العمال المستقل هو : المستر
ستيفن فأوما الى ان صاحب الاقتراح ، أراد توجيه اللوم على اساس أن
رئيس الوزراء جاوز حده في ادارة دفعة الحرب ، في حين ترى من انني
على الاقتراح يقول : ان الرئيس لم يتدخل تدخلا كافيا في توجيه هذه
الدفة .. ولقد كانت هذه النقطة حلية لكل أعضاء المجلس .

وقال الاميرال كيبس « : اننا نرنو الى رئيس الوزراء طالبين اليه
تنظيم وزارته أولا وأن يجمع كل الشعب خلفه ثانيا لاداء الواجب
العظيم » . وهنا تدخل أحد النواب الاشتراكيين تدخلا موقفا صائبا
فقال : ان الاقتراح موجه ضد « الادارة المركزية » لدفة الحرب ، فاذا
اقر المجلس الاقتراح ، فعلى رئيس الوزراء أن يستقيل ، في حين ترى
العضو الموقر الشجاع ، يناشئ المجلس الابقاء على رئيس الوزراء ،
فرد السير روجر قائلا : لا شك في أنها ستكون كارثة تشير كوامن الألم
اذا اضطر رئيس الوزراء الى الاستقالة ، وهكذا تضعفت المناقشة
في بدايتها .

وبالرغم من ذلك استمرت المناقشة وقبض الناقدون على زمام
المبادرة وقام وزير الانتاج الجديد ، الكابتن أوليفر ليتلتو ، حين قام
يرد على ما وجه الى العتاد من انتقادات فذكر فقرة عاصفة من بيان
المستفيض المفصل الذي تناول ، فيه هذه الناحية ، وقد لقيت الحكومة مؤازرة
قوية من صفوف المؤيدين الخلفيين وقد لقي المستر بوثي بصورة خاصة
خطابا قويا مؤيدا واسترد اللورد دينترتون - وهو الملقب « بأبى
المجلس » - زمام الهجوم بعنف ، وركز هجومه على فقال : من الوزير
المسئول الذي ادار عملية « نارفيك » وكان الرأس المحرك لكل عملياتها ؟
انه الرئيس الحالي لوزارة الذى كان وقتذاك وزيرا للبحرية ... ولكن
لن يجروا أى - عضو من الاعضاء على القاء اتبعة على الشخص الذى
ينبغي القاؤها عليه من الناحية الدستورية ، وهو : « رئيس الوزراء » ،
واذا كنا سنتلقى الرد نفسه باستمرار وهو : « عدم الانحاء باللائمة على
رئيس الوزراء مهما حدث » .. فاننا نكون قد دنونا كثيرا فكريا ومعنويا
من الشعب الالماني الذى يقول : « ان الفوهرر لا يخطئ .. » ولم أشهد
طوال اسبعة والثلاثين عاما التى امضيتها في هذا المجلس ، محاولات مثل
ما نشهده اليوم من محاولات لتخليص رئيس الوزراء من المسؤولية
الوزارية .. ولم يحدث ان مرت بنا في الحرب السابقة سلسلة متلاحقة

من النوائب كما مربنا في هذه الفترة ،.. وبالرغم من ذلك تنجو الحكومة لأن الفوهرر لا يخطئ . . . ونحن جميعا متفقون على أن رئيس الوزراء كان هو القائد الموجه لبسالتنا وصمودنا أبان عام ١٩٤٠ ، بيد أن أحداثا كثيرة وقعت منذ ذلك التاريخ ، وإذا ظلت هذه النوازل تتوالى ، فإن من الأفضل - للسيد الموقر جدا - أن يقوم بعمل رائع من أعمال « انكار الذات » التي يقوى كل انسان على القيام بها ، وأن يذهب الى زملائه الوزراء - وبينهم كثيرون يصلحون لتولى رئاسة الوزارة - ويقترح عليهم : ان يقوم احدهم بتأليف الوزارة « شريطة أن يتبوا السيد الموقر هذا ، منصبا وزاريا معه ، ولعل من الأفضل له ان يأخذ منصب وزير الخارجية لأنه استطاع ان يدعم علاقاتنا الخارجية بروسيا وأمريكا ويصل بها الى درجة القوة والكمال ..

ولم يكن في طاقتي أن اظل أنصت الى أكثر من نصف الخطب التي أقيمت خلال المناقشة الحامية التي استمرت حتى الساعة الثالثة صباحا ، وكان على طبعنا أن اجهز برنامجي لليوم التالي ، ولكن افكارى كانت مركزة على المعركة التي ظهرت وكأنها معلقة في كف الأقدار في مصر ..

وقد استؤنفت المناقشة ، ولم تمض ساعات قليلة على استئنافها حتى كانت قد استنفدت طاقتها ، وفي اليوم الثانى استؤنفت بحيوية متجددة وبطبيعة الحال ، لم يمنع أى نائب من ان يقول مايبغى ، فقد كانت حرية الكلام ، وقد اغرب أحد النواب فى قوله :

« عندنا في هذه البلاد خمسة أوسنة جنرالات ينتمون الى دول أخرى كالتشيكيين والبولنديين والفرنسيين ، وهم مدربون على استعمال هذه الأسلحة الألمانية وعلى أساليب القتال التي ينهجها الالمان واني أعلم : أن اقتراحى قد يكون جارحا لكبريائنا لكن الا يمكن ان نسند القيادة في الميدان الى بعض هؤلاء انجنرالات حتى يتوافر عندنا القادة المدربون ؟ .. وهل هناك حرج في أن نرسل الى الميدان هؤلاء - الرجال الذين لا يقلون من حيث الرتبة عن الجنرال « ريتشى » ونسند اليهم قيادة قواتنا ؟ .. انهم يعرفون دون قادتنا كيف يخوضون غمار هذه الحرب ، واني لاصرح بأن من الافضل أن نكسب المعارك ونحمى ارواح الجنود البريطانيين بقيادة رجال من الامم المتحدة لا أن نخسرها بقيادة جنرالاتنا .. وعلى رئيس الوزراء ان يعرف أن هناك قولا ذائعا يردده كل لسان في هذه البلاد ، بأن رومل لو كان في الجيش البريطانى لظل حتى الآن عريفا .. او ليست هذه هي الحقيقة ؟ .. انه كلام شائع في أوساط الجيش كلها ، ففي هذه البلاد الآن وفي الجيش البريطانى « رجل » هزم مائة وخمسين انفا في معركة « الايرو » في الحرب الاهلية الاسبانية ، انه ميشيل دونبار الذي يعمل الآن عريفا في أحد الألوية المدرعة في هذه البلاد - وحقيقة المسألة وجوهرها أن الجيش البريطانى تتنازعه الأهواء الطبقية فعليكم أن تغيروا هذا الوضع وإذا لم يستطع مجلس العموم أن يدفع الحكومة الى تغييره فان الأحداث ستغيره . وربما لا يعنى المجلس بما ذكرته اليوم ، ولكنه سيعنى به قطعا في الأسبوع القادم تذكروا ماقلته يومى الاثنين والثلاثاء

القادمين . أن الاحداث هي التي توجهنقدها الى الحكومة وكل مانصنعه هو : أن نعبر عنها ، وربما يكون تعبيرنا عنها غير واف ، ولكننا نحاول التعبير عنها على أية حال . » وقد لخص المستر هور - بليشار : وزير الحرية السابق القضية الرئيسية ضد الحكومة ، وفي النهاية قال : قد نفقد مصر أو لا نفقدها واني لأرجو الله ألا نفقدها ، ولكني حينما أقرأ قول رئيس الوزراء بأننا سنحرم مصر يتضاعف قلقي لأنه قد سبق له أن قال أنا سنحرم سنغافورة وكريت ، وسنقضي على الالمان قضاء مبرما في ليبيا ، فكيف يمكن المرء أن يضع ثقته في أحكام أثبتت أكثر من مرة خطأها وسوء توجيهها ؟ ..

هذا هو الموضوع الذي يجب أن يقرره مجلس العموم الآن ، عليكم أن تعملوا التفكير في كل ما هو معرض للخطر في هذه اللحظة : « لقد خسرنا في مائة يوم ، امبراطوريتنا في الشرق الأقصى ، فما الذي سيحدث في المائة يوم المقبلة ؟ .. اننى لأرجوان يحكم كل عضوفي المجلس ضميره قبل الاقتراع .. »

وقد نهضت بعد هذا الخطاب القوى لانهى المناقشة ، وكان المجلس مزدحما بالحاضرين ، ونقد حاولت بالطبع ابانة كل نقطة عرضت على ، وكان المستر هور بليشا ، قد ركز على فشل الدبابات البريطانية ، وعدم كفاية معداتها في سلاح المدرعات وكان مركزه ضعيفا في هذا الهجوم بالنسبة الى سجله السابق قبل الحرب في وزارة الحرب وقد استطعت أن أنكس الوضع حينما قلت :

ان فكرة الدبابة « مفهوم بريطاني » واستخدام القوات المدرعة على ما هي عليه الآن « خطة فرنسية » كما يظهر في كتاب الجنرال ديجول ، ولم يكن امام الالمان الا أن يحولوا هذه الافكار الى أمور عملية يستخدمونها ، وقد أمضوا اثنتي عشرة أو الثلاث أو الاربعة الاخيرة قبل الحرب - بما عهد فيهم من مهارة واتقان في التخطيط والصناعة معا - في انتاج الدبابات ودراسة طرق حربها . وكان في امكان وزير الحرب اذ ذاك - ولو لم تتوافر لديه الاموال الكافية لصناعة وانتاج الدبابات على نطاق واسع - انتاج نماذج عملية كاملة الحجم يقوم بأجراء التجارب عليها ؛ ويختار المصانع ويكفل لها ما تحتاج اليه من معدات بحيث تبدأ انتاجها الضخم من الدبابات والمدافع المضادة لها حين تبدأ الحرب .

وحينما انتهت الفترة التي أطلقت عليها « فترة بليشا » لم يكن عندنا سوى مائتين وخمسين دبابة تحمل قلة منها مدافع من عيار رطلين ، وقد وقع أكثرها في قبضة العدو ، أو حطم في معركة فرنسا ..

« واني لأقبل راضى البال ، مايلزمنى قبوله مما اسماء اللورد النبيل الايرل وينتوتون ، (المسئولية الدستورية) عن كل ما حدث ، أرى انم، قد نهضت بهذه المسئولية من ناحية عدم التدخل في الامور الفنية للجيش ، المشتبكة مع العدو ، على أنى قبل بدء المعركة ؛ استنهضت همة الجنرال « أو كنلك » كى يتولى القيادة بنفسه ، لاننى كنت واثقا من أنه لن يحدث فى منطقة الشرق الاوسط الشاسعة فى الشهر أو الشهرين القادمين ، ما يمكن أن يقارن بالقتال الدائر فى معركة الصحراء

الغربية ، وقد تراعى لى أنه الرجل الذى يصلح لهذا العمل ، لكنه اعتذر عن ذلك مبدىا عددا من الاسباب - المعقولة ؛ وقد خاض الجنرال «ريتشى» المعركة ، وقد ذكرت قبل للمجلس يوم الثلاثاء أن الجنرال «او كنك» قد تسلم زمام القيادة من الجنرال «ريتشى» فى الخامس والعشرين ، ووافقنا نحن على هذا القرار فورا ، ولكن يجب أن أقرر بصراحة أن هذا الموضوع - موضوع ابعاد الضابط عن القيادة لم يكن من الطراز الذى يمكن أن نتخذ فيه حكما قاطعا نهائيا ، ولا أستطيع أن أزعم أنى قد أصبحت فى حكمى على ما حدث فى هذه المعركة ، ولا أريد أن يحس قادة البر والبحر والجو بأن الحكومة تقف سدا منيعا بينهم وبين أى نقد - وينبغى أن تمنحهم الفرصة المعادلة بل أكثر من فرصة واحدة . فقد يخطئون ثم يتعلمون من أخطائهم وقد يمتنون بسوء الطالع ، لكن طالهم قد تغير - ولكن ليس فى امكاننا ان يكون عندنا عسكريون متاهبون لقبول المخاطر الا اذا أحسوا بأن حكومة قوية تؤازرهم وتساندهم وبالطبع ، ان يغامروا أو يجازفوا اذا أحسوا بأن عليهم أن ينظروا باستمرار خلفهم ، وأن يستشعروا القلق لما يحدث فى الوطن ، والا فانهم سيعجزون عن تركيز أنظارهم على العدو وبالطبع لن يكون فى وسعهم الحصول على حكومة تقدم على المخاطر ، الا اذا أحست أن خلفها اكثرية قوية مخلصه فانظروا الى ما يجب أن نصنعه الآن ، وتخيلوا نوع الهجوم الذى سنعرض له اذا أردنا القيام بهذا الواجب ، ثم منينا بالفشل فى فترات الحروب ينبغى على المواطن أن يمنح الولاء اذا رغب فى خدمة وطنه حقا .

وانى لاود أن أقول بضع كلمات مشفوعة بأصدق التمنيات والتقدير - كما يقولون بلفة الدبلوماسيين ، ولى وطيد الامل فى أن يمنحنى المجلس الحرية التامة فى المناقشة ان للبرلمان مسئولية خاصة ، فقد كان قائما منذ بداية الكوارث التى لحقت بهذا العالم ولهذا المجلس فضل كبير على ، وأرجو أن يشهد هذا المجلس النصر النهائى وأرى أنه لايتحقق الا اذا أعطى المجلس الحكومة التنفيذية المسئولة التى اختارها قاعدة قوية ترتكز عليها فى هذا السبيل الشاق الطويل الذى يتحتم علينا أن نجتازه بعد ، وعلى المجلس أن يكون عامل استقرار ثابت فى الدولة ، لا أن يكون وسيلة يمكن الفئات الناقمة فى الصحافة عن طريقها ، خلق أزمة اثر أخرى . واذا قدر للديموقراطية والانظمة البرلمانية الظفر فى هذه الحرب ، فمن المحتم ان تتمكن الحكومات التى تعتمد عليها من أن تعمل ، وأن تجرؤ على هذا العمل والا يظل موظفو التاج عرضة للمضايقة بالتجريح والنقد ، والا نمكن دعاية العدو من استغلال ما نقدمه اليها من مواد ، والا نعرض سمعتنا للتشهير والتحطيم فى كل انحاء العالم ، وعلى النقيض من هذا ؛ علينا أن نبرز ارادة - المجلس فى مختلف المناسبات الهامة . ومن الاهمية بمكان ألا يكون هؤلاء المتكلمون وحدهم العامل المهم فى الشئون العالمية ، وانما يكون معهم كذلك أولئك الذين يستمعون ويحكمون . فنحن - على أية حال - ما برحنا نحارب لا من أجل الدفاع عن حياتنا والنفود عنها بل من أجل الدفاع أيضا عن قضاياهاى أغلى من الحياة نفسها وعلينا ألا نفترض أن النصر أمر مؤكد وواقع لانه لن يتم الا اذا أدينا واجبنا على أحسن وجه

والنقد البناء الوداع . أو ما يوجه من نقد في جلسات سرية - فضائل كبيرة ، بيد أن واجب مجلس العموم ؛ يحتم عليه أحد أمرين إما أن يوطئ مركز الحكومة أو يغيرها وإذا لم يمكنه تغييرها ، فعليه أن يدعمها ، وليس هناك عمل وسط في أيام الحروب . . وكل ما ينجم عن الخطب المعادية يتسرب الى الخارج ويستغله العدو أشنع استغلال . .

«لقد قال مقدم اقتراح «لوم الحكومة» يجب على أن أتخلي عن مسئولياتي الدفاعية لتتولى شخصية عسكرية أو غير عسكرية الادارة العامة لدفة الحرب ، وأن يكون لهذه الشخصية الاشراف على قوات التاج المسلحة وأن ترأس لجنة رؤساء أركان الحرب ، وأن يخول تعيين الجنرالات والاميرالات واقالتهم وأن يكون مستعدا باستمرار للاستقالة اذا لم يظفر بما يريد . متحديا زملاءه اسياسيين - ان صح لنا أن نطلق عليهم اسم الزملاء - وان يعمل تحت امرته امير من امراء الأسرة المالكة - كقائد عام للجيش وأن يساعد رئيس الوزراء هذا الشخص بل أن يكون تابعا له . وفقد الانجابه عن الاستفسارات ويذكر الدوائع ويقوم بالاعتذارات أمام البرلمان حينما تنحرف الامور وتعتثر ، وهذا ما يحدث كثيرا ، وسيقع حتما وهذا ما فهمته من الاقتراح وان لم يحدده صاحبه

ان هذا الاقتراح على أية حال ينطوي على سياسة كما أنه ينطوي على نظام يغير كل المفايرة النظام البرلماني الذي نحيا في كنفه ، ومن اليسير ان يبلغ حد الدكتاتورية أو ينقلب اليها ، واني لاود ان اوضح ايضا كما انني لن اشترك في مثل هذا النظام . .

وهنا قاطع السير « جون ووردلو - ميلن » قائلا « أرجو الا يكون صديقي - الموقر كل التوقير - قد نسي عبارتي الاصلية وهي « ان كل شيء متوقف على موافقة وزارة الحرب » ولكنني واصلت خطابي فقلت :

. . متوقف على موافقة وزارة الحرب . ان هذا الشخص الذي بلغت قوته غايتها يمكنه أن يهدد بالاستقالة في كل لحظة اذا لم ينل ما يطلب . انه مشروع على أية حال . . لكنني لست مستعدا لان اشترك فيه ولا اعتقد انه نظام يرتضيه هذا المجلس .

« ولعل اشتراك أعضاء من الاحزاب المتباينة في تقديم الاقتراح يلوم الحكومة والاقتراح عليه يمثل حادثا مهما . على أية حال ينبغي عليكم ألا تدعوا المجلس يهون من خطر ما حدث حتى الان ، وقد دوى هذا الاقتراح في كل أرجاء العالم لانه يتضمن استخفافا بنا وتحقيرا لحكومتنا ، وحينما تنتظر كل حكومة في العالم - صديقه كانت أو عدوة - ما سيقرره مجلس العموم ، وما يفصح عنه من اعتقاد ، فاننا نحس ان من واجبنا أن نمضي فيه حتى النهاية فهناك في كل أنحاء العالم في أمريكا حيث رأيت الوضع بنفسى . . وفي روسيا ، وهناك في الصين البعيدة . . وفي كل بلاد تحت سيطرة العدو ، يتوقع أصداؤنا أن يشاهدوا في بريطانيا حكومة قوية راسخة ، وأن يروا ما ستصبح عليه زعامتها القومية أتعرض للتحدي أولا ؟ ان لكل صوت أهميته ، واذا انخفضت نسبة مؤيدي أولئك الذين هاجمونا الى درجة مزوية ، وانقلب اقتراحهم

بلوم الحكومة انقومية الى اقتراح بلوم مقدمى الاقتراح انفسهم فتيقنوا أن هتافات أصدقاء بريطانيا والمخلصين لقضيتنا سسترتفع فى كل مكان وستنوى جلاجل الخيبة فى مسامع العتاة الذين نعمل على التخلص منهم

وكان أن رفض المجلس اقتراح السير « جون ووردلو - ميلن » بعدم الثقة بالحكومة بأكثرية (٤٧٥) صوتا مقابل : (٢٥) صوتا .

وكان أصدقائى الأمريكيون يتطلعون بقلق بالغ الى ما سينجلى عنه الاقتراح وقد انكشف فعلا عما أبهجهم . وفى صباح اليوم التالى أفقت لالتقى تهانيمهم .

وخلال المناقشة تعرض المستر وولتر ايليوت لموضوع تاريخى غريب حينما قرأ ما كتبه ماكسولى عن حكومة المستر بيت اذ قال : كان بيت يقود شعبا فى معركة الحياة أو الموت . . ولكن الجيش البريطانى فى الواقع غدا ، بعد ثمانى سنوات من الحرب ومن بذل الكثير من الارواح وأموال ، فى عهد بيت ؛ مثار سخرية أوربا كلها .

ولم يكن فى طاقة هذا الجيش أن يزهو بالانتصار فى احدى المعارك ولم يبرز فى أى بقعة من القارة ، الا كتبت عليه الهزيمة والفرار . ومع ذلك استمر بيت يلقي مؤازرة مجلس العموم . وهكذا كانت الحكومة تنال فوزا داخل أسوار البرلمان فى فترة طويلة من المحن التى نزلت خلالها خارج البرلمان نوازل مختلفة الألوان .

وفى النهاية لم تبق هناك معارضة لحكومة بيت ، وفى عام ١٧٩٩ التاريخى نال بيت أكثرية ، اذ لم يصوت ضد حكومته الا خمسة وعشرون عضوا . واستطرد المستر ايليوت يقول : ومن العجيب أن التاريخ يكرر نفسه أحيانا ولم يكن فى طاقة المستر ايليوت أن يدرك قبل التصويت مدى صدق قوله . وقد تحيرت أنا الآخر من رقم الخمسة والعشرين ، لأنه كان الرقم الذى ذكرته للرئيس روزفلت ولهارى هوبكنز حينما كنت معهما فى البيت الابيض يوم وافتنا أخبار طبرق .

الجيش الثامن في موقف التأهب

كان لسقوط طبرق ، دون حصار لفترة طويلة أثره في قيام ثورة في خطط المحور ، وكانت الخطة حتى الآن تعتمد على أن يقف رومل على الحدود المصرية وأن تسارع قوات تنقل عن طريق البحر والجو ، باحتلال مالطة ، وقد أكد موسوليني هذه الاوامر في الحادي والعشرين من يونيو بيد أنه اقترح بعد سقوط طبرق بيوم واحد : أن يقوم بالقضاء على ما تبقى من قوات بريطانية صغيرة على الحدود وأن يفتح الطريق الى مصر . . . وقد عززت وجهة نظره في متابعة المطاردة الى قلب مصر عدة عوامل منها : وضع قواته وروحهم المعنوية العالية والكميات الهائلة من الذخائر فضلا عن الفنائم التي استولى عليها ، وضعف مركز القوات البريطانية . وطلب الموافقة على خطته ، وقد تلقى موسوليني رسالة أخرى من هتلر تلح عليه بقبول اقتراحات رومل ، واليك فقرات منها :

« لقد أراد القدر أن يمنحنا فرصة لن تعوض على مسرح الحرب نفسه . . . فقد دمر الجيش الانجليزى الثامن تدميرا تاما ، وما زالت تجهيزات الميناء في طبرق سليمة ، وما أنت ذا تملك الآن قاعدة اضافية لها أهمية عظيمة ، لان الانجليز قد مدوا منها سكة حديدية الى مصر نفسها ، واذا لم نقم في هذه اللحظة بمطاردة الجيش البريطانى حتى يلفظ أنفاسه آخر رجل فيه ، فسيكرر ما حدث حينما حرم البريطانيون نمار نصرهم الذى حققوه ، فلم يصلوا الى طرابلس ، وتوقفوا بقواتهم فجأة ، ليرسلوها الى اليونان . . »

ان « آلهة المعارك » تزور المحاربين مرة واحدة غير أن من يقعد عن التمسك بها حين تزوره لن يستطيع أن يمسك بها مرة أخرى .

ولم يكن « الدوتشى » في حاجة الى من يقنعه بذلك فقد راوده الامل مرارا في احتلال مصر . وقد أرجأ الهجوم على مالطة الى أول شهر سبتمبر وخول رومل - الذى أصبح حينئذ ماريشالا بصورة فاجأت الايطاليين وأدهشتهم - الاستيلاء على الممر الضيق نسبيا ، وهو بين العلمين ومنخفض انقطاره ليكون « نقطة البداية » في عملية قادمة تستهدف الوصول الى قناة السويس ، أما كيسلرنج « فكان يرى غير ذلك ، فقد ايقن أن مركز المحور في الصحراء لن يؤمن الا بالاستيلاء على مالطة ، ولهذا فقد أفزعه ما طرأ على الخطة من تحوير . وقد أوما الى حمق مشروع رومل وما ينطوي عليه من أخطار جسام .

ولم يكن هتلر نفسه على ثقة من النصر على مالطة لانه كان يرتاب في كفاية القوات الايطالية التي كان من المقرر أن تقوم بالدور الرئيسى في الحملة حيث كان من المتوقع أن يبنى بالفشل أى هجوم يشن عليها :

ولكن من المؤكد الآن ان خسارة طريق التي تشير كوامن الحزن والفزع — قد أنقذت الجزيرة من محنتها الكبرى . وذلك عزاء ينبغي ألا يفيد منه أى جندي ممتاز سواء أكان ذا شأن فى المعركة أم لم يكن ، لان جانباً كبيراً من العبء يقع على كاهل القيادة العليا أكثر من وقوعه على أى من الجنرالات أو الجنود .



وقد نظم رومل بسرعة قوات المطاردة وفى الرابع والعشرين من يونيو اجتاز الحدود الى مصر دون أن يجد مقاومة إلا من قواتنا المتحركة الخفيفة بالإضافة الى الاسراب المقاتلة العنيدة التي استطاعت ان تطفى حركة تراجع قواتنا الى مرسى مطروح ولم يكن مركزنا هنا قوياً ، وقد تم اتخاذ اجراء دفاعى حول المدينة ، ولم يكن فى جنوبها غير خطوط من حقول الانغام غير المتصلة تفتقر الى الحماية الكافية ، وقد كان الدفاع عن هذا الخط يحتاج الى قوة مدرعة كبيرة لحماية جناحه الايمن شأنه فى ذلك شأن خط الحدود الذى تخطينا عنه . . ولم يكن فى امكان الفرقة المدرعة السابعة أن تقوم بهذه المهمة رغم أنها تمكنت حينئذ من حشد مائة دبابة . .

وفى الخامس والعشرين من يونيو وصل الجنرال أوكنلك الى الجبهة الامامية فى مرسى مطروح وقرر أن يتولى قيادة العمليات بنفسه بدلا من الجنرال « ريتشى » وكان من واجبه أن يفعل هذا منذ طلب اليه أن يفعله فى شهر مايو الماضى . . وقد توصل الى نتيجة سريعة هي : أنه لا يمكنه أن يصمد نهائيا فى مرسى مطروح ، وكانت الاجراءات تتخذ على قدم وساق لإعداد المواقع فى العلمين التى تبعد مائة وعشرين ميلا الى الورا وتاخذت التدابير لوقف تقدم العدو فى هذه المنطقة ، ثم عهد الى الفرقة النيوزيلندية التى قدمت من سوريا ووصلت الى مرسى مطروح فى الحادى والعشرين من يونيو — بالقيام بعمليات حربية فى السادس والعشرين من هذا الشهر فى المنطقة الصحراوية فى « منفا قائم » بين العلمين ومرسى مطروح وفى هذه الليلة تمكن العدو من أن يخترق جبهة لواء المشاة الهندى التاسع والعشرين فى المنطقة التى لم تستكمل فيها حقول الانغام بعد ، وقد نفذ العدو من الفجوة التى فتحتها فى الصباح التالى ، وطوق مؤخرة القوات النيوزيلندية التى أصبحت محاصرة من جبهاتها الثلاث ، واستمر القتال عنيفا يائسا طوال النهار ؛ وفى آخر الامر ظهر أن نهاية الفرقة قد غدت محتومة . وقد أصيب قائدها الجنرال « فريبرج » بجراح خطيرة ، بسد أنه قد خلفه الزعيم « انجلر » وقد كان قائدا ماهرا ، فقرر أن ينفذ من الحصار المضروب حوله وبعد منتصف الليل تحرك اللواء النيوزيلندى الرابع صوب الشرق ، وقد انتشرت فرقة وأشهر الجنود أسلحتهم ، وتم يجد النيوزيلنديون أدنى مقاومة مسافة ألف ياردة . . . وفجأة . . انصبت عليهم النيران ، وهجم اللواء فى صفوف واحد ، وفوجئ الالمان بهذا الهجوم ؛ وخرجوا مهزومين من المعارك التى جرت بالسلاح الابيض فى ضوء القمر الساطع ؛ وقامت بقية الفرقة النيوزيلندية بالهجوم تجاه الجنوب فى دفعات دائرية وهذا ما ذكره رومل نفسه عن هذه القصة حيث قال :

« لقد تناولت المعركة الحامية الوطيس التى أعقبت ذلك ؛ مركز

قيادتي في الميدان . . . وقد تبادل قواتي والنيوزيلنديون إطلاق النيران بصورة قوية عنيفة وسرعان ما وجدت حول مقر قيادتي عددا من السيارات المحترقة التي غدت هدفا لنيران العدو المتواصلة والتي تنطلق من مسافة قريبة ، وبعد فترة قصيرة أدركني الملل بسبب هذه الحالة ، وأمرت الجنود وضباطهم بالانسحاب قليلا الى الجنوب الشرقي ولا يمكن المرء أن يصف الاضطراب الذي ساد هذه الليلة .

وهكذا أفلتت الفرقة النيوزيلندية من الحصار واستعادت تنظيم صفوفها ونشاطها مع القوات الأخرى في موقع العلمين الذي يبعد ثمانين ميلا الى الوراء ، ونم يكن قد طرأ بعد على الفرقة أي انهيار مما ساعدنا كثيرا في تعزيز خطوطها الدفاعية .

وقد تم انقاذ بقية الجيش الثامن في أمان لم يخل من كثير من العنف وكان الذهول قد هيمن على القوات ورغم أن اليأس لم يسيطر عليها ، وقد أدى قصر المواصلات وبعد الاسكندرية عن الجبهة أربعين ميلا الى المبادرة باعادة تنظيم كل القوات وبدأ « أوكنلك » - وهو يتولى القيادة المباشرة شخصا مختلفا كل الاختلاف عن ذلك القائد الاستراتيجي المفكر الذي ينظر بعين واحدة الى المعركة الحاسمة الدائرة في حين تنشغل عينه الأخرى بالآخطار الغامضة البعيدة في ايران وسورية وقد حاول على الفور أن يسترد زمام المبادرة التكتيكية ، وقام في الثاني من يوليو بأول هجوم مضاد في سلسلة الهجمات المضادة التي استمرت حتى منتصف ذلك الشهر وكانت هذه الهجمات تمثل تحديا لتفوق رومل الغريب ، وفي صبيحه يوم الاقتراع على لوم الحكومة أرسلت اليه تشجيعي الذي كان يضاهي ما أطلقه من قصف المدافع .

وقد امتدت مواصلات رومل في الواقع الى أقصى مدى ممكن ، في حين بلغ الجهد بقواته مداه ولم يبق لديه من الدبابات سوى اثنتي عشرة دبابة صالحة للعمل ، وقد بدأ انسلاح الجوى البريطانى وخاصة المقاتلات - يبدو متفوقا بصورة واضحة وفي الرابع من يوليو أبرق رومل يقول : انه سيوقف هجومه ويتجه الى الدفاع فترة من الزمن يستطيع خلالها اعادة تنظيم قواته وهو مازال واثقا من قدرته . على احتلال مصر وقد وافقه كل من موسوليني وهتلر في هذا الرأي ، وبالفعل أصدر الفوهرر أوامره بارجاء الهجوم على مالطة حتى يتم احتلال مصر دون إيذاء الى الايطاليين أو الى قيادته البحرية .

وفي الاسبوعين الاولين كانت هجمات « أوكنلك » المضادة بمثابة ضغط شديد على رومل الذي استأنف الهجوم بعد ذلك ، وحاول فيما بين الخامس عشر من يوليو والعشرين منه اختراق الخط البريطانى ، ولكنه اضطر في الحادى والعشرين الى الابراق بأن هجومه قد صد ، وقال : ان الازمة لاتزال قائمة . . . وفي السادس والعشرين بدأ يفكر في التراجع الى الحدود ، وأخذ يشكو من قلة الامدادات الجديدة واقتقاده الرجال والدبابات والمدفعية كما شكوا من نشاط السلاح الجوى البريطانى الذي كان ذا فعالية . . . وهكذا استمرت المعركة في حالة من التراجع حتى آخر الشهر حينما وصل الفريقان الى حالة من التوقف من جراء قتالهما المستمر . . . وكان

الجيش الثامن الذي يقوده « أوكنك » قد صمد للمعاصرة وأضعفها ، وتمكن بهذا الصمود الراسخ من أسر أربعة آلاف ألماني ، وكانت مصر لا تزال في مأمن .

وفي هذه المرحلة السياسية العسكرية الواهنة طلب الى الولايات المتحدة أن تتخذ قرارا بالتخلي عن كل الخطط لعبور قناة المانش في عام ١٩٤٢ . وتوجيه حملة بريطانية أمريكية مشتركة لاحتلال افريقية الشمالية الفرنسية في خريف ذلك العام أو شتائه . وقد كان لهذا القرار أثره في السيطرة على اتجاه الحرب طوال العامين القادمين .

و كنت قد درست بعناية منذ مدة أفكار الرئيس وما يساورها من انطباعات كما كنت واثقا من أن « مشروع شمال افريقية » يستهويه كثيرا وكان هذا المشروع هو الهدف الذي أسعى اليه دائما وقد أدرج في أوراقى التى أعدتها في ديسمبر عام ١٩٤١ ، وفي هذا الوقت ايقن كل فرد من أفراد حلقنا البريطانية أن اجتياز القناة في عام ١٩٤٢ سيمنى بالفشل ، ولم يكن أى عسكري على جانبي الاطلنطى على استعداد لتوصية بمثل هذا المشروع أو تحمل مسئوليته ، وقد عرضت هذه القضية بأذلا اقصى ما استطيع من حول وقوة مستخدما فى ذلك أبسط عبارات ممكنة فى البرقية التى بعثت بها الى الرئيس فى الثامن من يوليو وهذا نصها :

١ - ليس فى مكنة أى من قواد الحرب البريطانيين غزو بريست أو شربورج بعملية المطرقة الكبيرة فى عام ١٩٤٢ ، ويقول رؤساء أركان الحرب : « ان الاوضاع التى يمكن أن تنجح هذه العمية وتجعلها معقولة ، لا ينتظر حدوثها » وهم الآن يوافقون رؤساء أركان حربك بتقريرهم عن هذا الموضوع .

٢ - ونحن نقوم الآن بالسيطرة على الملاحة لاغراض تتعلق بالتمويه والتضليل على الرغم من أنها تؤدى الى خسائر تلحق بوارداتنا وتبلغ ما يقرب من ربع امدايون طن ، ولكن الاخطر من هذا ، هو مايقونه «مونتباتن» من أننا اذا ارجأنا تدريب قواتنا ؛ فسنضطر بالاضافة الى خسارتنا قطع الانزال « وماشاكلها الى تأخير عمليه الغزو الرئيسيه لفرنسا شهرين أو ثلاثة على الأقل ، حتى لو فشل المشروع واضطردنا الى سحب القسوات التى أنزلناها بعد فترة وجيزة .

٣ - واذا تمكنا من احتلال موقع والحفاظ عليه ، ينبغى علينا مواصلة تمويته بالامدادات واحباط جهود قاذفات القنابل الألمانية التى سنعرض حتما لغاراتها باستمرار ، وفى هذه الحالة سنستنزف كل جهودنا فى حماية رأس الجسر مما قد يؤثر - ان لم يقض قضاء مبرما - على احتمال قيامنا بعملية واسعة النطاق فى عام ١٩٤٣ ، وسنستنزف مواردنا كلها شيئا فشيئا ، فى هذه الجبهة الضيقة جدا ، والمفتوحة لنا وحدها دون سواها وعلى ذلك ، نستطيع أن نقول : ان العمل الذى لم ينضج بعد فى عام ١٩٤٢ ، والذي قد يؤدى فى الغالب الى كارثة سيكون منه قاسيه لآمالنا ، فى القيام بعمل منظم واسع النطاق فى عام ١٩٤٣ ..

٤ - وأنا واثق ان العملية فى افريقية الشمالية الفرنسية انما هى « عملية الرياض » وهى بلا ريب ، أفضل فرصة لنا لتخفيف الضغط

عن الجبهة الروسية في عام ١٩٤٢ ، واعتقد ان هذه العملية تنسجم
بأفكارك كل الانسجام بل انها فكرتك الاساسية .. انها انجبة الحقيقية
الثابتة لعام ١٩٤٢ ، وقد استشرت الوزراء ولجنة الدفاع فاتفقنا
عليهما جميعا ، وهذه هي الضربة التي تحقق النتائج المرجوة والامنية
التي يمكن ان نحققها في هذا الحريف .

٥ - ونستطيع ان نعوضا « عملية الرياضى » هذه بكل الوسائل
باستخدام السفن البريطانية لنقل القوات الامريكية أو البريطانية
اللازمة للعملية وتأمين سفن الانزال والملاحه وفي امكانك اذا شئت -
ان تقوم بعملية المهاز من هنا ، ثم تستكمل الترتيبات مباشرة عبر
ارطلنطى .

٦ - ويجب ان يكون واضحا لدينا ان الامل لن يراودنا من أجل دعوة
نلقاها أو ضمان نتسلمه من « فيشى » .. ولكن اية مقاومة يبديها
الفرنسيون ، لن تكون شيئا ذابال بالقياس الى ما نلقاه من الجيش الالماني
في خليج « كاليه » في حالة الغزو .. والواقع ان المقاومة الفرنسية تعتبر
رمزية وكلما كنا أقوى ، كانت المقاومة أضعف وكان من السهل علينا التغلب
عليها . والموضوع هنا يتعلق بالناحية السياسية أكثر من تعلقه بالناحية
العسكرية . ويخيل الى أن علينا الاندفع جانبا هذه الضربة الاستراتيجية
العظيمة التي تهيأت لنا في المسرح الغربى في هذا العام ..

٧ - وبالإضافة الى ما سبق علينا ندرس الآن امكانية القيام بعملية
في شمال النرويج ، ولامرية في أن الصعوبات ستكون بالغة ، لما
تعرض له سفننا من الطائرات المغيرة من قواعدها على الشساطىء وعلى
الرغم من اننا نعاني ويلات مخيفة في تسيير القوافل الروسية الا انه من
الضرورى فتح الطريق وتأمين الاتصال بروسيا .. وقبل أن يتخذ قرار
نهائى حاسم كانت هناك فترة من التوقف . وقد حدثت أزمة شديدة في
القيادة العليا ، لإدارة دفة الحرب الامريكية ، ووقع خلاف بين الجنرال
« مارشال » والاميرال كنج ، حول أولوية أوروبا أو المحيط الهادى ، ولم
يكن أى الرجلين راغبا في « مشروع شمالى أفريقية » وقد كان اهتمام
الرئيس روزفلت يتضاعف بإطراد بالنسبة للمشروع الأفريقى ، وقد
استطاع الفيلدمارشال « ديل » بما يتمتع به من مزايا - أن يكسب ثقة كل
المدارس الفكرية المتضاربة ، وبفضل كياسته استطاع أن يحتفظ بثقة
الجميع ، وكان الرئيس قد أدرك قوة الحجج المعارضة في عملية « المطرقة »
وإذا كان يضع دائما هذه العملية فوق كل اتصالاته بنا فما ذاك الا لانه أراد
اقتناع الجنرال مارشال بأنه سيهيء لهذه العملية كل فرصة
ممكنة ، أما اذا عجز الجميع عن التقدم بهذا المشروع فمماذا تكون
النتيجة ؟ لقد وجد اتجاه جارف لدى ضباط أركان الحرب الامريكيين
ينهب الى انه : اذا لم نستطيع أن نفعل شيئا هذا العام في أوروبا فعلى
أن نركز جهودنا ضد اليابان فنوفق بهذه الطريقة بين فكرتى الجيش
والاسطول الامريكيين ، ونقرب بين الجنرال مارشال والاميرال « كنج »
بيد أن الرئيس « روزفلت » قاوم هذا الاتجاه الفكرى الخطر وقضى
عليه فلقد كان مقتنعا بأن على الجيش الامريكى ان يقاتل الالماني في عام
١٩٤٢ - فاين يمكن ان يتم هذا اذا لم يكن فى شمالى افريقية ؟ ويقول

المستر « ستمسون » : ان هذه الفكرة ، كانت المولود الحربى الذى وضعه الرئيس سرا . . ولا مريية فى ان قوة ادلة ومنطق الرئيس فى هذا الاتجاه ، كانا فى غاية السلامة وانوجاهه .

وفى يوم السبت الموافق الثامن عشر من يوليو وصل الجنرال ماريشال والاميرال كنج وهارى هويكنز بالطائرة الى « بريستويك » واستقلوا القطار فورا الى لندن حيث بدوا على انفور يتشاورون مع القادة الامريكين المقيمين هناك . وهم ايزنهاور وكلارك و « ستارك وسباتز » وجرى النقاش بينهم ثانية فى « عملية المطرقة » وقد كان الراى المهيمن على الامريكين لا يزال مؤيدا لهذه العملية دون سواها بل ملحا فى تنفيذها . . وبدا ان الرئيس وحده قد تأثر بالحجج التى قدمتها ، وقد زود الوفد بوثيقة وضعها بنفسه واعتبرها احسن ما كتب عن سياسة الحرب وأشدها فعالية . . أوردتها بنصها .

« مذكرة الى السادة : « هارى هويكنز والجنرال ماريشال والاميرال .
« كنج » الموضوع : تعليمات عن مؤتمر لندن - يوليو عام ١٩٤٢

١٦ من يوليو عام ١٩٤٢

١ - ستمسون فورا الى لندن كممثلين لى بصفة شخصية وذلك لتبادل الراى مع السلطات البريطانية المختصة فى موضوع ادارة دفة الحرب .

٢ - حدثت تغييرات عسكرية وبحرية استراتيجية كبيرة منذ زيارة المستر تشرشل لواشنطن ، تستدعى الوصول الى اتفاق عاجل على خطط العمليات المشتركة بيننا وبين البريطانيين على أساسين :

أ - الخطط النهائية فى الفترة الباقية من سنة ١٩٤٢ .

ب - الخطط التى مازالت تحت البحث لعام ١٩٤٣ ، على أن تكون قابلة للتعديل فى هدى ما سيتمخص عنه عام ١٩٤٢ ، مع وجوب اعدادها فى هذا الوقت فى كل الحالات على اعتبار انها استعدادات فى عام ١٩٤٢ لعمليات ستقع فى عام ١٩٤٣ .

٣ - أ - يجب أن يكون الهدف المشترك للامم المتحدة هو : هزيمة دول المحور ، وليس هناك أى تساهل فى هذه النقطة .

ب - علينا ان نركز جهودنا وأن نتجنب الفرقة .

ج - من الامور الحيوية استخدام القوات البريطانية بصورة عامة موحدة .

د - من الضرورى استخدام كل القوات الامريكية والبريطانية المتأهبة فى أى عمل حربى يمكن استغلالها فيه ، وذلك فى أسرع وقت ممكن .

هـ - من الاهمية بمكان ضمان استخدام القوات الامريكية البرية في عمل ضد العدو في عام ١٩٤٢ .

٤ - يجب تنفيذ كل الارتباطات المادية البريطانية والامريكية التي التزمنا بها لروسيا ، تنفيذاً ينطوي على صدق انية والوفاء .

ويجب قبل كل شيء ان ترسل جميع مواد القتال عن طريق ايران اذا كان صالحاً للاستعمال ، ومن الواجب ان يستمر هذا الارسال مادام التسليم ممكناً وعلينا ان نشجع روسيا على مواصلة القتال والا نتراجع في حال الانهيار الكامل ، وهو شيء نستبعده .

٥ - عليكم بالنسبة لعام ١٩٤٢ ، أن تدرسوا بعناية : امكانية تنفيذ عملية المطرقة « ولا مرية في أن مثل هذه العملية ، ستبقى على روسيا في ميدان المعركة هذا العام ، وهي عملية مهمة للغاية بحيث تتطلب كل الاسباب والمسوغات تنفيذها وعليكم أن تحثوا بريطانيا بقوة على اتخاذ كل الاستعدادات العاجلة بغية تنفيذها ، وان تدفع العملية الى الامام بمنتهى الحيوية والنشاط ، وتخرج الى حيز التنفيذ سواء أصبح انهيار روسيا متوقعا في كل لحظة أم لا ، واذا غدا الانهيار محتمل الوقوع فان عملية « المطرقة » تتجاوز طور الصلاحية ولا مرية في أن الهدف الرئيسي لعملية « المطرقة » هو تحول قوات المانيا الجوية الايجابية من الجبهة الشرقية الروسية ! ..

٦ - أرجو اخباري حين تقتنعون تماما باستحالة تنفيذ « عملية المطرقة » مع وجود فرصة معقولة لتحقيق اهدافها المتوخاه .

٧ - واذا استبعدنا عملية المطرقة نهائيا - وبصورة مطلقة - فاني أريد ان تدرسوا الوضع العالمي على ما يكون عليه حينئذ ، وتقرر والمكان الآخر الذي ينبغي أن تقاوم فيه القوات الامريكية في عام ١٩٤٢ .

أن الصورة التي أرسمها للعالم اليوم هي كما يلي : -

أ - اذا استمرت روسيا في مناوشة قوات المانية كبيرة ، فان « عملية الطراد » « غزو أوروبا » تصبح أمراً ممكناً في عام ١٩٤٣ ، ويجب أن نضع الخطط لعملية الطراد ودراساتها عاجلاً واتخاذ الاستعدادات اللازمة لها .

ب - وقد تغزو عملية الطراد مستجيبة في عام ١٩٤٣ اذا انهارت روسيا وتحترت قوات المانيا البرية والجوية من الجبهة الشرقية .

٨ - يجب أن نحفظ في الشرق الاوسط بكل قوة ممكنة ، سواء انهارت روسيا أو لا ، وأريد أن تأخذوا بعين الاعتبار ما يخلفه ضياع الشرق الاوسط من أثر ، ان مثل هذه الخسارة تعني ما يلي بالتسلسل :

١ - ضياع مصر وقناة السويس ..

٢ - ضياع سورية ..

٣ - ضياع آبار النفط في الموصل ..

٤ - ضياع خليج البصرة بما يشتمل عليه من هجمات من الشمال والغرب مع امكانية انوصول الى نقط الخليج ..

- ٥ - اتصال المانيا واليابان واحتمال ضياع المحيط الهندي .
٦ - احتمال قيام المانيا في الغالب باحتلال تونس والجزائر ومراكش وداكار وقطع الطريق المائي عبر فرويتان وليبيريا .
٧ - تهديد الطرق الملاحية كلها في جنوبي الاطلنطي وتهديد البرازيل والساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية كله وهذه الاحتمالات تتضمن احتمال استخدام الالمان اسبانيا والبرتغال وكل ممتلكاتها .
٨ - يجب أن تقرر أحسن السبل للاحتفاظ بالشرق وهذه السبل تتضمن حتما احدي الطريقتين التاليتين أو كليهما معا :
(أ) ارسال النجدة والقوات البرية الى خليج البصرة وسورية ومصر .

(ب) القيام بعملية جديدة في مراكش والجزائر الغرض منها : الزحف على مؤخرة جيوش رومل ، أما موقف القوات

- الفرنسية في مستعمراتها فما زال موضع شك ..
٩ - اننى أعرض أن تقوم أمريكا وحدها بمجهود في المحيط الهادى ضد اليابان في الوقت الحاضر لأن هذا يؤدي الى هزيمتها في أسرع وقت ممكن ، ولعل من الاهمية بمكان أن نفهم جميعا ان هزيمة اليابان لا تعنى هزيمة المانيا ، وان تركيز القوات الامريكية ضد اليابان في هذا العام أو في عام ١٩٤٣ يضاعف احتمال سيطرة المانيا الكاملة على أوروبا وافريقية ومن ناحية أخرى ، يبدو ان هزيمة المانيا في عامي ١٩٤٢/١٩٤٣ تعنى احتمال الهزيمة النهائية لالمانيا على المسرحين : الاوروبى والافريقى والشرق الاوسط أيضا ، كما ان هزيمة المانيا تعنى هزيمة اليابان وقد تكون هذه الهزيمة دون اطلاق طلقة واحدة أو ازهاق حياة جندي واحد .
١٠ - أرجو أن تتذكروا ثلاث حقائق أساسية هي : سرعة تقرير الخطط وتوحيدها والجمع بين الهجوم والدفاع دون الاقتصار على الدفاع وحده ، وينبغي أن يكون هذا هو الهدف العاجل للقوات الامريكية البرية التي تقاتل الالمان في عام ١٩٤٢ .

١١ - أمل أن تصلوا الى اتفاق كامل بعد اسبوع واحد من وصولكم

« فرانكلين » د . روزفلت

القائد الاعلى .. ، ..

وعلى الرغم من هذا الايماء الاخير ، فقد أبلغني الجنرال مارشال بعد ظهر الثاني والعشرين من يوليو انه هو وزملاءه قد وصلوا في محادثاتهم مع رؤساء أركان الحرب البريطانيين الى ما يشبه الأزمة مما حدا بهم الى التوقف وكان عليه أن يبرق الى الرئيس طالبا تعليماته ..

.. هذه من غير شك وجهات نظر استعمارية محضة

(اللجنة)

ورددت عليه باننى اتفق مع الرئيس ومستشاريه العسكريين فى رغبتهم الكاملة فى الاشتباك مع العدو على أوسع نطاق وفى أسرع وقت ولكننى واثق أنه نظرا للقوات المحدودة الموجودة تحت تصرفنا ، لن يكون ثمة داع للتفكير فى القيام بعملية «المطربة» فى عام ١٩٤٢ ، وقد أشرت الى ما يواجهنا من احتمالات بشعة كثيرة ، فهناك مثلا احتمال «أوكنلك» واحتلال «دلتا النيل» وقناة السويس أو توطيد أقدامهم فى شمالى افريقية وغربيها ، وبذلك يفرضون على ملاحتنا المجهدة المنهكة عبئا ثقيلا جديدا وقد اضفت: ان الخلاف بين بريطانيا العظمى وأمريكا يترك أثرا أكبر وأعظم من جميع هذه الاحتمالات ، ولهذا فقد اتفقنا على أن ينقل رؤساء أركان الحرب الأمريكين الى الرئيس عدم استعداد البريطانيين للمضى فى عملية «المطربة» وأن يبرق بذلك الى الرئيس ليعت بتعليماته .

وقد رد الرئيس روزفلت على الفور بأنه لم تدهشه النتيجة المخيبة للآمال التى وصلت اليها محادثات لندن ، كما وافق على أنه ليس هناك جدوى من الاستمرار فى المضى فى «عملية المطربة» تجاه المعارضة البريطانية لها . وأصدر تعليماته الى وفده بالوصول الى قرار معتاتناول بعض العمليات التى تمكن القوات الأمريكية البرية من الاشتباك مع العدو فى عام ١٩٤٢ ، وهكذا اختفت «عملية المطربة» لتحل «عملية الرياضى» محلها ، وقد أحنى «مارشال وكنج» هامتيهما أمام قرار قائدهما الأعلى على الرغم من المرارة وخيبة الأمل التى انتابتها ، وقد سيطرت النيات الطيبة فى أبلغ صورها علينا جميعا من جديد .

وبادرت الى إعادة «تعميد» عمليتى الاثيرة الى نفسى «الرياضى» تحت اسم آخر ، ففي الرابع والعشرين من يوليو أصدرت تعليمات الى رؤساء أركان الحرب بأن يصبح الاسم الجديد للعملية هو : «المشعل» وفى الخامس والعشرين من يوليو أبرق الرئيس الى هوبكنز ، بوجوب المضى فى وضع الخطط للنزول فى شمالى افريقية على الفور ، على الا يتأخر التنفيذ عن الثلاثين من أكتوبر ، ومضى أصدقائنا الأمريكيون فى تلك الليلة عائدين الى واشنطن .

وهكذا تم الاتفاق على الافكار التى جمعتها أنا وزملائى من عسكريين ومدنيين منذ عهد بعيد ، وقد أثلج الاتفاق صدرى ولا سيما أنه جاء فى اللحظة التى بدا لنا أنها أحلك اللحظات ، وبهذا تم تبني جميع الخطط التى أجبتها باستثناء خطة واحدة فقد عجزت عن تنفيذ عملية «المشتري» الخاصة بغزو النرويج فهى على الرغم مما لها من مزايا لم تناقش ولم يفض من شأنها . . على انى لم أكن قد تخليت عن هذه الخطة ، وان عجزت أخيرا عن تنفيذها ، وقد ركزت جهدى منذ أشهر على الفاء «عملية المطربة» والاسراع بغزو شمالى افريقية «وعملية المشتري» وقد سقطت «عملية المشتري» فى الطريق ، ولكننى حققت ما يستأهل الشكر .

لقد أبرق اليها المشير «الفيلد مارشال ديل» من واشنطن يقول : لقد توجه الرئيس الى هايد بارك للاستجمام بعض الوقت بيد أنه قبل ذهابه أصدر أوامره للاسراع بعملية «المشعل» وتنفيذها بأسرع ما يمكن، وطلب الى هيئة الأركان المشتركة ابلاغه فى الرابع من أغسطس بالموعد

«المبكر الذي يمكن تحقيق العملية فيه ، ولا يزال خطر الالتفات الى المحيط الهادى ماثلا . وان كان الرئيس قد عقد العزم على ذلك .

» ويعنى قبول الرأى العام الامريكى لعملية المشعل ، استبعاد «عملية الطراد» فى عام ١٩٤٣ ، وينبغى ألا يساورنا القلق من هذا . . فكل ما نحتاج اليه الآن هو : تركيز تفكيرنا وجهودنا على «المشعل» ترى هل يقدر لاهدافه أن تكمل بالنجاح الذى تستحقه لما يتمتع به من بسالة وخيال عميق . .

وقد وصلت الى هذه الرسالة فى منتصف ليلة الاول من أغسطس عام ١٩٤٢ وكنت وقتها فى «مطار لينهام» أوشك على البدء برحلة سأحدث عنها بايضاح فى الفصل الثانى .

رحلتى الى القاهرة

تغيرات فى القيادة

لقد كانت التقارير التى تلقيتها من جهات شتى تقوى باستمرار - الشكوك التى ساورتنى فى موضوع «القيادة العليا فى الشرق الاوسط» . وغدا لزاما على أن أتجه الى هناك ، وأسوى القضية بصورة حاسمة ، وكان من المقرر أولا أن أمضى الى «جبل طارق فتاكورادى» ثم اجتاز أواسط افريقية الى القاهرة مما يقتضىنى السفر بالطائرة زهاء خمسة أو ستة أيام ، وعلى أية حال وصل الى انجلترا فى هذه الآونة طيار أمريكى شاب يدعى الكابتن «فاندركلوت» قادما بطائرته «الفدائي» من طراز ليبراتوز ، من الولايات المتحدة بعد أن رفعت منها أوكار قنابلها واستغضى عنها بأماكن لركوب المسافرين ، وقد كان فى وسع مثل هذه الطائرة اجتياز الرحلة المرسومة لها فى كل مراحلها بسرعة أكبر ، وقد استقبل «بورتال» - رئيس أركان سلاح الطيران - الطيار الأمريكى مستجوبا اياه فى موضوع طائرته ، وسأل «فاندركلوت» - الذى كان قد طار ما يقرب من مليون ميل - عن الاسباب التى تستدعى الدوران مثل هذه المسافة الطويلة الى «تاكورادى» وكانوفورت لامي والعبيد . . . وقال : انه يمكنه أن يطير من جبل طارق الى القاهرة دون توقف ، اذ يتجه من جبل طارق صوب الشرق بعد الظهر ثم يستدير فجأة نحو الجنوب عبر المناطق التى تحتلها اسبانيا «أوفيشى» فى شمالى افريقية عند حلول الظلام ، ثم يتجه شرقا الى أن يصل الى النيل فوق أسيوط ويتجه شمالا بحيث يصل الى مطار القاهرة شمالى الاهرام بعد ساعة واحدة ، وقد كان هذا الاقتراح كفيلا بتغيير الصورة كلها ، فقد أصبح فى طاقتى أن أصل الى القاهرة فى يومين أما «بورتال» فقد اقتنع بالاقتراح كل الاقتناع .

وكان أهم ما يشغلنا أن نعرف رد الفعل بالنسبة للحكومة الروسية بشأن الأنباء المؤلة - التى لا مناص من ابلاغها اياها وهى ان القناة لن تعبر فى عام ١٩٤٢ ، وقد حدث اننى شرفت بدعوة الملك الى العشاء مع أعضاء وزارة الحرب مساء الثامن والعشرين من يوليو فى غرفة الحديقة فى «داوننج ستريت رقم ١٠» التى كنا نستخدمها لمآدب العشاء وقد حصلت من جلالته - بصفة سرية - على الاذن لى بالقيام بالرحلة وبعد مغادرته هذا المكان دعوت الوزراء الى غرفة مجلس الوزراء ، فأبلغتهم كل شئ ، وتقرر سفرى الى القاهرة « وأن أقترح على مستألفى مقابلاته فى موسكو . . . ولهذا أرسلت اليه فى الثلاثين من يوليو البرقية التالية :

١ - نقوم الآن بالتمهيد للقيام بمحاولة أخرى لارسال قافلة كبيرة الى « أركانجل » فى الاسبوع الاول من شهر سبتمبر .

٢ - اننى راغب فى المجيء اليك اذا دعوتنى ، للاجتماع بك فى «استراخان» فى «القوقاز» أو فى أى مكان آخر مناسب يماثله ويمكننا أن نستعرض الوضع الحربى معا وأن نتخذ القرارات معا ، وسأبلغك حينئذ بالخطط التى اتفقت أنا والرئيس روزفلت عليها بالنسبة للأعمال الهجومية فى عام ١٩٤٢ ، وسأحضر معى رئيس أركان حرب قواتنا الامبراطورية .

٣ - آنى ذاهب الى القاهرة قورا ، فلى عمل جدى فيها لامرية فى انك تتخيله ، ومن هناك يمكننى أن أحدد الموعد الذى يناسبك للاجتماع اذا رغبت - وهو موعد قد يكون بالنسبة الى بين العاشر والثالث عشر من أغسطس ، اذا سارت كل الامور كما ينبغى .

٤ - لقد وافقت وزارة الحرب على اقتراحى ، وجاء الرد فى اليوم التالى ، وهذا نصه :

« نيابة عن الحكومة الروسية أوجه اليك دعوة الحضور الى الاتحاد السوفيتى للاجتماع بأعضاء الحكومة وأعتقد ان أنسب مكان للاجتماع هو: موسكو ، اذ ليس فى طاقتى أو فى طاقة أى عضو من أعضاء الحكومة أو كبار رجال القيادة العامة - أن ندع العاصمة فى هذه اللحظة التى يقوم فيها صراع عنيف عارم ضد الالمان ولا ريب فى أن وجود رئيس أركان الحرب ، أمر نرحب به أبلغ ترحيب وأصدق .

« أرجو أن تحدد انت موعد اللقاء وفقا لما يقتضيه انجاز أعمالك فى القاهرة من وقت ، كما أرجو أن تتيقن من ان أى موعد تحدده سيكون مناسباً لى .

« أرجو أن تسمحوا لى أن أعبر عن شكرى لموافقتكم على ارسال القافلة المحملة بالعتاد الحربى الى الاتحاد السوفيتى فى الاول من شهر سبتمبر ، وعلى الرغم من الصعوبة البالغة فى تحويل الطائرات عن الجبهة ، فستتخذ كل الاجراءات الممكنة لمضاعفة الدفاع الجوى عن القافلة ، .

وهكذا تم ترتيب كل شئ ، وغادرونا «لينهام» بعد منتصف ليلة الأحد فى الثانى من شهر أغسطس على ظهر قاذفة القنابل «الفدائى» على ان هذه الطائرة من طراز لا يوفر لنا المتعة التى توفرها لنا السفينة الطائرة «بوينج» ولم تكن وسائل التدفئة قد أدخلت الى القاذفة ، ولذلك فإن البرد القارس - الذى يكاد يمزق الاوصال - كان يسرى فى مفاصلنا ، ولم يكن فى الطائرة أسرة ، بل كان فيها رفان فى الغرفة الداخلية استلقيت أنا « ولورد موران » عليهما وقد توافرت لنا البطاطين الصوفية وكانت متوافرة للجميع ، وطرنا على ارتفاع منخفض فوق جنوب انجلترا ، حتى نتعرف علينا بطارياتنا المقبومة للطائرات والتى كانت فى حالة استعداد للطوارئ على الرغم من انذارها بمرورنا - وعندما أصبحنا فوق البحر ، غادرت « مقر الطيار » لأخذ قسطاً من الراحة ، ثم تعاطيت بعض الحبوب المنومة .

وفى صباح الثالث من شهر أغسطس وصلنا الى جبل طارق دون

ما حدث وأمضينا النهار نطوق بالقلعة ، ثم غادرناها في السادسة مساء في طريقنا الى القاهرة ، لنقطع ألف ميل أو يزيد في فترة واحدة تقريبا ، نقوم فيها ببعض الدوران البعيد لتجنب اللقاء بطائرة معادية فوق منطقة المعارك في الصحراء ، ولم يواصل فاندركلوت ، طيرانه فوق البحر المتوسط الى أن ينشر الظلام جناحه ، رغبة منه في توفير الوقود ، بل طار فورا عبر المنطقة الاسبانية ، وفي سماء ارض «أوفيشي» نصف المعادية، ولما كانت أربع مقاتلات من طراز «البوفايتر» تتولى حراستنا الى أن يحل الظلام ، فأننا قد خرقنا حياء هذه المناطق خرقا صريحا، ولم يتعرض لنا أحد في الجو ، كما أننا قد ابتعدنا عن مراكز إطلاق المدافع المضادة القائمة في المدن الهامة ، وعلى أية حال فقد رقصت طربا حينما حل الظلام وأصبح في مقدورنا أن نأوى الى المضاجع المتوافرة في طائرة من طراز «الفدائي» ولا شك في أن مشكلة معقدة كانت ستحدث لو اضطررنا الى الهبوط في الصحراء على الرغم من أن آثار هذا المكان كان كافيا في حد ذاته لخلق مشكلات كثيرة ، لكن محركات «الفدائي» الاربعة ظلت تدور بانتظام ، وقد نعمت بنوم هادى مريح ونحن نحلق في السماء الصافية ذات النجوم المتناثرة ..

وقد اعتدت في مثل هذه الرحلات أن أجلس في مقعد مساعد الطيار قبيل شروق الشمس ، وعندما وصلت الى المقعد في صباح ذلك اليوم الرابع من أغسطس رأيت في ضوء الفجر الشاحب ، شريطا ملتويا من المياه الفضية يمتد أمامنا ، انه نهر النيل ينساب رائعا في واديه ، وقد قطعت في أيام الحرب والسلام - برا ونهرا هذا الوادى العظيم من منبعه في بحيرة فيكتوريا حتى مصبه في البحر ، ما عدا منطقة «الناقلة» ولكنى لم أشعر قبل بالارتياح حينما تطلعت الى مياهه كما حدث في هذا الصباح .

وهكذا غدوت - بعد فترة وجيزة - «الرجل الذى يرقب الاحداث عن كثب» وبدلا من أن يستقر بى المقام فى الوطن فى انتظار وصول الأنباء من الجبهة ، أصبح فى وسعى الآن أن أنقل هذه الأنباء الى أى مكان آخر . ولقد كان هذا حقا ، شيئا مثيرا .

وكان على أن أقرر عدة قضايا فى القاهرة ، فهل فقد جيش الصحراء ثقته بالجنرال «أوكلنك» وأركان حربه ؟ وإذا كان هذا حقا ، فهل يجب أن انحيه عن القيادة ومن سيخلفه فى حالة تنحيته ؟ .. وهى مثل هذه القرارات تكون مؤلة قاسية وخاصة عند التعامل مع قائد له مثل ما «أوكلنك» من مكانة ومنزلة وميزات وكفايات وتصميم .. ورغبة منى فى تعزيز أحكامى ، طلبت الى الجنرال سمطس ، أن يطير من جنوب افريقية الى القاهرة ، وقد كان فى انتظارى فى دار السفارة حينما وصلت إليها ثم قضينا فترة الصباح معا حيث حدثته خلالهما عن كل متاعنا ومحالات الخيار المتفتحة أمامنا وبعد الظهر عقدت اجتماعا طويلا مع «أوكلنك» الذى بسط لى الوضع العسكرى بصورة جلية واضحة وبعد ظهر اليوم التالى وصل الجنرال «ويفل» قادما من «الهند» وفى السادسة مساء عقدنا مؤتمرا لشنون الشرق الاوسط لهذه «سمطس وكيس» الذى كان قد خلف ليلتون فى وزارة الدولة فى الشرق الاوسط ، والجنرال «بروك» رئيس أركان الحرب

«دويفل وأوكنلك» والاميرال «هارود ماريشال الجونيدري» وقد أنهينا كثيرا من الاعمال بالاجماع ولكن على ظل مشغولا طيلة الوقت بالموضوع الاساسى وهو القيادة .

ولا يستطيع الانسان أن يعالج مثل هذه التغيرات دون أن يستعرض الحلول البديلة وكان رئيس أركان الحرب - الذى يحتم عليه واجبه تقدير كفايات جنرالاتنا - مستشارى الخاص فى هذا الجزء من المشكلة ، وقد عرضت عليه أولا ، أن يتولى قيادة الشرق الأوسط وكان الجنرال «بروك» يود من صميم قلبه أن يتولى هذه القيادة العملية ، وكنت أعلم أنه ليس هناك من يفضلته فى توليها وقد فكر «بروك» فى الموضوع طويلا ، وتحدث فى الصباح التالى طويلا الى الجنرال سمطس ، ورد أخيرا : بأنه تولى رئاسة الاركان العامة منذ ثمانية أشهر فقط ، وهو يعتقد أنه متمتع بكامل ثقتى وان جهاز الاركان يسير سيرا مرضيا ، وأعرب عن اعتقاده بأن أى تغيير فى هذه اللحظة ، قد يحدث انقصارا مؤقتا فى هذا الوقت الحرج ، هذا بالاضافة الى أنه - لأسباب تتعلق بالذوق واللياقة لا يود أن يكون مسئولا عن التوصية بتنحية الجنرال «أوكنلك» عن قيادته وأن يتسلم هو مقاليد القيادة بدلا منه ، وكانت سمعته ترتفع فوق مستوى هذه الاتهامات والاعتبارات ، ولكن تحتم على أن أتطلع الى ناحية أخرى بحثا عن القائد الجديد .

وكان «اليكسندر» ومونتجومرى قد اشتركا معه فى المعركة التى تراجعنا فيها الى «دنكرك» فى عام ١٩٤٠ وكنا معجبين سلبا بالخطة القوية التى قام بها «اليكسندر» فى الحملة اليائسة التى عمد اليه أمرها فى نورما ، بعد أن سمعة مونتجومرى كانت طيبة تضرب فى آفاق الرفعة والسمو ، فاذا قررنا تنحية «أوكنلك» فليس ثمة شك فى أن «اليكسندر» هو الرجل الذى يجب أن يحمل العبء فى الشرق الأوسط ، ولكن شعور الجيش الثامن بنفسي ألا نتجاهلها أو نغفلها علم أن اختيار رجلين من انجلترا متخطين الرجال البسلاء الذين خاضوا معركة الصنحراء يعد بمثابة تحد لشعورهم على اختلاف رتبهم فهذا هو الجنرال «جوت» - وهو قائد أحد الفيالق - أفضل من يصلح لقيادة هذا الجيش ، والقهوات تدن له بكثير من الاخلاص ، ولم تلقه عبثا «بقاذف القنابل» وقد كان هناك رأى نقله الى «بروك» هو انه منهك ويحتاج الى الاستجمام ، وكان اتخاذ هذه القرارات بمثل هذه السرعة أمرا سهلا بعد أن قطعت هذه المسافة الطويلة كلما حتمت تتاح لي الفرصة لأرى وأسمع كل شيء يمكن الحصول عليه وتدبره فى ذلك الوقت .

ولقد كان كرم سفيرنا السبر «مايلز لامبسون» وضيافته فى غابة الروعة فقد قدم لي حجرة نومه المكيفة ، ومكتبه المكيف للعمل فيه ، وكان الجو حارا للغاية وهاتان الغرفتان الوحيدتان فى المنزل هما اللتان بهما أجهزة التكييف ، ولم يكن هناك منغصات عدا حرارة الجو - خلال ذلك الاسبوع الذى أمضيته فى استكشاف الاجواء والاستماع للآراء وزيارة الجبهة والمعسكرات الكبرى شرقى القاهرة فى القصاصين حيث كانت النجذات القوية تتدفق باستمرار .

وفي الخامس من شهر أغسطس قمت بزيارة مواقع العلمين وتوجهت بسيارة الجنرال «أوكنلك» الى النقطة التي تقع الى أقصى الجناح الأيمن بخط ، الى الغرب من «الرويسات» ومن هناك مضينا على طول الجبهة الى مقر قيادته وراء صخور الرويسات حيث تناولنا الافطار فيما يشسبه المدعب تحيط به الاسلاك التساكن ويمتلئ بالدباب وأنشخصيات العسكرية الهامه ، وقد وددت لو رأيت عددا من الضباط وفي مقدمتهم ، الجنرال فادو القنابل ، «جوت» فعيل لي : انه تان منهما في خدمته العسكرية الشافه ، وان هذا بل ما اردت ان اعلم ، وبعد ان تعرفت الى مختلف قادة الفيلق والفرق الحاضرين ، طلبت ان يرافقنى الجنرال «جوت» بالسيارة الى المطار - وهو المرز الثانى الذى سأنوقف فيه - وقد اعترض احد ضباط الرل ان حرب «اونلك» بان هذا سيبعد الجنرال بعض الوقت عن مكان عمله ، ولدى اصررت على وجهه نظرى ، وبانت لك هى مبادتى الأولى والأخيرة لجوت ، على حين باتت السيارة يصعد بنا وبهبب الطرق الوعرة ، بطعت الى عينيه انزرفاوين الهادتين وسالته عما اران مجهدا او لديه آراء يود الاضاء بها ، فرد جوت انه بلا شك مجهد وانه يود ان يمضى الى انجلترا ، التى لم يشاهدها منذ بضع سنوات فى اجازة ستتغرق باده اشهر ولكنه ابدى - مع ذلك - مقدره على القيام بيه مجهودات - عاجلة أخرى ، فضلا عما يتحمل من مسؤوليات قد نوبل ايه ، وافترقنا فى المطار فى الساعة الثانية بعد ظهر الخامس من أغسطس ، وبعد يومين قتل فى الساعة نفسها تقريبا برصاص العدو فى المنطفة الجوية التى كنت أطير فيها حينئذ .

وقد عهد الى نائب ماريشال الجو كننجهام برعايتى - وهو الذى كان يتولى رياسه كل القوات الجوية التى عملت مع الجيش فى ظل قياده تيدر ، وهى القوات التى نولا نشاطها ما أمكن تحقيق ذلك التراجع العظيم مسافة خمسمائة ميل دون أن تنزل بنا الدوارث التى تفوق فى شدتها تلك التى تحملناها حتى الآن - وقد طرنا فى ربع ساعة الى مدر قيادته حيث أعد لنا الغداء واجتمع كبار الضباط من قائد جناح فما فوق وأحسست بالتوتر يسود كل الضباط منذ اللحظة التى وصلت فيها . ولا يفوتنى أن أشير الى أن الطعام كان قد طلب من فندق شبرد فى القاهرة ، وقد حملت سيارة خاصة الطعام من الفندق ، غير أنها ضلت الطريق وبذلت مجهودات مضية للعثور عليها ولكنها وصلت أخيرا .

وكأنت مناسبة سارة وسط جو صاخب من الهجوم والمتاعب . أجل لقد كانت واحة حقيقية وسط صجراء كبرى مترامية الأطراف . وكان يسيرا على المرء أن يرى حرج وضع السلاح الجوى بالنسبة للجيش وما اعترى سلاحنا الجوى من دهشة للهزائم التى تعرضت لها قواتنا المتفوقة ، وعدت فى المساء الى القاهرة ، ونقلت مشاهداتى الى المستر اتلى ، وقضيت اليوم التالى كله - وهو السادس من أغسطس - مع «بروك وسمطس» ، وفى اعداد البرقيات اللازمة للوزارة ، كانت المسائل التى يتحتم على البت فيها عاجلا لاتتناول كبار القادة فحسب ، بل جهاز القيادة بأكمله فى هذا المسرح الواسع ، وكنت أشعر دائما أن اختيار اسم «الشرق الأوسط» لمصر وسورية وتركيا ، كان اختيارا سيئا ، فهذه

المنطقة هي الشرق الأدنى ، أما ايران والعراق ، فهما يؤلفان الشرق الأوسط ، على حين تكون الصين واليابان الشرق الأقصى ، وقد بدا الى أن هناك ما هو اهم من تبديل الاسماء الوهمية .. وهو « تجزئة قيادة الشرق الأوسط الحالية » ، نظرا لاتساعها وشمولها آفاقا رحبة شاسعة ، وقد حانت الساعة المناسبة لتحقيق هذا التعديل في التنظيم ، ولهذا أبرقت في الثامنة والرابع مساء الى المستر أتلي بالبرقية التالية :

١ - توصلت الى نتيجة تدعو الى اجراء تغييرات جذرية عاجلة في القيادة العامة .

٢ - ولهذا اقترح أن تنظم قيادة الشرق الأوسط الحالية في قيادتين مستقلتين هما :

(أ) قيادة الشرق الأدنى وتشمل مصر وفلسطين وسورية على أن تكون القاهرة مقرها ..

(ب) قيادة الشرق الأوسط وتشمل ايران والعراق ، على أن يكون مركزها البصرة أو بغداد ..

وتشمل القيادة الاولى : الجيش : الثامن والتاسع على حين تشمل القيادة الثانية الجيش العاشر ..

٣ - يعرض على الجنرال « أوكنالك » تولى القيادة العامة الجديدة للشرق الأوسط .

٤ - يتولى الجنرال اليكسندر القيادة العامة في الشرق الأدنى .

٥ - يخلف الجنرال « مونتجومري » الجنرال « اليكسندر » في قيادة عملية « المشعل » واني لاأسف لاضطرارنا الى نقل « اليكسندر » من قيادة « المشعل » ولكن مونتجومري جدير بأن يخلفه في تلك القيادة لكفايته ..

٦ - يتولى الجنرال « جوت » قيادة الجيش الثامن تحت أمره اليكسندر .

تكون هذه الاقتراحات التغييرات الاساسية التي يقتضيها حرج الوضع وأهميته وأكون شاكرا لزملائي أعضاء وزارة الحرب ، اذا ما وافقوا على هذه الاقتراحات ويريد « سمطس » ورئيس الاركان العامة أن ابلغكم أنهما متفقان معي كل الاتفاق على أن هذه الاقتراحات تنطوي على خير السبل التي يجب أن نتبعها في مثل هذه الحالة التي تحيط بها المتاعب الكثيرة وفي خضم هذه الحلول المختلفة البديلة ، وافق وزير الدولة أيضا على هذه الاقتراحات موافقة تامة ولا ريب عندي في أن هذه التغييرات ستحفز الجيش وتعيد اليه الثقة في قيادته - وهي الثقة التي فقدت في الوضع الحاضر مع عميق الاسف - وأرى لزاما على أن أؤكد هنا ضرورة ايجاد بداية جديدة وعمل عنيف لبعث الحيوية في هذه المنظمة الضعيفة الواسعة .. ولن تحقق وزارة الحرب - فيما أعتقد - في ادراك مغزى هذا الانتصار على رومل في أغسطس أو سبتمبر وادراك آثاره الحاسمة على موقف الفرنسيين في شمالي أفريقية عندما تبدأ عملية « المشعل » .

وقد وافقت وزارة الحرب على أرائى فى التغييرات الجذرية العاجلة وهى التى أدخلتها فى القيادة العامة - ورحب اعضاؤها ترحيبا حارا باختيار الجنرال « اليكسندر » قائلى : انه سىغادر انجلترا فورا - بيد أنهم - على كل حال - لم ترقهم فكرة تجزئة قيادة الشرق الأوسط الى قيادتين منفصلين ، وبدا لهم أن الأسباب التى حملتنا على تقرير قيادة موحدة ، أقوى اليوم مما كانت عليه ، عندما اتخذ القرار فى ديسمبر عام ١٩٤١ ، ووافقوا على أن يحل مونتهجرى محل اليكسندر فى قيادة « المشعل » واستدعوه للمجىء الى لندن فورا ، واخيرا تركوا الى موضوع البت فى بقية التعيينات .

وفى صباح اليوم اتالى أرسلت توضيحا آخر لاقتراحاتى ، وردت وزارة الحرب بأن يرقبى الجديدة لم تستأصل كل مخاوفها ، بيد أننى لما كنت فى الميدان ومعى « سمطس » ورئيس الاركان - اللذان وافقا على اقتراحى كانت الوزارة على استعداد تام للموافقة على ما أبديت من اقتراحات وان كانت قد أوضحت بشكل قاطع ، أن استمرار الجنرال « أوكنلك » فى حمل لقب القائد العام لشرق الأوسط فى حالة اختياره لتولى القيادة فى ايران والعراق ، سيؤدى الى شىء من الارتباك وسوء المصير ، وقد رأيت أن الوزارة على حق فى رأيها فأخذت بنصيحتها . .

وقد قضيت طيلة اليوم السابع من أغسطس فى زيارة « الفرفة الحادية والخمسين الجبلية » التى كانت قد وصلت حاد الى مصر على حين كنت أصعد سلم السفارة بعد اعضاء قابلت العقيد « ايان جايوب » الذى غدا السير « ايان » ، فقال لى العقيد : انها لانباء سيئة عن جوت . فقلت : وماذا حدث له ؟ : « لقد أسقطوا الطائرة التى استقلها الى القاهرة بعد ظهر اليوم » وقد اعترانى الأسى والألم لفقدان هذا الجندى الممتاز الذى قررت أن أسند اليه القيادة المباشرة فى المعركة الكبرى المتوقعة ، وهكذا اضطربت كل الخطط التى وضعتها ، فقد كان تعيين « جوت » لقيادة الجيش الثامن - بما عرف عنه من خبرة فى حرب الصحراء ومكانة حربية ممتازة - يوازى تنحية « أوكنلك » عن القيادة العامة ، ليخلفه فيها اليكسندر فماذا أصنع الآن ؟ . ولم يساورنى شك فى من يجب أن يخلفه فأبرقت الى المستر اتلى أقول : « يوصى رئيس الاركان العامة توصية شديدة بتعيين مونتهجرى قائدا - للجيش الثامن ، وأشعر أنا وسمطس بضرورة ملء هذا المنصب فى الحال . . أرجو ايفاده فى طائرة خاصة فى أسرع وقت . وأخبارى بموعد وصوله . . »

وقد بدا أن وزارة الحرب اجتمعت فى الحادية عشرة والربع من مساء السابع من أغسطس لدراسة البرقيات التى بعثت بها فى ذلك اليوم ، والتى تم حل رموزها ، وكان المجلس لا يزال يناقش هذه البرقيات عندما دخل قاعتهم أحد السكرتيرين حاملا الرسائل الجديدة القائلة : « ان جوت قد قتل » . . واننى أطلب ارسال الجنرال مونتهجرى فورا الى القاهرة ، وقيل لى : ان تلك اللحظة كانت شاقة على اصدقائنا فى « داوننج ستريت » ولكنهم تحملوا الصدمة الجديدة ، كما تحملوا ما سبقها من صدمات فى حزم وشجاعة وواصلوا الاجتماع حتى قبيل

الفجير ، ووافقوا على كل النقط الرئيسية التي اقترحتها وأصدروا الأوامر اللازمة بشأن مونتجومرى .

وحينما أرسلت رسالتي الى وزارة الحرب، أبلغتها فيها بمصرع «جوت»، طلبت من الزملاء عدم ابلاغ الجنرال ايزنهاور بأننا كنا نعتزم اعطاء مونتجومرى بدلا من اليكسندر ، بيد ان هذه الرسالة جاءت متأخرة ، اذ كان انبأ قد نقل اليه : ان التغيير الجديد للخطة . كان ينطوي على نوع مزعج من الارتباك لعمليه « المشعل » فقد اختير الجنرال اليكسندر لتولى قيادة الجيش البريطانى الاول فى هذه العملية الكبيرة الضخمة وكان قد بدأ يعمل فعلا مع الجنرال ايزنهاور وقد تفاهما تفاهما رائعا والآن ٠٠٠٠ ها نحن أولاء ننتزع منه « اليكسندر » لتولى قيادة الشرق الاوسط ، ثم نوفد الجنرال « ايسماى » الى ايزنهاور لينقل اليه انبأ مع تقديم اعتذارى عن انقطاعى من مراسلته ، - ووجود بعض الاضطراب وليس لهما من عنة الا طبيعة الحرب ومقتضياتها ، وقد ركز « ايسماى » حديثه على المواهب التى يتمتع بها « مونتجومرى » كقائه فى الميدان ، ووصل مونتجومرى على الفور الى مقر قيادة ايزنهاور ، وتمت كل الاجراءات التى تتطلبها اجتماع مثل هذا بين قائدى جيشين يمتان الى شعبين مختلفين ، وان كانا قد أدمجا للقيام بعملية واحدة ، وفى صباح اليوم التالى أى فى الثامن من أغسطس أصبح من الضرورى ابلاغ ايزنهاور بما يتحتم على مونتجومرى فى ذلك اليوم من الطيران الى القاهرة لتولى قيادة الجيش الثامن ، وقد اختير « ايسماى » أيضا لإداء هذه المهمة وكان ايزنهاور رجلا واسع الافق متفانيا فى أداء الخدمات ، عمليا ، يعالج الاحداث على ضوء الواقع دون تأثر وفى غاية الهدوء، ومع ذلك فقد أزعجه دون شك وقوع هذين التغيرين فى يومين متتاليين فى هذا المنصب الهام ، وهو مرتبط بعلميه عهد ابيه بترتيبها وقيادتها ، وما هو ذا يجد نفسه مضطرا الآن الى الترحيب بقائه بريطانى ثالث ، ولا عجب أن رأيناه يسأل « ايسماى » : هل البريطانيين جادون فى عملية «المشعل»؟ ومع ذلك فقد كان موت « جوت » حقيقة حزبية يعيها ويفهمها جيدا كل جندي ممتاز ، وقد اختير الجنرال « أندرسون » لشغل المنصب ، ومضى «مونتجومرى» الى المطار مع « ايسماى » الذى مكث معه زهاء ساعة ليحيطه علما بأسباب هذه التغيرات المفاجئة ٠٠٠٠

وقد رويت قصة عن هذا الحديث لم تتحقق مع الاسف ، فقد قيل : ان مونتجومرى قد تحدث عن المتاعب والمخاطر التى يتعرض الجندي فى حياته وذكر أن الجندي يكرس حياته كلها لمهنته وعمله ، ويقضى سنوات طويلة فى الدراسة وضبط النفس ، وما هو ذا يبتسم له الحظ ، فقد أطلت عليه اشراقه من النجاح ، وحقق انتصارا ، وهامى ذى الفرصة تواتيه فيمنح قيادة عظمى ، وقد انتصر ، وغدت شهرته تملأ الافاق واصبح اسمه على كل لسان ، ثم تنكر له الحظ فانهار كل ما بناه فى حياته وربما لا يكون هذا نتيجة هفوة هفاها ، ولكن سوء الحظ يأبى الا أن يسجل اسمه فى سجل العسكريين الفاشلين وهنا قاطعه « ايسماى » محتجا : « ينبغي ألا تحمل الامور على هذا المحمل السيئ فهناك جيش عظيم يحتشد الآن فى الشرق الاوسط ،

ومن المحتمل ألا تنتهى الى كارثة : وهنا صاح مونتهجومرى - وهو يجلس فى سيارته - : ماذا تقول ؟ ماذا تعنى ؟ .. لقد كنت أتحدث عن رومل ..

وقد تحتم على حين ذاك ان ابلغ الجنرال « أوكنلوك » نبا تنحيته عن القيادة ولما كنت قد تعلمت من دروس الماضى وعبره ، أن من الافضل أن يكون مثل هذا العمل المزعج كتابة لا مشافهة فقد أرسلت اليه مع العقيد « جيكونب » الرسالة التالية :

القاهرة - ٨ من أغسطس سنة ١٩٤٢

عزيزى الجنرال أوكنلوك :

لقد أثرت فى برقيتك الموجهة الى رئيس أركان الحرب فى الثالث من يونيو موضوع رغبتك فى ترك هذه القيادة ، ورشحت الجنرال اليكسندر لتوليها ولم ترغب حكومة جلالتك فى ذلك الوقت العسير - الذى يمر به الجيش - فى الافادة من هذا العرض الذى ينطوى على أصالة رأى وفى الوقت نفسه توليت قيادة المعركة فعلا - كما كنت أرغب منذ عهد بعيد - وكما اقترحت عليك فى برقيتى بتاريخ ٢٠ من مايو وقد تمكنت من إيقاف التيار المضاد ، وغدت الجبهة الآن مستقرة

٢ - وقد قررت وزارة الحرب الآن - للأسباب التى ذكرتها انت - أن الفرصة غدت مواتية لاجراء تغيير ، واقتراح : فصل العراق وايران عن القيادة الحامية للشرق الاوسط . وتقرر أن يتولى اليكسندر قيادة الشرق الاوسط على أن يتولى مونتهجومرى قيادة الجيش الثامن ، وهانذا أعرض عليك قيادة العراق وايران مع الجيش العاشر ، على أن يكون مقر قيادتك فى البصرة أو فى بغداد . وفى الواقع يعتبر هذا الميدان فى الوقت الحاضر أصغر من ميدان الشرق الاوسط ، ولكنه قد يضحى فى خلال عدة شهور ، مسرحا لعمليات حربية حاسمة ، وهى ذى الامدادات فى طريقها الآن للجيش العاشر ، وستحافظ على ارتباطك بالهند فى هذا الميدان الذى خيرته من قبل ، وانى لآمل - بناء على ذلك - أن توافق على توجيهاتى ورغبتى هذه ، بما نعهد فيك دائما من روح عالية ورغبة فى الخدمة العامة ومن المرتقب أن يصل اليكسندر فورا ، كما آمل أن يتم فى أوائل الاسبوع المقبل تحول المسئولية فى جبهات القتال الغربية بمنتهى اليسر والفاعلية ، مع توقف كل شئ على حركات العدو .

٣ - يسرني جدا أن أراك فى أى وقت يناسبك . متى رغبت فى ذلك

صديقى

اننى المخلص لك

ونستون ١٠ س . تشرشل

ملاحظة :

لقد كلفت العقيد جيكونب ، حامل رسالتي هذه ، بأن يعرب لك عن تعازي الخالصة بفقدنا المفاجيء للجنرال جوت .

وفي المساء عاد « جيكونب » وكان أوكنلك قد تلقى هذه الضربة بما ينبغي أن - يقابلها به من كبرياء رجل عسكري ، ولم يكن راغباً في قبول القيادة الجديدة ، وقد ذكر للعقيد أنه سيحضر لمقابلتي في اليوم التالي ، وكتب العقيد في يومياته يقول :

لقد استيقظ رئيس الوزراء من نومه في الساعة السادسة وكان على أن أنقل اليه ما أمكنني - تفصيل ما دار بيني وبين الجنرال أوكنلك ، وقد انضم إلينا رئيس الأركان العامة للامبراطورية ان عقل رئيس الوزراء مركز على شيء واحد هو أن نهزم رومل ، وأن يتولى الجنرال اليكسندر المسئولية الكاملة عن العمليات في الصحراء الغربية ، وهو لا يستطيع أن يفهم ، كيف يستطيع الرجل أن يظل في القاهرة ، على حين تقع أحداث كبرى في الصحراء تاركا إدارة المعركة لشخص آخر سواء ، وكان الرئيس يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يردد هذه النقطة . مصمما على تنفيذ ما يريد ، ثم صاح فجأة : « رومل . . رومل » أهناك أمر ما يهمنا سوى أن نهزمه ؟ . .

وبعد الظهر بقليل وصل الجنرال أوكنلك الى القاهرة وتحدثنا ما يقرب من ساعة حديثا بدا على الفور فاترا بالرغم من أنه كان بعيدا عن الأخطاء . وفي ذلك المساء أقبل الجنرال اليكسندر لمقابلتي واتخذت الترتيبات النهائية للتغييرات التي حدثت في القيادة ، ونقلت كل هذه النتائج الى لندن في برقية أعتقد أن الفقرة التالية منها مهمة غاية الأهمية .

وجهت الى الجنرال اليكسندر التوجيه التالي الذي جاء موافقا لرغباته وحائزا لموافقة رئيس أركان الحرب

١ - ان واجبك الاول الاساسي هو : أن نأسر أو ندمر الجيش الألماني الإيطالي الذي يقوده الفيلد مارشال رومل ، مع كل ما لديه من تجهيزات ومؤسسات في مصر وليبيا في أقرب فرصة ممكنة .

٢ - ستتولى إدارة وتنفيذ كل ما يتعلق بقيادتك من واجبات على الا يؤثر عملك هذا على الواجب المنصوص عليه في الفقرة الاولى ، وهو ما ينبغي أن يكون في صدر مصالح جلالته .

وقد يكون من الممكن - في مرحلة لاحقة من الحرب - عدم تأكيد هذا التوجيه ، ولكنني واثق من أن البساطة في تحديد المهمة ووضوح الهدف هما شرطان أساسيان في الوقت الحاضر .

وقد وافانا « اليكسندر » برده بعد ستة أشهر ، وسنتحدث عنه في حينه .

مجموعة اخترنا لك

تصدر

أسبوعية باللغات العالمية

يشارك في تحريرها وإعدادها

لجنة "اخترنا لك"



المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٥٨٨ - ٤٠٧٥٣ - ٤٠٨١٤ - ٤١٠١٢

Bibliotheca Alexandrina



0415881

الشمس ١٠ قروش